الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة التّعليم العالي و البحث العلمي
جامعة أحمد دراية أدرار الجزائر

كلّيّة الآداب و اللّغات
قسم اللّغة و الأدب العربي

نكران الذّات في نثر عبد الحميد بن باديس
" دراسة وصفيّة أسلوبيّة "

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة "دكتوراه" علوم في اللّغة والأدب العربي

لجنة المناقشة

رقم	الاسم و اللّقب	الرّتبة	مؤسّسة الانتماء	الصّفة
1	إدريس بن خويا	أستاذ التّعليم العالي	جامعة أدرار	رئيسا
2	محمّد الأمين خلّادي	أستاذ التّعليم العالي	جامعة أدرار	مشرفا، مقرّرا
3	كريمة صنباوي	أستاذة محاضرة "أ"	جامعة أدرار	عضواً
4	يوسف وغليسي	أستاذ التّعليم العالي	جامعة قسنطينة	عضواً
5	محمّد السّعيد بن سعد	أستاذ التّعليم العالي	جامعة غرداية	عضواً
6	محمّد نور	أستاذ محاضر "أ"	جامعة بشّار	عضواً

إعداد الطّالب:
عبد الحميد عطواني

بإشراف الأستاذ دكتور:
محمّد الأمين خلّادي

السّنة الجامعيّة: 1441هـ/1442هـ2020م2021

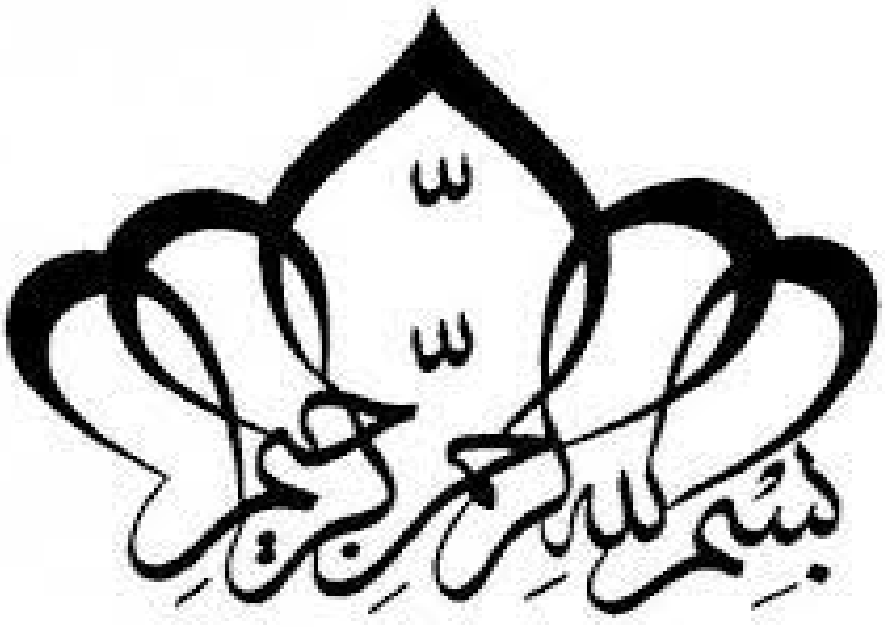

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

الحشر، الآية: (09)

إهداء

إلى روح الوالدين الكريمين رحمهما الله.

إلى من آزرتني و سهرت معي اللّيالي و هيّأت لي الظّروف في سبيل إتمام هذا البحث، زوجتي الحبيبة.

إلى من قصرت في حقّهما بانشغالي عنهما، قرّتا عيني ابني إسحاق و ابنتي إيمان.

إلى كل إخوتي و أخواتي و أقاربي و أصدقائي.

أهدي ثمرة هذا الجهد.

أقدّم جزيل الشّكر للأستاذ المشرف محمّد الأمين خلّادي الذي كان الأستاذ الصّارم إذا ما تهاونت و الأمل النّاعم إذا ما يئست، فكان بحق نعم من أرشد فبانت به الطّريق و نصح فعبّدت بنصحه المسالك.

مقدّمة

بسم الله الرّحمان الرّحيم، و صلى الله على سيدنا محمّد و آله و صحبه أجمعين.

حظي عبد الحميد الإمام المصلح و المفكّر المربّي باهتمام عديد الدّارسين، فالرّجل كان زعيم أمّة و رائد نهضة، أُلّفت في حقّه كتب و نشرت في إسهاماته دراسات و ألقيت في جهوده محاضرات، لكنّ الجانب الفنّي من نتاجه ظلّ مغمورا سجين الأوراق، طُمِرَ وراء أفكار ابن باديس النّيّرة، و حكم عليه دارسو الأدب و نقّاده بالإهمال.

فابن باديس الكاتب الأديب لم يأخذ حقّه من الدّراسة و البحث في هذا الجانب _ فيما اطّلعنا عليه من أعمال في هذا المجال _، و لعلّ كثيرا من أصحاب الاختصاص لم يقولوا كلمتهم بعد في هذه الجانب.

فقد وجدنا أنّ معظم الدّراسات التي تناولت أعلام الحركة الإصلاحيّة و إبداعاتها النّثريّة و بالأخص عبد الحميد بن باديس وجّهت عناية اهتمامها إلى الجانب الإصلاحي من نتاجه النّثري، و أغفلت دراسة الجانب الفني في كتاباته، و من ذلك كتاب الدّكتور رابح تركي "الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربيّة في الجزائر"، الذي تناول فيه حياة ابن باديس الشّخصية، فأفرد جزءا كبيرا من هذا المؤلّف لتبيان دوره الإصلاحي و التّربوي والفكري، و نجد كذلك كتاب عبد القادر فضيل و محمّد الصّالح رمضان "إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس"، اللّذين تعرّضا فيه إلى جوانب من حياة ابن باديس الخاصّة و مواقفه السياسيّة، و آرائه الفكريّة و الفلسفيّة، و إسهاماته الإصلاحيّة

في مجال الدّين و التّربية و التّعليم، و نجد كذلك كتاب الدّكتور عبد الكريم بوصفصاف" الفكر العربي المعاصر (محمّد عبده و عبد الحميد بن باديس) نموذجا في جزأين، الذي قارن فيه بين المفكّرين على مختلف الأصعدة (الحياة الشّخصيّة، التّعليميّة، و العلميّة، و الفكريّة، و السّياسيّة).

لذلك حاولنا في هذه الأطروحة أن نركّز عناية اهتمامنا على هذا الجانب المتغافل عنه في كتابات ابن باديس، فلفت حسّنا الأدبي أثناء بحثنا فيما كتب عنه بخاصّة و رجالات الإصلاح بعامّة مزيّة طبعت شخصيّته و نتاجه النّثري (الرّسائل _ الخطب _ المقالات) بطابع خاص غفلت العيون عن رؤيته، و رؤية سرّ جماله في كتاباته ألا و هي ظاهرة: نكران الذّات.

فالمطلع على نثر الشّيخ عبد الحميد بن باديس لاشكّ سيلحظ عزوفه عن تصوير الجانب الشّخصي، والإفصاح عن وجدانه و أحاسيسه، و هذا يعود إلى أنّ الرّجل كان جاداً غيريًا لا ذاتيّا؛ إيثاريّا لا أثريا، شغلت فكره الاهتمامات العامّة، و استغرقت ذاته معاناة الآخرين، و كان إلى جانب ذلك رائد نهضة و زعيم أمة، فتضافرت هذه العوامل الفطرية منها و المكتسبة لتجعل منه رجلاً زاهدا في الحديث عن الذات و هواجسها المختلفة، عازفاً عن كشف نوازعه الخاصة، معرضاً عن البوح بأسرار قلبه سواء أكانت أفراحاً أم أقراحا، و هذا ما طغى على نثره.

و الذي يهمّنا في بحثنا هذا هو بيان العوامل التي رسّخت هذه الميزة عند علماء

الإصلاح و نثرهم بعامّة، و عبد الحميد بن باديس و نثره بخاصّة، و كيف استطاع علماء الإصلاح بتمثّلهم هذه الميزة في أدبهم بأن يقفزوا بالأدب الجزائري من مرحلة الضّعف و الجمود إلى مرحلة الازدهار و النّشاط؟، ثمّ هل استطاعت هذه الميزة أن تطبع رسائل ابن باديس و خطبه و مقالاته بسمات عامّة يمكن رصدها بمجرّد تصفّحها؟، و ما أبرز المضامين و الأساليب التي نضحت بها هذه الفنون و هي مغلّفة بهذه الميزة؟، ثمّ إلى أي مدى استطاعت هذه الفنون أن تعبّر عن الجانب الإنساني عنده من جهة، و عن هموم الوطن و الجزائريين من جهة أخرى؟ و كيف أنّ هذا الجانب الإنساني الغيري أضفى على كتاباته النّثريّة صبغة جماليّة و فنّية ما كانت لتظهر لو جاءت ترسف بالأفكار الذاتيّة و المهارات اللّغويّة الفرديّة؟.

و قد اخترنا لبنات أفكارنا "نكران الذّات" في نثر عبد الحميد بن باديس: (الرّسائل، الخطب، المقالات) "دراسة وصفيّة أسلوبيّة"؛ كعنوان سنحاول من خلاله تتبّع مظاهر نكران الذّات عند الأديب و في نثره، و ذلك برصد المواقف التي تعرّض لها و الموضوعات التي تطرّق إليها هذا بخصوص المتحوّل النّظري، أمّا عن المتحوّل التّطبيقي ففحواه اختيار مدوّنة التّرسّل و الخطب و المقالات عند عبد الحميد بن باديس و محاولة الوقوف على الدّلالات الأدبيّة و النّفسيّة و الفكريّة... لبعض الظّواهر اللّغويّة من خلال أدوات الأسلوبيّة معتمدا في ذلك الوصف و التّحليل.

لاشكّ أنّ قراءاتنا و عودتنا إلى المواد المدروسة بالمشروع حملتنا على اختيار

موضوعنا هذا، و أخذنا بالنّصائح و التّوجيهات التي تفضّلت بها لجنة مناقشة مذكّرة الماجستير بالاستزادة و التّوسع أكثر في هذا الموضوع، و من البواعث على ذلك أنّنا وجدنا ميزة نكران الذّات في رسائل و خطب و مقالات عبد الحميد بن باديس لم يُستوف حقها من الدّراسة و البحث، كما رأينا أنّه من الإجحاف في حقّ العلاّمة _ و هو الذي كان همه يتجاوز نفسه إلى غيره _ أن يقابل بهذه الأحكام البسيطة عن أسلوب بعض منثوره، ناهيك عن ميلنا إلى قراءة كتابات الجزائريين من العلماء الذين واكبوا فترة الاحتلال.

و قد كانت هذه البواعث حافزا لنا لإبراز سمة نكران الذّات في كتاباته، تلك السّمة التي أثّرت في المواطن الجزائري و ما زالت، كما كانت ملهمة لنا في تبيان سمّو (رسائله _خطبه_ مقالاته) عن كلّ جمال لغوي، لكن ليس معنى هذا أنّ كتاباته خلو من الأسلوب الواضح الرّائق الشّيّق الغائي، ممّا سنبيّنه في تحليل النّماذج المختارة و مستوياتها المختلفة.

إضافة إلى أنّنا وددنا إحالة الدّارسين و طلبة العلم على موروث الجزائريين و ما توفرت عليه كتابات عبد الحميد بن باديس من لغة و بناء فكري حضاري و ذخيرة ثقافيّة من شأنها أن توجه الجزائري نحو الأفضل و تمدّه بأسرار أخرى في البيان و الفكر...

لذلك حاولنا في هذه الأطروحة أن نبيّن هدف عبد الحميد بن باديس _ في نظرنا _ الإصلاحي و الجماعي و بالتّالي الغيري الموجّه في أغلبيّته إلى العامّة كان سببا في

أن تأتي كتاباته (رسائله و خطبه و مقالاته) سهلة واضحة مراعاة لمستوى ثقافة الشّعب الجزائري حتّى يفهموه و يحسنوا التّجاوب معه. و هذا ليس معناه أنّ عبد الحميد بن باديس لا يملك حس الجمال اللّغوي و الفني و ناصية القول، و لكنّ الرّسالة التي كان يؤديها هي التي فرضت عليه هذا الأسلوب.

و بهذا فإنّ موضوعنا ليس تكراراً لما سبق _ و إن اشتمل على بعض ما تناوله الباحثون في كتاباتهم و هذا ما يتطلّبه بحثنا _؛ و إنّما يحوي ظاهرة خاصّة تحتاج بحثا و تفصيلا، و ذلك بجمع المادّة التي تحتوي رسائل و خطب و مقالات العلاّمة في موضوعات مختلفة ظلت فيها ظاهرة "تكران الذّات" ثابتة بارزة، لها خصائصها المتميّزة في المضمون و الشّكل، و لها قسمات ظهرت في تعاملاته الإنسانيّة و الاجتماعيّة لا قولا فقط، و كذا في أفكاره، و في التزامه بتعاليم دينه، و حتّى نفسيّته.

لعلّ أهم منهجين اعتمدنا عليهما في تحليل ملابسات هذا البحث، و الوصول إلى نتائجه هما المنهج الوصفي و المنهج الأسلوبي، على اعتبار أنّ الدّراسة الوصفيّة تساعدنا على تأمّل الظّاهرة (تكران الذّات)، و جني ثمارها في رسائل و خطب و مقالات عبد الحميد بن باديس و قطفها على مستوى البناء و الأسلوب، معتمداً على أساس هذه الدّراسة و هو الرّصد و الشرّح و التّفسير.

أمّا المنهج الأسلوبي فيساعدنا على البحث في الأسرار التي مكّنت نثر ابن باديس _ و هو ينطوي على هذه الميزة _ من توصيل رؤيتها و الكشف عن القوانين

الدّاخلية و الخارجيّة في نظامها و فهم عناصرها و إدراك دلالاتها.

و حتّى نتوصّل إلى الأهداف المرجوّة من هذه الأطروحة انتهجنا خطّة تتضمّن مقدّمة و أربعة فصول و خاتمة يأتي سيرها كالآتي:

ففي الفصل الأوّل حاولنا أن نلمّ بالعوامل التي أدّت إلى بروز خاصيّة نكران الذّات عند علماء الإصلاح، و أثرها في الأدب الجزائري.

أمّا في الفصل الثّاني قدّمنا فيه نبذة عن حياة ابن باديس و دوره الإصلاحي ثمّ عرّجنا على عوامل نكران الذّات عنده و أبعادها، و كذلك تطرّقنا في هذا الفصل إلى السّمات العامة لنكران الذّات في كتاباته.

بينما الفصل الثّالث تحدّثنا فيه عن نتاج ابن باديس النّثري (الرّسائل _ الخطابة _ المقال)، و بيّنّا ملامح نكران الذّات في نثره الفني.

و في الفصل الرّابع و الأخير الذي كان فصلا تطبيقيّا خالصا حاولنا فيه تقصّي الجماليّات الأسلوبيّة لنكران الذّات في رسائل ابن باديس و خطبه و مقالاته.

و أنهينا البحث بخاتمة حاولنا فيها حوصلة أهم النّتائج التي توصّلنا إليها.

و قد استعنا في إنجاز هذا البحث بمراجع كثر و مصادر درر، شملت حقولا معرفيّة متنوّعة؛ من كتب التّراث العتيقة إلى الكتب العربيّة المعاصرة و المجلاّت التي أسهمت في إثراء موضوعنا و إخراجه في صورته المتواضعة، و أذكر على سبيل المثال لا الحصر الكتب التّاليّة:

"في الأدب العربي الحديث بالجزائر" لمحمّد بن سمينة، "الشّيخ عبد الحميد بن باديس (رائد الإصلاح الإسلامي و التّربوي في الجزائر)" لرابح تركي ، كتاب "عبد الحميد بن باديس و بناء قاعدة الثورة الجزائريّة" لبسّام العسلي، و كتاب "تطور النّثر الجزائري الحديث1830_1974" لعبد الله الركيبي، و سلسلة كتب لسليمان عشراتي عن ابن باديس، كتاب "ابن باديس حياته و آثاره" لعمّار الطّالبي، " التّفسير النّفسي للأدب" لعز الدّين إسماعيل، و من المجلات الشّهاب و غيرها من العناوين التي يطول ذكرها.

و خلال بحثنا هذا اعترضتني بعض الصّعوبات التي قطعت الطّريق أمام ما كنا نصبوا إلى تمام تحقيقه من أهمّها: قلّة المراجع التي تتحدّث عن النّتاج الأدبي لعبد الحميد بن باديس، و ندرة الدّراسات التي تتناول الجانب الفني في نتاجه الأدبي.

و أخيرا أقدّم جزيل الشّكر للأستاذ المشرف محمّد الأمين خلّادي، كما أسجّل شكري و تقديري لأعضاء لجنة المناقشة الذين ما ادّخروا جهدا لتقويم هذه المذكّرة.

الطّالب: عبد الحميد عطواني

تمهيد

أوّلا: عوامل بروز خاصيّة نكران الذّات عند علماء الإصلاح

1_ العامل التّاريخي

2_ العامل الدّيني

3_ العامل الفكري

ثانيّا: أثر نكران الذّات في الأدب الإصلاحي

1_ أدب جامد لواقع غائب

2_ أدب متفاعل بواقع حاضر

تمهيد:

إنّ ما عاشته الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي من تدهوّر اجتماعي فكري و اقتصادي كان كفيلا أن يبكي العقول نباهة و عبقرية كما أبكاها دما و دموعا حتّى تخرج من واقع مرير وقعت فيه قصرا و عانت تَبِعاته دهرا من الزّمن.

فالنَّبيه يولد وقت الأزمة ذلك «أنّ عظماء الإنسانيّة سواء كانوا أنبياء أو رجال فكر أو قادة شعوب يظهرون في عصور الاضطراب الفكري عندما تختلط السّبل و تتضارب المفاهيم و يتكاثر دعاة الهداية أو غربان الضلال»[1]، فتجده يتجرع كأس مرارتها أحاسيسا و يتلدّد حلاوة حلها أفكارا.

و قد كان هذه حال علماء الإصلاح في الجزائر الذين ظهروا في وقت تكالبت فيه أياد داخل الجزائر و خارجها لطمس الهويّة الجزائريّة، فقد اجتمع فيهم الدّين و العلم و الإحساس بواقع مؤلم يعيشون فيه، و يشهدون جراحه على أجساد الجزائريين و عقولهم و قلوبهم.

ففطنة علماء الإصلاح تمخضت عن معاناة فرديّة و جماعيّة تركت نَدَبَات معنويّة و فكريّة خلاّقة، و تغذّت بمناهل دينيّة، و علميّة واسعة، أشعل بفضلها العلماء فتيل يقظة أمّة بأكملها و هذا ما أكّده عبد الحميد بن باديس مادحا إيّاهم عندما قال: «لم يجتمع في بلد من بلاد الإسلام فيما رأينا و سمعنا، و قرأنا مجموعة من العلماء وافرة

[1] _ محمّد الميلي: ابن باديس و عروبة الجزائر. الجزائر، وزارة الثّقافة، (د.ط)، 2007م، ص36.

الحظّ من العلم مؤتلفة القصد و الاتجاه مخلصة النيّة، متينة العزم، متحابة في الحقّ، مجتمعة القلوب على الإسلام و العربيّة، قد ألّف بينها العلم والعمل، مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار»[1].

و لعلّ تحرك علماء الإصلاح الجماعي المنظّم نحو قصد مشترك زاد من قوّة نهجهم، و صلابة عزمهم، في اقتلاع جذور الجهل، و زرع بذور الوعي في أوساط الشّعب الجزائري، ذلك «إنّما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله و رسوله إذا كانت لهم القوّة و إنّما تكون لهم القوّة إذا كانت لهم جماعة منظّمة تفكر و تدبر و تتشاور و تتأزر و تنهض لجلب المصلحة و لدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر و عزيمة»[2].

إنّ تفكير علماء الإصلاح كمجموعة ذات فكرة و توجُّه واحد نأى بهم عن التّصادم النّاجم عن اختلاف الرّأي و ذاتيّة الفكر و احتكاره؛ فسفينة الإصلاح ما كان لها أن تُرسي دعائمها ما لم تفكّر بعقل واحد، و تعمل على تحقيق هدف محدد، فالمبدأ «الذي يقوم عليه العمل الموجه هو أنّ اثنين أو أكثر من النّاس ينهمكون في ملاحقة هدف

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «كلمة المحتفل به». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الرّابع و الخامس، المجلّد الرّابع عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الثّاني و جمادى الأوّل 1357هـ/جوان جوليت 1938م، ص190.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: «الاجتماع العام للأمر الهام». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الأوّل، المجلّد الثّالث، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، محرّم 1356هـ/14 مارس1937م عشر، ص 03.

محدّد مع اتجاه ذهني إيجابي يشكلون قوة لا تهزم»[1]، فكان تفكير و عمل علماء الإصلاح «بأيديولوجيّة الجسد الواحد، أيديولوجيّة تمحو الفروق و تنسّق الواقع لتجعله يتوافق مع هذه الأمّة»[2] السّلاح الأقوى لحلّ قضايا الأمّة الجزائريّة و السّبب الرّئيس الذي عزّز مقدرتها على النّجاح في الوقوف حصنا منيعا أمام مخطّطات الاستعمار الفرنسي الغاشم.

فعملهم كمجموعة لصالح تحقيق منفعة عامّة أقصى ذواتهم ليس كأفكار، و إنّما كذوات مُنْحَازة لنفسها متشبّثة برأيّها فقط، «فالنّوازع الفرديّة ماتزال موجودة، جنبا إلى جنب مع الرّغبة الجماعيّة الملحّة»[3]، فروح العمل الجماعي لفائدة الآخرين تنكر أي دوافع شخصيّة في تحقيق رغبات ذاتيّة داخلهم و في أعمالهم، و تجعل الرّوابط بينهم «أكثر صلابة و ثباتا من الصّداقة الحميمة»[4].

إنّ سعي علماء الإصلاح لجلب الخير للأمّة الجزائريّة جرّدهم من تلك النّظرة

---

[1]_ إبراهيم الفقّي: العمل الجماعي. دار أجيال للنّشر و التّوزيع، الطّبعة الأولى، 1430هـ/2009م، ص08.

[2]_ Charlotte Courreye :« L'école musulmane algérienne de Ibn Bàdîs dans les année 1930, de l'alphabétisation de tous comme enjeu politique », Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée [En ligne], 136 | novembre 2014. URL: http://journals.openedition.org/remmm/8500.

[3]_ محمّد قطب: الإنسان بين الماديّة و الإسلام. القاهرة مصر، دار الشّروق، الطّبعة العاشرة، 1409هـ/1919م، ص114.

[4]_ Ali Merad : Le Réformisme Musulman En Algérie de 1925 à 1940, Paris, Maison des sciences de l'homme, 1967, p 79.

الفرديّة التي تقوم على أساس نزعة أنانيّة غير مستقيمة تسعى لتحقيق منفعة خاصّة، فالعمل الصّالح "من حيث أثره ينقسم إلى قسمين: عمل هدفه جلب النّافع للإنسان و المرضي لله، و عمل هدفه دفع الضّار بالإنسان و المغضب لله، و الفرد الذي يمارس القسمين من العمل يطلق عليه اسم (الصالح _ المصلح)"[1]، و كان هذا هو الطّريق الذي سار عليه العلماء طيلة فترة عملهم؛ إذ لم يكن الصّالح الخاص السّبيل المنشود لأيّ عالم من أولئك العلماء، بل كان ذلك الصّالح العام الذي يخرج الجزائر برجالها و نسائها و أطفالها من دوّامة الجهل و يطفو بها الى برّ النّور، فلا مكان بينهم لعمل هدفه جلب النّافع و رفع الضّار لذواتهم وحدها.

*_ و منه يمكن أن نوجز القول فيما يأتي:

_ ما عاشه الشّعب الجزائري إبّان الاحتلال الفرنسي كان سببا في بروز علماء الإصلاح، و استنهاض هممهم للخروج بالجزائر و شعبها ممّا وقعت فيه قصرا.

_ تفكير علماء الإصلاح الجماعي كان سببا في نجاح خططهم.

_ إيثارهم المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة زاد من قاعدتهم الجماهريّة.

[1] _ ماجد عرسان الكيلاني: أهداف التّربيّة الإسلاميّة (دراسة مقارنة بين أهداف التّربيّة الإسلاميّة و الأهداف التّربويّة المعاصرة). المدينة المنوّرة، مكتبة التراث، الطّبعة الثّانية، 1408هـ_1988م، ص49.

أوّلا: عوامل بروز خاصيّة نكران الذّات عند علماء الإصلاح:

لم تكن ميزة نكران الذّات منهج حياة مكتسب أو فكرة درّست في الكتب، بل هي وليدة طبع وُلد في المهد، و تغذّى بأرقى و أنقى ما بعث به خير البريّة محمّد صلى الله عليه وسلّم، وصُقل بعوامل مختلفة أججت قلوب علماء الإصلاح و عقولهم حتّى طغت هذه الميزة على حياتهم الشّخصيّة و خدمت أمّتهم الجزائريّة بل و حتّى الإسلاميّة.

1_ العامل التّاريخي:

إنّ ظلم فرنسا طال الجميع، لم يستثن فقيرا همّه قوت يومه، أو مفكّرا يسعى لتغذيّة عقله، أو عاملا يجري وراء الحفاظ على منصبه، بل إنّ ظلم فرنسا لم يستثن الطّفل في مهده، و الأمّ في بيتها فكيف لا يشعر علماء الإصلاح بهذا الظّلم و قد علقت جراحه في أذهانهم صغارا، و رُسمت ندباته على أجسامهم كبارا، و كيف لهم أن يعيشوا واقعا خاصا يحمل تطلعاتهم الشّخصيّة بعيدا عن آهات و أنّات ذويهم و أصدقائهم و محبيهم.

إنّها مأساة جماعيّة رُضّعت من الأثْدَاء، و سَرَت في الدِّماء فَوُرِّثَت من جيل إلى جيل "قد استغرقت الجميع كما أنستهم أناة الوجدان الجمعي سماع أصوات العواطف الذّاتيّة الضيّقة»[1]، لا يمكن لأيّ كان أن يفكر في نفسه أو أن يصنع عالما يحمل تطلّعاته

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر (الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس). الجزائر، مطبعة الكاهنة، (د.ط)، 2003م، ص40.

وحده، فهو يستنشق هواءها الملوّث ممزوجا بجراحه و جراح أمّته.

فقد ولد علماء الإصلاح من أمثال عبد الحميد بن باديس و البشير الإبراهيمي و الطّيب العقبي و مبارك الميلي، العربي التبسّي و غيرهم و قد أنهكت فرنسا الجزائريين بالسّياسات الجائرة في مختلف مجالات الحياة، الاجتماعيّة، الاقتصاديّة، السّياسيّة، و الدّينيّة و الفكريّة و التي عانوا تبعاتها منذ وطئت أقدام فرنسا أرض الجزائر و حتّى مع بروز علماء الإصلاح كمفكرين إصلاحيين في السّاحة الفكريّة و السياسيّة، فكان أثر هذه السياسات عميقا في ترسيخ معالم الحسّ الجماعي لديهم، و رَكْنِ الحسّ الفردي خارج حيز اهتماماتهم ما لم يكن فيه تزكيّة لهذا الحس الجماعي. فلا بأس أن نعرض بعض ما نمّا هذه الميزة عند علماء الإصلاح:

أ_ اجتماعيّا:

عرفت الجزائر ظلما اجتماعيّا ذاق مرارته الشّعب بجميع أطيافه، فقد أدركت فرنسا الجائرة منذ البداية أنّها لن تحقق أهدافها على أرض الجزائر إلاّ بعد القضاء على شبكة العلاقات الاجتماعيّة بين أفراد المجتمع فقامت بدراسات معمّقة لعاداته و تقاليده و موطن ضعفه و قوّته فلجأت إلى وسائل قمعيّة تعسفيّة لتمزيق رباط المجتمع المتين و إذلال الشّعب و تركيعه من خلال:

1_ الادّعاء أنّ المجتمع الجزائري يقطنه عنصران من السّكان هم العرب و الأمازيغ و أنّ هذا الأخير له كيانه و لغته و عاداته الخاصة به، كما زعمت "أنّ الأمازيغ (البربر)

لم يعتنقوا الدّين الإسلامي إلاّ ظاهريّا فقط، و لم يمس الإسلام شغاف قلوبهم و أنّه من أجل ذلك يجب أن يكون لهم وضع خاص بهم»[1]، فكانت فرنسا من وراء ذلك تعمل على تفكيك روابط الوحدة الوطنيّة و تلعب على وتر العصبيّة و بعث روحها و روح النّعرات القبليّة، و إيقاظ الفتنة النّائمة بين العرب و الأمازيغ.

2_ تشريد الجزائريين بالاستلاء على أراضيهم الخصبة و توزيعها على المستوطنين ظلما و عدوانا بحجّة أنّ أصحابها لا يملكون عقدا يؤكّد أحقيّة امتلاكهم لتلك الأراضي ذلك «أنّ أغلبيّة المسلمين كانت تملك الجهات الشّاسعة من الأرض ملكا جماعيّا قوامه العائلة أو القبيلة، لا الفرد فقد صدر قرار سنة 1832 يقتضي ملكيّة الدّولة الفرنسيّة، لكلّ أرض لا يستطيع صاحبها أن يستظهر عقد امتلاك لها»[2] و قامت بطردهم إلى الجبال الجرداء و الأراضي القاحلة.

3_ لم تكتف الإدارة الفرنسيّة الجائرة بالاستيلاء على أراضي الجزائريين و حقولهم الخصبة التي تعد مصدر كسبهم و قوّتهم بل قامت بتفقيرهم و حرمانهم من حقهم في الحياة؛ فمنعت عنهم الماء و الغذاء و ذلك «بإحراق الغابات و المزارع و الحقول

---

[1] _ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس (رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر). الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للنّشر و الإشهار، الطّبعة الخامسة، 1422هـ/2001م، ص42_43.

[2] _ أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر. القاهرة مصر، مكتبة النّهضة المصريّة، (د.ط)، (د.ت)، ص110.

و البساتين و تخريب القرى و المدن و ردم العيون و الآبار»[1]، فدخلت البلاد في مجاعة لم يذكر التّاريخ لها مثيل في تاريخ الجزائر «سنة 1867 ممّا أدّى إلى هلاك نصف مليون من المسلمين»[2].

4_ تعمّد فرنسا إهمال الحالة الصحيّة للأوساط البائسة من الجزائريين بعدم تخصيص مراكز صحيّة قريبة من مقر سكناهم، و عدم توفير عدد كاف من الأطباء حتى يكونوا في خدمتهم فلم يكن «في قطر الجزائر إلاّ 1850 من الأطباء، يستقرون بالمدن و القرى الكبيرة أمّا القرى الجزائريّة حيث لا استعمار، و الباديّة فليس بها من طبيب، و لا قابلة و لا صيدلي و لا أيّة وسيلة من وسائل الصّحّة»[3] ممّا أدى إلى تفشّي الأمراض بينهم ففي «تلك الأوساط البائسة نجد الأمراض الخبيثة قد حطّت رحالها من سلّ و زهري و غير ذلك»[4]، فَانْبَرَى الموت يحصد أطفال الجزائر و نساءها بأعداد كبيرة نتيجة كدر العيش أو الإهمال الطبّي.

هي إذن معاناة جماعيّة استنزفت الأنفس و الأجساد و عمّقت إحساس الجزائري بغيره ممّن هو مضطهد في أرجاء البلاد فلا مكان بينهم لمن آثر النّفس و أخوه يَئِنّ من

---

[1] _ بسّام العسلي: عبد الحميد بن باديس و بناء قاعدة الثّورة الجزائريّة. الجزائر، دار النّفائس و دار الرّائد، طبعة خاصّة، 1431هـ/2010م، ص38.

[2] _ أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، ص111.

[3] _ المرجع نفسه، ص135.

[4] _ أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر. المطبعة العربيّة، (د.ط)، (د.ت)، ص359.

الوجع، أو بطنه تتلوى من جوع قد وقع، أو من رأسه من حزن على أرض سُلبت قد تصدّع، أو حبيب فارق الحياة إثر إهمال مصطنع، و رجالات الإصلاح أفراد من هذا المجتمع تجرعوا هذه المعاناة مع من حولهم و استغرقت ذواتهم.

ب_ اقتصاديّا:

اقتات الجزائريّون قبل الاستعمار على ما تزرعه أيديهم و ما تجنيه أراضيهم لكن بعدما سلب الفرنسيّون أراضيهم عنوة كان نصيبهم منها سوى الأراضي الجرداء البور التي لا تغني و لا تسمن من جوع "فمن الفلاحة يعيش القطر الجزائري و على الفلاحة كل اعتماده في الميدان الاقتصادي"[1]، فوجد الجزائريّون أنفسهم على أعتاب خراب اقتصادي محلّي كان سبب رزقهم في أوقات الشّدّة و الرّخاء ليُحَوّل إلى اقتصاد "تابع لاقتصاد دولة الاحتلال يعتمد في الأساس على ما تنتجه من محاصيل زراعيّة من ناحيّة و على ما يستخرج من باطن الأرض من مناجم مختلفة"[2]، لكنّ عائداته ترجع لصالح المستوطنين.

حتّم هذا النّهج الاستعماري في هذا المجال على توجّه الجزائريين أفواجا أفواجا نحو العمالة الفرنسيّة الرخيصة التي تتقاضى أجورا زهيدة مقابل عمل شاق؛ إذ كان الرّجل

[1] _ المرجع السّابق، ص 380.

[2] _ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس (رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر)، ص109.

العامل لا ينال "فوق 12 فرنكا يوميا إلاّ في القليل النّادر"[1]، ناهيك عن المعاملة السّيّئة التي كانوا يتلقونها من أرباب العمل.

فلم يجد بعض الشّباب الجزائري حلا للهروب من هذا الواقع الاستغلالي سوى البقاء عالة على ذويهم، ممّا أدّى إلى انتشار البطالة، أو اختيار البعض منهم للهجرة سبيلا لإعانة عوائلهم إذ بلغ عددهم بفرنسا "زهاء المائتي ألف عامل"[2].

أمّا من آثر البقاء في الجزائر و حبّذ وظائف الإدارة فقد سمحت له فرنسا بالتّوظيف فقط بمثابة "قائد أو قاض أو مترجم أو عون بوليس أو شاوش إدارة أو مدرس أو كاتب بإحدى الإدارات"[3]، لكنّه يتقاضى مقابل إحدى هذه الوظائف راتبا أقلّ ممّا يتناوله زميله الفرنسي.

لم تترك فرنسا إجراء مجحفا و لا قانونا تعسفيّا إلاّ و سنّته لتحطيم الاقتصاد الجزائري، و تسخير ثرواته لمصالحها، و لم تترك للجزائريين إلاّ خيارا واحدا إمّا العيش ذلا أو الموت قهرا تحت وطأة ما استخدمته لقمعهم، لكنّ الجزائريين أَبَوا إلاّ أن يكونوا على قلب رجل واحد، فلا ضنك العيش و لا التّسكع في الشّوارع أو العمل مقابل أجر زهيد، أو الهجرة إلى بلد بعيد أثنى من روحهم الوطنيّة الجماعيّة التي أبت إلاّ أن تعيش عزيزة، أو تموت شهيدة.

---

[1] _ أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص356.

[2] _ المرجع نفسه، ص356.

[3] _ المرجع نفسه، ص355.

*_ و خلاصة ما سبق ما يلي:

_ يعدّ الحرمان الاجتماعي و الاقتصادي الذي عرفه الشّعب الجزائري بعامّة و علماء الإصلاح بخاصّة من العوامل التّاريخيّة التي عمّقت إحساس الجزائري بغيره.

_ هذه المعاناة الجماعيّة استغرقت ذوات علماء الإصلاح، و طعّمت حبّ الأثرة لديهم، و أقصت حبّ الذّات عندهم.

2_ العامل الدّيني:

ذكر القرآن منذ نزل، و أيقنت الحضارات منذ الأزل أنّ أساس النّماء و التّقدّم بين الدّول فرد صالح يخاف الله بالقول و العمل، أخذ على نفسه عهدا أنّه لخير أمّته يسعى و لمضارها يدفع، فبدأ بنفسه ربّاها و طوّعها و لغيره يرجو النّفع بما صنع، همّه صلاح الفرد، فالجميع، فالمجتمع.

كان هذا ديدن رجالات الإصلاح في الجزائر، هي لله ثمّ لأمّتهم سعيهم لإصلاح عقيدة الجزائريين و عقليتهم لا لسلطة أو لجاه، اصطفافهم كأفراد أو كجماعة لجلب النّافع لأمّتهم، و دفع الضّار عنها، لم يولد توجههم هذا من عدم، بل هو سليل ورع و تقوى منذ نعومة أظفارهم ظهر، و خِرّيج مدرسة حياة مليئة بالحفر.

الكتاب و السّنّة بابان طرقهما أبرز علماء الإصلاح لتغذية أنفسهم و تهذيبها، فلولا الكتب و ما حوت، و التّجارب و ما علّمت لكانا المنبع الذي كفاهم طلب السؤال لكلّ أمر قد يقع، فكانت الكتاتيب القرآنيّة المهد الذي احتضنهم و صقل ذواتهم بنفحات

إيمانيّة لا مكان فيها لتكبّر يُوضِع أو لأنانيّة تُفَرّق، بل المكان فيها محجوز لكلّ تواضع يرفع و إيثار يجمع.

و لعلّ تصفّحنا لأهمّ محطّات التّعليم الدّيني لروّاد جمعيّة العلماء المسلمين و مؤسّسي حركتها من أمثال عبد الحميد ين باديس، البشير الإبراهيمي، مبارك الميلي، العربي التبسّي، كفيل أن يعزّز هذا العمل المشترك (العامل الدّيني) في بناء فكر إصلاحي غيري، همّه صلاح الفرد دون أيّ مقابل دنيوي:

أ_ مبارك الميلي:

نشأ «مبارك بن محمّد إبراهيم الميلي الجزائري (1899م_1945م)»[1] في أسرة محافظة في الباديّة، و قد ترعرع في حضن جدّه الذي كفله «بعد وفاة والديه و هو في سنّ الرّابعة من عمره»[2]، فأحسن رعايته و تربيته حيث ملأ قلبه حنانا و عطفا، و كان أوّل من حبّب «إليه الدّين، و عوّده الأخلاق الإسلاميّة، و وجّهه إلى الله، و علّمه أن يعمل لله، و يبتغي رضاه، و يستعين به و يتوكّل عليه»[3]، فجعلت منه هذه التّنشئة تلميذا حذقا، محبّا لكتاب الله، مقبلا عل حفظه حيث «تلقّى تعليمه الأوّل في الكتاتيب كغيره من الأبناء

[1] _ مبارك بن محمّد الميلي: رسالة الشّرك و مظاهره، تحقيق أبي عبد الرّحمان محمود. المملكة العربيّة السّعوديّة، دار الرّاية للنّشر و التّوزيع، ، الطّبعة الأولى، 1422هـ/ 2001م، ص12.

[2] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، (د.ط)، 1985م ، ص163.

[3] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص163.

الجزائريين، و ختم القرآن الكريم على يد الشّيخ ؛ أحمد بن الطّاهر مزهود»[1].

و على الرّغم من رغبة أقاربه الملحّة في العمل معهم في مجال الفلاحة و الرّعي إلاّ أنّ إصراره و طموحه الكبير في التّعليم صرفه عن ذلك متيحا له فرصة الالتحاق «بمعهد الشّيخ محمّد الميلي في مدينة ميلة، و كان له من العمر خمسة عشر عاما، و هناك تلقّى طيلة ست سنوات العلوم العربيّة و الشّرعيّة»[2].

و بعد أعوام اشتدّ فيها عوده، و تهيّأ فكريّا و علميّا، انتقل إلى مدينة قسنطينة «للالتحاق بدروس الشّيخ العلاّمة عبد الحميد بن باديس بالجامع الأخضر، و هناك وجد بُغيَته في دروس الأستاذ الحيّة، و تلقّى منه الأفكار الإصلاحيّة بحماس و إيمان»[3]، ثمّ ارتحل بعدها إلى «جامع الزّيتونة بتونس، فاعتكف فيه سنوات على الدّراسة فحصل على شهادة التّطويع بامتيّاز نتيجة اجتهاده و تمتّعه بمواهب فطريّة متميّزة»[4].

و فور رجوعه إلى الجزائر عزم «على تكريس حياته لخدمة العلم و الدّين و الوطن»[5]، فظلّ متنقّلا بين قسنطينة مساعدا لأستاذه عبد الحميد بن باديس في عمله

---

[1] _ سليم مزهود: الخطاب الإصلاحي عند مبارك الميلي. الجزائر، وزارة الثّقافة، (د.ط)، (د.ت) ص170.

[2] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص163.

[3] _ مبارك بن محمّد الميلي: رسالة الشّرك و مظاهره، ص13.

[4] _ محمّد الصّالح الصّدّيق: نماذج للاقتداء. الجزائر، دار هومه للطّباعة و النّشر، (د.ط)، 2013م ، ص176.

[5] _ سليم مزهود: الخطاب الإصلاحي عند مبارك الميلي، ص176.

التّربوي، و بين الأغواط و ميلة مسقط رأسه يعمل على إصلاح عقيدة الجزائريين التي امتزجت بالخرافات و البدع، تعزوه في ذلك "روح الغيرة على وطنه الذي كان يراه يسير نحو التّدهوّر و الانحطاط"[1].

ب_ العربي التبسّي:

كعادة الأسر الجزائريّة في تنشئة أبنائها على الطّريقة التّعليميّة التّقليديّة نشأ العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات (1885م_1957م) في بيت علم حيث تتلمذ على يد والده الذي كان يتولّى "تحفيظ أولاد القرية القرآن الكريم في كتّابه"[2]، و رغم وفاة والده وهو في السّنة الثّامنة من عمره إلاّ أنّه استمرّ "في حفظ القرآن حتّى بلغ الثّانية عشر من عمره"[3]، و لم تثن الصّعاب عزيمته، و لم تعجزه عن طلب العلم "بل انتقل بعدها إلى زاوية خنقة سيدي ناجي الرّحمانيّة في الجنوب الغربي لجبال النمامشة، و هناك أمضى ثلاث سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم"[4].

و لمّا كانت تحدوه الرّغبة في تحصيل العلم و الاستزادة منه "أوفده أهله إلى الزّاوية التي سبق والده أن تلقّى العلم فيها و هي زاوية الشّيخ مصطفى بن عزوز في

---

[1] _ المرجع السّابق، ص177.

[2] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص167.

[3] _ المرجع نفسه، ص167.

[4] _ المرجع نفسه، ص167.

مدينة نقطة بجنوب غرب تونس»[1].

و بعد هذه الطّفولة الحافلة بالجدّ و الاجتهاد في سبيل حفظ كتاب الله و تلقي العلوم الشّرعيّة قرّر الالتحاق «عام 1913 بجامع الزّيتونة ليستكمل دراسته العاليّة»[2] فنال شهادة الأهليّة، ثمّ شدّ الرّحال «إلى القاهرة عام 1920 تدفعه رغبة جامحة في نفسه لتلقي العلم من منهله الأصلي في جامع الأزهر»[3]؛ فكوّنت هذه التّنقلات العلميّة لدى العربي التبسّي «الشّخصيّة الإسلاميّة التي تجعل صاحبها يعمل للأمّة لا لنفسه وحدها»[4].

فعلى الرّغم من مشاق الغربة و آلامها لم يتنكّر العربي التبسّي لوطنيّته كغيره ممّن أغراهم رغد العيش، بل ظلّ يحنّ إلى وطنه «لا يغيب عنه لحظة من الزّمان يفكّر فيه و يحمل همومه و يشعر بآلامه»[5]؛ إذ أنّه لمّا أتمّ تكوينه العلمي بالخارج عاد إلى أرض الوطن و كلّه رغبة و همّة في القضاء على الأمراض الاجتماعيّة التي تئنّ منها الجزائر، كمحاربة البدع و الخرافات المنتشرة بين النّاس، فأدلى بدلوه رفقة زعماء

---

[1] _ المرجع السّابق، ص168.

[2] _ علي محمّد محمّد الصّلابي: كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي و سيرة الزّعيم عبد الحميد بن باديس. دمشق سوريا، بيروت لبنان، دار بن كثير، الطّبعة الأولى، 1437هـ/2016م، ص145.

[3] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص168.

[4] _ عبد الكريم بوصفصاف: جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّة و علاقاتها بالحركات الجزائريّة الأخرى (دراسة تاريخيّة أيديولوجيّة مقارنة). قسنطينة الجزائر، دار مداد، الطّبعة الثّانية، 2009م ، ص113.

[5] _ محمّد الصّالح الصّدّيق: نماذج للاقتداء، ص130.

الإصلاح.

ج_ الطّيّب العقبي:

ولد "الطّيب بن محمّد بن ابراهيم (1890م_1960م)"[1]، في عائلة محافظة بعيدا عن حضارة المحتلّ و جبروته، و لمّا بلغ الخامسة من عمره "هاجر مع عائلته إلى المدينة المنوّرة في الحجاز و هناك بدأ دراسته الأوّليّة"[2]، حيث انكبّ ينهل من المعارف العربيّة المختلفة و يتشبّع بالمبادئ الإسلاميّة الصّحيحة "فحفظ القرآن الكريم على يد أساتذة مصريين، و درس العلوم الشّرعيّة في الحرم المكّي على يد مشايّخ ذلك الزّمان و منهم حمدان الونّيسي شيخ ابن باديس الذي هاجر إلى الحجاز عام 1911م"[3].

و ظلّ يواظب على العلم و يتردّد على أهله من العلماء حتّى تحوّل من "طالب إلى معلم في الحرم النّبوي، و كاتب صحفي متميّز، حتّى عُدّ أحد دعاة النّهضة في الحجاز"[4]، و شيئا فشيئا عظُم شأنه بفضل كتاباته التي أكسبته شهرة واسعة و "صداقة بعض المصلحين في ذلك الوقت أمثال شكيب أرسلان، و محب الدّين بن الخطيب و غيرهما"[5].

---

[1] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص158.

[2] _ المرجع نفسه، ص158.

[3] _ مريم سيد علي مبارك: أعلام الجزائر. الجزائر، دار المعرفة، (د.ط)، (د.ت)، ص75.

[4] _ المرجع نفسه، ص76.

[5] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص158.

و بعد طول غربة ارتوى فيها الشّيخ من منابع العلم الصّافيّة عاد إلى أرض الوطن ليشرع في جهاده الإصلاحي؛ فاتّخذ في البداية من مساجد بسكرة "منبرا يبثّ فيها أفكاره عن النّهضة العربيّة و الجامعة الإسلاميّة و الإصلاح الدّيني و الاجتماعي"[1].

و رغم المضايقات التي وجدها العقبي من طرف الاستعمار و من بعض الطّرقيين الذين كانوا يكنّون له العداء الشّديد لم يفكّر في العودة إلى الحجاز، و آثر البقاء بقيّة عمره يخدم بلده و ذلك بعدما رأى "رأي العين ما يعانيه شعبه من فقر مدقع، و ظلم فادح، و بغي جائر، و استبداد قاهر"[2]، و تبيّن له أنّ الجهاد هو السّبيل للتّغيير من هذه الأوضاع المزريّة.

و هكذا عقّ العقبي حبّ الذّات في داخله، و فضّل الاستماع لصرخات الثّكالى، و آهات الأيامى، و أنين المظلومين من أبناء شعبه، فتجنّد لخدمة وطنه، و سلاحه في ذلك "علمه و ثقافته و فكره و قلمه و إيمانه و شجاعته، و محرّكه و دافعه حبّ وطنه، و غيرته عليه، و رغبته في تخلّصه من الوضع الدّنيء الذي هو فيه"[3]، غير مبال بما يمكن أن يتعرّض له من اضطهاد.

---

[1] _ المرجع السّابق، ص159.

[2] _ محمّد الصّالح الصّدّيق: نماذج للاقتداء، ص262.

[3] _ المرجع نفسه، ص262.

د_ البشير الإبراهيمي:

ولد محمّد البشير الإبراهيمي (1889م _1965م) "في بيت عريق في العلم و الأدب"[1] حيث تلقّى تعليمه على الطّريقة التّقليديّة، "فحفظ القرآن الكريم في سن مبكّرة جدّا على يد جماعة من أقاربه من حفظة القرآن الكريم"[2]، و كان يشرف على تعليمه عمّه "الشّيخ محمّد المكّي الإبراهيمي و كان حامل لواء الفنون العربيّة"[3]، فساعده ذلك في حفظ القرآن في سنّ التّاسعة، و ظلّ حريصا على اجتهاده في طلب العلوم الشّرعيّة إلى أن بلغ "أربع عشرة سنة من عمره"[4] فأجازه عمّه المكّي.

و لمّا كان توّاقا لطلب المزيد من العلم و التّفقّه في الدّين سافر إلى القاهرة للتّقرّب من علمائها و شيوخها ينهل من علومهم و يرتوي من فقههم من أمثال العالم القرآني "الشّيخ رضا و علماء آخرين أزهريين"[5]، ثمّ استقرّ به المقام بالمدينة المنوّرة حيث "تابع تعليمه الدّيني و الأدبي"[6]، و أثناء إقامته بالمدينة المنوّرة التقى رفيق كفاحه ابن باديس حيث درسا الأوضاع بالجزائر، و اتّفقا على "فكرة التّحرّك الإصلاحي في

---

[1] _ عبد الكريم بوصفصاف: جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّة و علاقاتها بالحركات الجزائريّة الأخرى (دراسة تاريخيّة أيديولوجيّة مقارنة)، ص89.

[2] _ محمّد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا. وهران الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، (د.ط)، (د.ت)، ص32.

[3] _ محمّد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا ، ص32.

[4] _ المرجع نفسه، ص32.

[5] _ محمّد الصّالح الصّدّيق: نماذج للاقتداء، ص44.

[6] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص148.

الجزائر»[1]، و بعد عناء و كدّ في الاجتهاد غادر المدينة باتّجاه دمشق"حيث اشتغل بالتّدريس في المدرسة السّلطانيّة، و ألقى دروسا و مواعظ في المسجد الأموي»[2].

لقد كان لهذه التّنشئة الدّينيّة و الجولة التّعليميّة الأثر الكبير في تكوين شخصيّة الإبراهيمي، حيث عاد إلى الجزائر سنة 1920م ليبدأ حياة الجهاد و الإصلاح رفقة رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، و كلّه إيمان أنّ العودة إلى العقيدة الصّحيحة هي أساس إصلاح النّفوس و إعداد الرّجال، و توحيد صفوفهم من أجل استرجاع السّيادة الوطنيّة من يد الاستعمار الظّالم، و هو على يقين أنّ "ما أضاع المسلمون و مزّق جمعهم و نزل بهم إلى هذا الدّرك من الهوان إلاّ بعدهم عن هداية القرآن»[3].

إنّ هذا التّكوين الدّيني جعل الإبراهيمي يعزف عن ملذّات الدّنيا و مغرياتها، و يتنكّر لشهواتها حتى ينصت لهمّه الجمعي، الذي شغل تفكيره و زكّى وطنيّته "الصّادقة العميقة التي تسمو إلى مستوى التّضحية والفداء»[4]، لا يبالي بعدها باعتقالات المستعمر و مضايقاته، و لا بإغراءاته و تحفيزاته، بل كان "الصّخرة الصّلدة في مجابهة المخطّطات الاستعماريّة الأفرنسيّة الرّامية لتدمير إسلام الجزائر و عروبتها»[5].

---

[1] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص149.

[2] _ المرجع نفسه، ص149.

[3] _ محمّد الصّالح الصّدّيق: نماذج للاقتداء، ص59.

[4] _ المرجع نفسه، ص44.

[5] _ بسّام العسلي: عبد الحميد بن باديس و بناء قاعدة الثورة الجزائريّة، ص147.

*_ و بذلك يمكن القول:

_ أنّ علماء الإصلاح تعلّقوا بكتاب الله و سنّة نبيّه منذ الصّغر، و عملوا بما جاء بهما في الكبر.

_ يعتبر الغذاء الدّيني أهم عامل صقل ذوات علماء الإصلاح بالأثرة و حبّ الآخر، و نكران الأنانيّة و حبّ الذّات.

3_ العامل الفكري:

من المسلّم به فكريّا أنّ الإرادة الفرديّة أو الجماعيّة هي أساس كلّ التّغيير في كلّ زمان، أو بأيّ مكان، فهي المعول الذي يجتثّ الرّكود و التّقليد و يبعث النّشاط و التّجديد لكنّ إرادة التّغيير هذه لا يمكن أن يعلو لها شأن ما لم تكن قد أحدثت الأثر فيمن يدعو لها أوّلا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴾، الرّعد، الآية: (12).

و حتّى يسري هذا التّغيير في مفاصل من يدعو له يجب أن تتوفّر فيه إرادة ناضجة، يصبح فيها "مستعدّا لبذل النّفس و المال في سبيل المثل الأعلى"[1] الذي يصبو إلى تحقيقه، و هذا لا يكون إلاّ بالتّعوّد على تحكيم الضّوابط الشّرعيّة، و ترجيح القيّم الجماعيّة على النّوازع الذّاتيّة.

[1]_ ماجد عرسان الكيلاني: أهداف التّربيّة الإسلاميّة، ص106.

و قد توفّرت إرادة التّغيير هذه عند رجالات الإصلاح من أبناء الجزائر الذين تأثّروا بزعماء الإرشاد و الإصلاح في الشّرق الإسلامي و غربه، فكان "التّغيير الفكري الذي ظهر بعد الحرب العالميّة الأولى حيث سقطت أقنعة المشعوذين الذين أماتوا على الأمّة دينها بخرافاتهم و بدعهم و تسلّطهم على الأرواح و الأبدان باسم الدّين"[1]، و قد انبثق هذا التّغيير عن إيمان راسخ، و تعاليم دينيّة، و تطوّع خالص، و تضحيّة لا مراء فيها.

لقد كان هذا الهمّ التّغييري نابعا من قلوب مصلحين يئنّون لحال البلاد و العباد، و يحنّون لما كان عليه الأمجاد "يحيون للآخرين أكثر ممّا يحيون لأنفسهم، أو بالحرى هم يحيون لأنفسهم من خلال حياتهم للآخرين، و لذا تراهم يفتأون يصَعِّدون من توجيه النّفس و القدرات نحو خدمة العمومي و تغليب الوازع الجماعي على الوازع الفردي، فتغدو حياتهم في جُمَاعِهَا منظومة مترابطة من التّضحيّات و الأداءات العامّة"[2]، حتّى أضحى هذا الهمّ الإصلاحي قضيّة ذاتيّة و مبرّرا للوّجود.

*_ يمكن أن نوجز ما سبق بما يأتي:

---

[1] _ علي محمّد محمّد الصّلابي: كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي و سيرة الزّعيم عبد الحميد بن باديس، ص205.

[2] _ سليمان عشراتي: ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة. وهران الجزائر، دار الغرب للنّشر و التّوزيع، (د.ط)، 2010م، الجزء الثّاني، ص(138_139).

_ فكرة التّغيير التي آمن بها روّاد الإصلاح كانت مشبعة بتعاليم الدّين الإسلامي، و مطعّمة بريّاح التّغيير التي هبّت على المشرق العربي.

_ تعدّت فكرة التّغيير ذواتهم لتشمل شعبا بكامله.

ثانيّا: أثر نكران الذّات في الأدب الإصلاحي:

يُتواتر لدينا أنّ الأدب لسان الحياة النّاطق يكشف عن واقعها المحظور حينا، و يثلج الصّدور و يملأها حبورا حينا آخر، فهو مرآة تعكس ما نعيشه بعتمته و نوره، بقوّته و ضعفه، بازدهاره أو احتضاره؛ فإذا كانت الحياة خلاّقة مشرقة أينع الأدب باقات من الإبداع و الجودة، و إذا تلبّد الواقع بالمآسي أصيب الأدب بالجمود و الرّداءة.

و دليل ذلك أنّ الأدب في فترات الضّعف لا يعدو أن يكون حبرا على ورق، ينطق كلمات متراصّة لا تغني قارءها إفادة، و لا تسمنه إمتاعا، اكتفى صاحبه "بملاحظة حياة مواطنيه من بعيد و هو شيء يحدث غالبا لكلّ أديب آثر العزلة و اتّسم بالأنانيّة و حبّ النّفس"[1] أمّا في فترات القوّة فيغدو الأدب ينبوعا عذبا يرتوي قارؤه إلهاما، و يطلب الاستزادة من مواضيعه منفعة و إفهاما، يتبنّى فيه كاتبه قضايا مجتمعه، يتقصّى ثغراته ليسدّها، و يتتبّع إنجازاته ليثمّنها و يشيد بها، ليغدو بذلك "ضمير الأمّة و صدى همومها و آمالها و لسانها المعبّر عن معاناتها و طموحها يرصد جوانب الشّرّ و الخير

[1] _ محمّد مصايف: دراسات في النّقد و الأدب. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، (د.ط)، 1988م، ص53.

فيها فيبارك تلك عموما و يعرّض بهذه و يدينها غالبا، مبشّرا بمثل العمل و المحبّة و الوفاء»[1]، قاصدا بذلك الإنفاع و الإمتاع.

و الأدب الجزائري كغيره من الآداب اكتسى كلا الواقعين (القوّة و الضّعف)، انعكست من خلاله أحوال المجتمع و ظهرت قضاياهم، و أبان عن تطلّعات مبدعيه الشّخصيّة و الجماعيّة، فعرف جودة و ركاكة في مبناه و معناه، أفصح بها عن واقع بهذه الميزة أو تلك.

و لأنّ مجال بحثنا ركّز على منثور الأدب الجزائري إبّان فترة عسيرة من تاريخ احتلال فرنسا للجزائر و التي يُعزى لها الفضل بكلّ مآسيها في أن تشحذ همم الأدباء لرفع القلم و تطويعه سلاحا في وجه المعتدي الغاصب، فلا بأس أن نتقصّى ملامحه من حيث موضوعاته و تعابيره و كاتبه إمّا لاه عن واقعه، و غارق في نوازعه الذاتيّة ينفّس من خلاله عنها، أو منشغل بما يجري حوله، متنكّر لذاته، يخدم بأدبه مصالح غيره. مبرزين ملامح هذا التّباين و أثره في النّقلة الفنيّة التي عرفها الأدب الجزائري مع بروز حركة الإصلاح الدّيني.

لذلك رأينا من خلال تتبّعنا المتواضع للمادة التي كانت بين أيدينا، أنّ الواقع الجزائري في تلك الفترة أفرز أدبين عبّرا بصدق عن تلك المرحلة من تاريخ الجزائر الفكري

[1] _ عمر بن قينة: الأدب الجزائري الحديث تاريخا..و أنواعا، و قضايا..و أعلاما. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الطّبعة الثّانية، 2009م، ص62.

و الأدبي هما:

1_ أدب جامد لواقع غائب:

فرض الواقع المتدهور للمجتمع الجزائري مع بداية الاحتلال الفرنسي في جميع مجالات الحياة خاصّة مجال الثّقافة و الفكر انتكاسة قويّة أصابت الأدب في مقتل و رمته بالوهن و الضّعف فتشتّت «كل الجهود العقليّة المنتجة، و تشرّد الأدباء و الشّعراء الوطنيون، و اندمج بعضهم في حركة المقاومة التي أعلنها الشّعب فترة طويلة ضدّ الغزاة، و شغل النّاس عن الأدب و الشّعر فلم يعد همّهم التّعبير الجميل، و الغزل المليح و الوصف الرّائع، لأنّ ذلك لم يغنهم عن النّار التي يتلظون بها فتيلا، و لن يقف بينهم و بين الغاصبين حائلا»[1]، فغدت النّصوص الأدبيّة في تلك الفترة جسدا مريضا بلا روح «خاليّة من أي التفاتة هادفة إلى الواقع الوطني، كما تفتقر إلى أيّ رغبة صادقة في التّعبير عن ما يجري فيه من أوضاع سيّئة و ظروف قاسية»[2]، نضحت مضامينها و قوالبها الفنيّة عن ضعفها؛ إذ طُبعت صورتها من حيث الموضوع «بالإعجاب لدولة الاحتلال فرنسا، و أمّا من حيث الأسلوب فقد جاءت تلك الأعمال مهزوزة في بنائها رتيبة

[1] _ أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث. الجزائر، دار الرّائد للكتاب، الطّبعة الخامسة، 2007م، ص22.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب الجزائري الحديث في الجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص14.

في صياغتها تغلب على لهجة الخطاب فيها الرّكاكة و العاميّة و العجمة»[1]، فاختفى الحسّ الوطني في الأدب وضاع الإحساس بحالة الجزائريين المأساويّة وسط مصالح ضيّقة خدمت الاستعمار الفرنسي و أشادت بفضائله.

و لعلّ أفضل ما يمثّل هذه الانتكاسة في النّثر في هذه الفترة ما أُلّف في أدب الرّحلة و من ذلك الرّحلة الصّياميّة لسليمان بن صيام التي «أبدى فيها الاعجاب و الاندهاش بالمخترعات و المكتشفات و العلوم و هندسة البناء بالإضافة إلى القوّة الفرنسيّة»[2]، غاضّا الحديث عن انتهاكات هذا المحتلّ و ما يعانيه الشّعب الجزائري بإثرها، حيث يقول في جزء منها واصفا مدينة ليون الفرنسيّة:

«... و رأينا من هذه المدينة محكمة الشّرع تقول هي في دار في غاية ما يمكن من الكبر و العلو مع التّشييد في البناء و الرّفاهية كسوارى الرّخام الجيّدة و بالاختصار لو كانت هذه الدار في موضوع وحدها يظنّ ناظرها أنّها قرية و لمّا سرحنا نظرنا في محاسنها وجدناها محتوية على منارة و مقاعد و تزليج و فرش و كراسي غالية الثّمن، و أمّا أهل هذه البلدة مع كثرة عددهم لم تجد شخصا منهم غير مشتغل مع رفاهية عيشهم

[1] _ المرجع السّابق، ص14.

[2] _ سليمان بن صيام، أحمد ولد قادة، محمّد بن الشّيخ الفغّون القسنطيني: ثلاث رحلات جزائريّة إلى باريس (1852_ 1878_ 1902)، حقّقها و قدّم لها خالد زيادة. لبنان، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، الطّبعة الأولى، 2005م، ص16.

و اعتنايهم بالصّناعات المفيدة كنسج الحرير و الذّهب بالآلات اللّطيفة»[1].

كما هو ظاهر من خلال هذه الفقرة فسليمان بن صيام غارق في واقع غير واقعه، و منبهر بثقافة غير ثقافته، آثر في رحلته الانتصار لمتعته الشّخصيّة، و إظهار إعجابه المبالغ فيه لكلّ ما لمحته العين من مظاهر الرّفاهيّة في دولة الاحتلال فرنسا، مُغيّبا آلام شعبه أمامها.

و الفقرة كما نلاحظ تحفل بألفاظ متراصّة لا تحمل الإيحاء في معناها، و لا قوّة تكسو مبناها، أفكارها بسيطة لا تثير فينا المتعة، و تعبيراتها لا تشدّنا لتطلب منّا المتابعة، اقتربت صياغتها من العاميّة كقوله: «**تقول هي**»، «**هذه الدار**» فهي تعبيرات توحي لنا باللّهجة الجزائريّة.

و إنّ ما يُظهر هذا الضّعف الذي ابتُلي به الأدب الجزائري في هذه الفترة ما أبان عنه فنّ الرّسائل من صور لا تثير فينا لذّة، و لا تحمل لنا أيّة متعة فنيّة بقدر ما تعجّ بالاستعارات و ألوان البديع، من جناس و طباق...، كان الكاتب يسعى من خلال توظيفها قصداً لإظهار قدراته، و«تمكّنه من اللّغة العربيّة واستيعابه لمفرداتها و أساليبها»[2]، لاتَحْمِيلها زخما فكريّا يُقرّ بهمّ جماعي لابد له البوح به، و البحث عن سبل تفريجه.

---

[1] _ سليمان بن صيّام: كتاب رحلة السيّد سليمان بن صيام الى بلاد فرانسة. الجزائر، مطبعة الدولة، (د.ط)، (د.ت)، ص8.

[2] _ عبد الله الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث1830_1974. ليبيا تونس، الدّار العربية للكتاب، الطّبعة الثّانية، 1398هـ/1978م، ص37.

و لعلّ خير شاهد على هذا اللّون من الكتابة رسالة تنسب لحمدان خوجة* بعث بها من لندن إلى شيخه "سيدي علي بن محمّد" ليعبّر له فيها عن و فائه له و شوقه إليه، إذ يقول في بدايتها:

"الحمد لله و صلى الله على سيّدنا محمّد و على آله و صحبه وسلم، سعدت إذ سعدت بك الخليقة، و استنرت إذ كنت مظهر أنوار الشّريعة و الحقيقة، و قابلك باليمن دهر ختم بمعاليك كمالاته، و واجهك سعد السّعود إذ توجك أنفس هالاته فكنت يمين اليمن و البركة و قدوة السّكون و الحركة، تنثال لديك طرائف المعارف فتقتبس، و تنتمي إليك معاقد المعالي فلا ترام، و لا تختلس حتّى أيقنت الأفاضل بأنّك مدار الشّرف و أذعنت الأعادي بسعادة كونك بقية السّلف الأمين على السّرّ المصون، حامل لواء الإمارة من العلم المكنون، تاج الملّة الحنيفة ومجدد تاجها و نتيجة الهمم العالية و مادة نتاجها"[1].

الرّسالة التي بين أيدينا شخصيّة بنوعها و شخصيّة بموضوعها لم يسأل فيها صاحبها عن أحوال العباد بالجزائر، و اكتفى بإظهار مكانة شيخه و شوقه له، مُتّخذا من

*- حمدان بن عثمان خوجة: (1189م_1255هـ/1775_1840م)، كاتب سياسي من روّاد الحركة الوطنيّة الجزائريّة، قارع حمدان الاستعمار الفرنسي بقلمه و لسانه، فنفاه الفرنسيون من الجزائر، من آثاره "المرآة" و "حكمة العارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع". ينظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. بيروت لبنان، مؤسّسة نويهض الثّقافيّة، الطّبعة الثّانية، 1400هـ/1980م، ص136. بتصرّف.

[1]- عبد الله الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830_ 1974، ص38.

صنوف الاستعارات و ألوان البديع سبيلا لذلك متعمّدا إظهار مقدرته على استيعاب مفردات اللّغة العربيّة و أساليبها.

لم يُستثن فنّ الخطابة من هذا التّنكّر الذي مُنِيَ به الأدب الجزائري فقد انحصر "في دائرة ضيّقة بعيدا عن واقع المجتمع و ظروفه و آوت _ مثل اللّغة_ إلى المساجد و الزّوايا و باتت تقليدا لعصور الانحطاط بل أشدّ ضعفا منها سواء من حيث أسلوبها أو موضوعها"[1]، و تجرّد روّادُه فيه من الإحساس بمعاناة الشّعب الجزائري و انحرفوا به عن الخدمة الملقاة على عاتقه "فلم يَعُد يوقظ الجماهير و ينبّه خواطرهم، و يذكي نار الحماسة في صفوفهم، و يلفتهم إلى حقوقهم الوطنيّة و إلى ما ينبغي لهم إيزاءها و جعلوا من منبره مكانا لإشاعة الخرافة و الوهم و إذاعة الخوف و الهلع في قلوب المسلمين، و بثّ روح التّواكل و الاستكانة للعدو الغاشم.

فغدا أسلوب الخطابة و هي على هذا الحال من موضوعها "ضعيفا غثّا لا يرقى إلى الأسلوب الأدبي إطلاقا، كما أنّ الخطباء كانوا نسخة واحدة مكرّرة، يردّدون ما كتب أسلافهم؛ لأنّ ثقافتهم ضحلة و تعليمهم بسيط"[2]، و من النّماذج التي وقفنا عندها على أعمدة جريدة المبشّر خطبة لم يرد ذكر صاحبها أو عنوانها، أشاد فيها بالدّور الذي تلعبه فرنسا في إعمار الجزائر و إقامة العدل بين سكّنها و مستوطنيها، و حفظ حقوقهم، إذ

[1] _ المرجع السّابق، ص21.
[2] _ المرجع نفسه، ص22.

تقول المبشر:

"الحمد لله رب العلمين يوتى الملك من يشاء و يختار له من يشاء ليقيم بحفظ بلاده و مصالح عباده و ليقتاتوا من الحراثة بالعمل السّديد و العقل الرّشيد و الحزم الشّديد أمّا بعد فن الدّولة الفرانساوية منذ امتد ظلها على بلادكم بارادة الله تعالى لازالت عنايتها العلية في تمتيع رعاياها الجديدة من المسلمين بمثل النّعم التي يعيش فيها أهل بلاد فرانسة و لذالك تريد الدّولة المذكورة إحياء العمارة في هذا الإقليم كما كانت في زمان الرّوم...ثمّ إنّ الأراضي التي هي ملك مطلق و بالوثايق المبينة فلا تمسها يد البايلك أبدا لأنّ دولتنا مؤسّسة على العدل فتريد خير العباد و رعاية حفظ حقوقهم...و أمّا الذين لا ملك لهم فيمكن لهم الأمل بتحصيل ملك كما يحصله الفرانساويون و يكون لهم به كفاية أنفسهم و دوابهم بل فوق ذالك ثم على حسب ما قرر في مجلس الوكلاء المقدّم ذكره ترد إلى إقليم الجزاير أهليات كثيرة من فرانسة ليستوطنوا بينكم و قد عرفتم الفوايد الحاصلة لكم من مجاورة النّصارى و شهدتم في أماكن شتى اشتراك المسلمين و الفرانساويين في أشغالهم و كسبهم فيحصل لهم من ذالك منافع عديدة ثمّ تتزايد التّجارة بين الجنسين و عاقبة الأمر تصير أغراضهم و مصالحهم سواء.. "[1].

صاحب هذه الخطبة كما هو ظاهر يسعى من خلال جرد ما قامت به فرنسا في

[1] _ جريدة المبشّر: الجزائر، مطبعة الدّولة، العدد الثّامن و العشرون، 02 ذي الحجّة 1224هـ/ 30 أكتوبر 1848م، واجهة الجريدة و الصّفحة التي تليها.

سبيل النّهوض بالجزائر و أهلها إلى بثّ روح الخضوع و الاستكانة لها؛ فنجده يوهم الجزائريين بتحصيل منافع عديدة إذا هم اقتنعوا بوجود مستوطنات مجاورة لهم، و أنّ الذي سيتمتّع به المستوطن الفرنسي من حقوق سيتمتّع به أيضا الجزائري.

أمّا من حيث الأسلوب فقد جاءت هذه الخطبة جافة فنيّا، لا تحمل الإبداع في معناها أو مبناها، فنحن كما يقول الدّكتور أبو القاسم سعد الله "أبعد ما نكون عن البيان و البلاغة و البحث عن نتائج للخطابة الأدبيّة"[1] في هذه الفترة من تاريخ الجزائر الأدبي.

و على الرّغم من أنّ المقالة أكثر الفنون الأدبيّة تعاطيّا لانشغالات المواطنين إلاّ أنّ ما ظهر منها في هذه الفترة "لا يرقى موضوعا و لا أسلوبا إلى مستوى المقالة الحديثة"[2]؛ ذلك أنّ أداتها الصّحافة كانت تخضع للسّيطرة الفرنسيّة بهدف نشر الخبر بأسلوب بسيط حتّى تكون نسبة وصوله إلى النّاس، و استيعابهم له كبيرة، كما يبدو ذلك في ما نشر على أعمدة المبشّر 1847م التي كان الهدف من إنشائها "تحقيق غايات سياسيّة استعماريّة، أوّلها أن يطّلع الجزائريّون المسلمون الذين كانوا لا يفقهون سوى العربيّة آنئذ بواسطتها على القوانين و التّعاليم الصّادرة، و ثانيها هو خذلان روح المقاومة

---

[1] _ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثّقافي (1830_1954). بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى، 1998م، الجزء الثّامن، ص111.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر، (الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص75.

الوطنيّة في النّفوس و التّشكيك في جدواها»[1].

لذلك كان من الصّعب على الكتّاب الجزائريين و الإدارة الفرنسيّة تُحكم قبضتها على الصّحافة «أن يعبّروا عن أحاسيسهم و مشاعرهم سواء فيما يتّصل بالمجتمع الجزائري و قضاياه أو فيما يخصّ الطّبيعة و الحياة بوجه عام»[2]، فضاعت جدوة المقالة في أن تجعل أعمدتها ملاذا لتلاحم كتّابها بهموم الشّعب لاعتبارات شخصيّة، إمّا نيلا لرضى السلطات الفرنسيّة أو خوفا من مضايقاتها.

ثمّ إنّ خضوع معظم مواد الصّحف أنداك للتّعريب كان «كافيّا لأن يجعل أسلوبها ركيكا مهلهل التّركيب ضعيف اللّغة، تطغى عليه اللّغة العاميّة، و الألفاظ الأجنبيّة، و يمتلئ بالأخطاء اللّغويّة نحوا و صرفا ممّا جعل معانيها في بعض الأحيان غامضة»[3]، و من نماذج هذه الكتابة حتى لا نقول مقالة ما ورد في جريدة المبشّر:

«إنّه قد اطلع على هذه البلاد العدل و الأمان و اشتمل على سكّانها العافية و الإحسان و كف أيدي الفتنة و العدوان فيرتع العباد في مرعى السّعادة بعيدا من شوايب الزّمان ببركة الله المنّان و مع ذالك قد رفع أهل الكذب صوتهم باحاديث مزورة و اقبلوا على الافتراء و النّميمة ليقع بزعمهم سوء الظنّ في سيرة الدّولة و ينقصوا من الحرمة التى

---

[1] _ محمّد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1954. لبنان، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الثّانية، 1427هـ/ 2007م، ص31.

[2] _ عبد الله الرّكيبي: تطوّر النّثر الجزائري الحديث1830_1974، ص134

[3] _ محمّد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1954، ص49.

هى شعار رجال المملكة و من اقوالهم الباطلة إنّ الدولة تأخذ نساء الأعراش و صبيانهم غصبا و تعلقهم بخدمة الجنود الذين وردوا من فرانسة و استقروا في أقاليم الجزاير لكن أنتم الشّهود بأن ذالك القول لا أصل له بل تبين لكم فينا الرّعاية بعوايدكم و تعرفون أنّ لا مانع لايمتكم و قضاتكم من إقامة حقوق دينكم و إنّ صبيانكم يطلبون العلم في المساجد بلا مخالفة منا بل يعطي الحكم الفرانساوى مبلغ جسيم من المال في تسهيل أسباب التّعليم بينكم...»[1].

يبدو كاتب هذه الأخبار من خلال ما أورد من مزاعم باحترام فرنسا للعادات و التّقاليد الجزائريّة، و بتمكين الجزائريين من حقّهم في طلب العلم و إقامة دينهم و كأنّه يعيش في أرض أخرى غير أرض الجزائر المضطهد أصحابها في عرضهم، و دينهم و حريّاتهم، و أجسادهم و حقوقهم، و هذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على أنّ هذا الكاتب قد سخّر قلمه لخدمة الإدارة الفرنسيّة، و تسهيل مخطّطتها بتزويره للواقع و حيثيّاته.

لذلك وجدناه فيما يورد من أخبار لا يراعي كثيرا حسن صياغتها، فالمراد في هذا المقام وصول الخبر و ترسيخ ما وراءه بأيّ طريقة و إن كان على حساب اللّغة، و من ذلك توظيفه لألفاظ عاميّة في قوله: «**عوايدكم**» و المقصود بها عاداتكم، و كذلك قوله:

[1] _ جريدة المبشّر: الجزائر، مطبعة الدّولة، العدد التّاسع و الثّلاثون، 22 جمادى الأول 1265هـ/ 15 أبريل 1849م، واجهة هذا العدد.

"**المساجد**" و المقصود بها المدارس، وهي ألفاظ تجري على ألسن الجزائريين في محادثاتهم الدّارجة.

*_ و بذلك يمكن القول اختصارا:

_ أنّ منثور الأدب الجزائري مع بداية الاحتلال الفرنسي اتّسم بالضّعف و الرّكاكة: (تكلّف الكلام و خلّوه من المتعة الفنيّة، استعمال العاميّة و العجمة، تصدّع المبنى و ضعف المعنى).

_ غيّاب الواقع الجزائري بمآسيه عن موضوعات أدباء هذه الفترة.

_ انشغال أدباء هذه الفترة بمعالجة موضوعات شخصيّة.

2_ أدب متفاعل بواقع حاضر:

يكون الأدب متفاعلا إذا كان لسان حال الواقع يستلهم فيه كاتبه الفرح و الحزن لينتج أعمالا خلاّقة يقاسم فيها المجتمع آماله و آلامه، و يبثّ الوعي بين أفراده، فيضفي هذا التّفاعل "على كتابة الأديب حرارة ضروريّة للأعمال الأدبيّة النّاجحة"[1]، و يجعلها أكثر إبداعا و إقناعا.

لقد كان هذا التّفاعل بارزا عند مفكري ما قبل بروز علماء الإصلاح من أمثال عبد القادر المجّاوي، و عبد الحليم بن سماية، و مولود بن موهوب، و أحمد مصطفى بن خوجة، و عمر بن قدّور و عمر رّاسم و غيرهم ممّن تتلمذ على أيديهم أفواج "كبيرة من

[1] _ محمّد مصايف: دراسات في النّقد و الأدب، ص53.

المدرّسين و الأئمّة و الوّعاظ و المترجمين و القضاة»[1]، و أفادوا الأمّة الجزائريّة بأعمالهم القيّمة «عن طريق خطبة أو موعظة يصدح بها فكر مصلح يصحّح العقيدة، و يصقل الوجدان، أو بواسطة قصيدة تنبثق بها قريحة أديب شاعر يشحذ بها الهمم على اليقظة و يرسم الطّريق إلى النّهضة، أو مقال يصوغه قلم كاتب ملتزم ينبّه إلى مواطن الدّاء و يصف الدّواء»[2].

و لكن على الرّغم من أنّ أفكارهم كانت واضحة في مناوأتها للسّياسات الاستعماريّة، و مشبعة بقضايا أمّتهم، إلاّ أنّ تفاعلهم هذا لم يرق إلى مستوى التّأثير في قاعدة جماهريّة كبيرة كونهم «لم يكونوا مندمجين في تنظيم واضح»[3]، و كانت أعمالهم فرديّة و مناجاتهم ذات فاعليّة محدودة، و صيحاتهم لم تكن «صيحات شعب بأكمله، و إنّما كانت مناجاة ضمير لصاحبه، لا يصل صداه إلى الضّمائر الأخرى فيوقظها من نومها العميق»[4].

و إذا كان هذا التّفاعل الفردي مع الواقع باهتا فإنّ التّعبير عنه في كثير من

---

[1] _ عبد الحميد محمّد حميداتو: «عبد الحميد بن باديس و جهوده التّربويّة». كتاب الأمّة، قطر، السّنة السّابعة عشرة، العدد السّابع و الخمسون، منشورات وزارة الأوقاف و الشّؤون الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، محرّم 1418هـ/ مايو _ يونيو 1997م، ص55.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص21.

[3] _ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص36.

[4] _ مالك بن نبي: شروط النّهضة. ترجمة عبد الصّبور شاهين. دمشق سوريا، دار الفكر، (د.ط)، 1406هـ/1986م، ص23.

الأحيان كان تقليدا لما سبقه، إذ أنّه على الرّغم من محاولات مفكري تلك الفترة التّحرّر من قبضة الصّنعة و الزّخرف اللّفظي إلاّ "أنّهم لم يستطيعوا أن يذهبوا بعيدا على هذا الطّريق و ظلّوا مشدودين بقوّة إلى بعض أساليب العصر بأكثر من سبب"[1]، و يظهر ذلك جليّا في بعض نصوص هؤلاء من أمثال الشّيخ المجّاوي الذي اصطنع السّجع في معرض إظهار إعجابه بمقال لابن خوجة، يقول فيه:

"أمّا بعد فقد اطلعت على هذه المقالة الفاخرة، المحتوية على الفرائد الباهرة، فألفيتها نميقة عبقريّة، مضاهية للمقامات الحريرية، قد اشتملت على جواهر ألفاظ، كسواحر الخاظ، و لطائف معاني، كرنات المثاني، تفيد الطالبين لمحاسن لغة العرب، و تنير أفكار الرّاغبين في فنون الأدب، مدائحها صادقة، و للواقع مطابقة، و لا غرو فناسج بردها، و ناظم عقدها، العلاّمة الأوحد، الفاضل الأمجد، الكامل الرائع الخطير، الأديب البارع الشّهير، بهجة المكان، و حجة الزمان، السّيد محمّد بن مصطفى بن خوجة، أبقى الله في مراقي المعالي عروجه، و لازالت أزمة العلوم طوع يمينه، و لوائح السّعود في غرة جبينه"[2].

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص15.

[2] _ عبد القادر المجّاوي: "عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر"، أعمال محمّد بن مصطفى بن خوجة (1223هـ_1333هـ/ 1865م_1915م). منشورات خمسينيّة جامعة الجزائر، (د.ط)، 2012م، ص163.

*_ وبالتّالي يمكننا أن نستنتج ما يلي:

_ أنّه على الرّغم من أنّ منثور أدباء ما قبل الإصلاح كان مشبعا بقضايا الأمّة الجزائريّة إلاّ أنّه لم تكن له قاعدة جماهريّة كبيرة، لأنّ أعمالهم كانت فرديّة و ليست ضمن تنظيم جماعيّ واحد.

_ كان منثورهم من حيث التّعبير تقليدا لما سبقه.

و بالتّالي لم تعرف الأعمال الأدبيّة الجزائريّة تفاعلا ناضجا واقعيّا و فنيّا إلاّ مع بروز حركة الإصلاح الدّيني، و ظهور روّادها من أمثال ابن باديس و الإبراهيمي و التبسّي و العقبي، و الميلي و غيرهم كأدباء و مصلحين استطاعوا معايشة الظّروف السّائدة في مجتمعهم و الإفادة من النّهضة الفكريّة في المشرق و المغرب، ليجعلوا منها المادّة الأوّليّة التي يستلهمون منها أعمالهم.

لقد سخّر هؤلاء المصلحون كلّ زادهم الرّوحي و الفكري و حتّى الجسدي من أجل النّهوض برسالتهم الإنسانيّة أوّلا ثمّ الأدبيّة، فالهدف من نضالهم هذا ليس تحقيق غاية شخصيّة، و إنّما ترجيح القيّم الجماعيّة بحيث "يغدو هدف الجميع واحد، و هو التّضحيّة في سبيل الغاية الأسمى التي ينشدها الجميع"[1]، و قد فرضت عليهم هذه التّضحيّة كتابات بعينها خدمة لمجتمعهم، إذ يقول محمّد العيد آل خليفة في هذا الصّدد

[1] _ سليمان عشراتي: ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة. الجزء الثّاني، ص259.

"إنّ المجتمع في تلك الفترة، فرض علينا أن نطرق مواضيع معيّنة، و لذا جاءت أشعارنا توجيهيّة تربويّة اجتماعيّة، على أنّ الواجب يقتضي من صاحب الموهبة أن يسخّرها لا لفائدته الخاصّة"[1]، و بالتّالي كان ذلك الإقصاء للمصلحة الخاصّة الشّعلة التي رفعت شأنهم، و وثّقت صلتهم بقضايا مجتمعهم، و ألهبت كتاباتهم.

إنّه ليس من الصّعب على أيّ متتبّع للأدب الإصلاحي أن يقف على هذا الحس الجمعي و التّجرّد الشّخصي في أعمالهم، أو أن تتجلّى له معالم التّغيير الذي حصل بأثره على مستوى الأساليب أو الموضوعات المطروحة، إذ مضى الأدب العربي الحديث بالجزائر بفضّل هذا التّغيير "يشقّ طريقه و يحقّق ذاته و يستمدّ من الفكرة الإصلاحيّة روحه و مادّتها ممّا صبغه بلونها و طبعه بطابعها العربي الإسلامي"[2]، فلا بأس أن نتتبّع هذا التّوجّه الغيري و التّنكر الذاتي في نثرهم من خلال الموضوعات التي طرقوها و الأساليب التي صاغوها لذلك.

فإذا نحن تجوّلنا في رحلات رجال الإصلاح وجدناها تختلف هدفا و تعبيرا عمّا مرّ بنا في مرحلة الجمود، إذ كانت الغاية منها في الدّاخل دعوة الشّعب الجزائري إلى اليقظة و النّهوض، أمّا في الخارج فكانت تسعى إلى التّعريف بالقضيّة الجزائريّة و إسماع

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص22.

[2] _ محمّد بن سمينة: صفحات من إسهامات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في النّهضة الحديثة. دار مدني، (د.ط)، 2004م، ص44.

صوتها لا إسماع صوت غيرها كما هو في رحلة "ابن صيّام"، فكانت بحق أصدق ما يعبّر عن مساعي حركة الإصلاح الدّيني في التّطرّق إلى موضوعات تفرضها المصلحة العامّة و لا تحرّكها الاعتبارات الشّخصيّة.

و قد نأى الرّحالة المصلح بنفسه في مجال التّعبير عن الجمال الفنّي و الوصف المباشر، فعمد إلى الإفصاح عن الواقع و إلى "السّرد التّسجيلي الذي يعتمد على المباشرة و التّقرير لا على التّصوير و الإيحاء"[1]، فكان حريصا بأسلوبه هذا على "العناية بما يحقّق هذه الغاية التّبليغيّة"[2] التي تنشد الإفهام و التّوعيّة و التّوجيه، و هذا ما نقف عنده في جزء ممّا دعا إليه عبد الحميد بن باديس في درس ألقاه أثناء رحلته إلى مستغانم ضمن رحلة صيفيّة سمّاها "**في بعض جهات الوطن**" يقول فيه:

"و لمّا انتهينا من العشاء ألقيت موعظة في المحبّة و الأخوّة و لزوم التّعاون و التّفاهم على أساسها و أن لا نجعل القليل مما نختلف فيه سببا في قطع الكثير مما نتّفق عليه، و أنّ الاختلاف بين العقلاء لابد أن يكون، و لكنّ الضّار و الممنوع المنع البات هو أن يؤدينا ذلك الاختلاف إلى الافتراق و ذكرنا الدّواء الذي يقلل من الاختلاف و يعصم من الافتراق و هو تحكيم الصّريح من كتاب الله و الصّحيح من سنّة رسوله _

[1] _ عبد الله الرّكيبي: تطوّر النّثر الجزائري الحديث 1830_1974، ص67.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص53.

صلى الله عليه و سلّم _»[1].

هذا الشّاهد فيه من المباشرة و القصد و الوضوح ما يُغني قارءه البحث عن ملابسات أخرى في هذه الرّحلة، حيث يظهر فيها تركيز ابن باديس على الجانب الوعظي و الإرشادي أكثر من غيره، و دليل ذلك أنّه لم يطل الحديث عن المأدبة و ما أُعِدّ له فيها؛ فعناية اهتمامه موجّهة نحو فكرة معيّنة يريد من خلالها توعيّة النّاس و توجيههم إليها، و قد استعان في تمرير ذلك بألفاظ بسيطة بعيدة عن الغرابة، و تراكيب قويّة و متماسكة لا يشوبها تأويل أو إيحاء.

و لم يُستثن أدب الرّسائل من هذا التّغيير الذي لحق الأدب إثر انتشار الفكر الإصلاحي، و سطوة نهجه الفنّي في الكتابة إذ استرجع هذا الفنّ بريقه على أيدي أعلام الإصلاح "الذين خاضوا به غمار الواقع بيسر و وضوح و التزام»[2]، فكان الهمّ المشترك حاضرا بقوّة في كتاباتهم لا تلهيه عنهم الخطوب و ما تفعله بهم، و لا ينسيه السّفر طلبا للعلم وجعه، و هذا ما يظهر جليّا في رسالة بعث بها الإبراهيمي إلى زمرة من إخوانه في الجزائر لمّا كان بمصر عنوانها "**تحيّة غائب كالآيب**"، يقول في مقطع منها:

---

[1] _ عمّار الطّالبي: آثار ابن باديس. الجزائر، الشّركة الجزائريّة، الطّبعة الثّالثة، 1417هـ/1997م، الجزء الثّاني، المجلّد الثّاني، ص311.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص36.

"لن أنسى _ يا أمّ _ أنّك كنت لي ماخِطة الغِرس، و ماشطة العِرس، فلا تنسي أنّي كنت لك من عهد التّمائم إلى عهد العمائم، ما شُغلت عنك إلاّ بك، و لا خرجت منك إلاّ عائدًا إليك، لا تنسي أنّني ما زلت ألقى الأذى فيك لذيذًا، و العذاب في سبيلك عذبًا، و النّصب في خدمتك راحة، و العقوق من بعض بنيك برًّا، و الحياة في العمل لك سعادة و الموت في سبيلك شهادة..."[1].

هذا المقطع من الرّسالة مثقل بروح الحس الوطني و الجمعي الذي يشترك فيه الإبراهيمي مع غيره من أبناء و طنه، فعلى الرّغم من بعده عن الدّيار إلاّ أنّه يتكلّم بوجع المقيم بالجزائر، و يحنّ مثله إلى ما كانت عليه أمّه الجزائر من رعاية و ابتهاج به.

و كما كان الإبراهيمي متجاوبا في رسالته مع هموم وطنه فإنّه تجاوب مع نسيجها الفنّي فجاءت مرصّعة بتلاحم السّجع و المحسّنات البديعيّة التي جاءت عفو الخاطر، محمّلة بـ"المعاني الموضوعيّة التي يؤمن بها إيمانا لا يفارق شعوره"[2]، لا متمخّضة عن معان سطحيّة تلحّ عليها الرّغبة في إظهار المقدرة اللّغويّة كما كان سابقا.

و في ظلّ الحراك الإصلاحي ارتقت الخطابة أسلوبا و مضمونا، و أضحت أكثر تعبيرا عن اهتمامات الشّعب و تأثيرا فيه، و الأجدر بتصوير قضياه ذلك أنّ "بثّ الفكرة

---

[1] _ محمّد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي (1952م_1954م). جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى، 1997م، الجزء الرّابع، ص183. نقلا عن جريدة الشّهاب العدد225، 15 ماي 1953م.

[2] _ محمّد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا، ص233.

الإصلاحيّة يتطلّب قدرة على الإقناع و اتّصالا مباشرا في شتّى أنحاء الوطن فكانت الخطابة أداة صالحة لإذاعة هذه الأفكار و استنهاض الهمم»[1]، و المنبر الذي وثّق روابط الأمّة الجزائريّة و زاد من تماسكها.

إنّ الهدف التّوعوي الذي كان يسعى روّاد الإصلاح إلى تحقيقه من خلال خطبهم جعلهم يميلون إلى الوضوح و البيان العربي الأصيل حتّى يؤثّروا في عدد وافر من أفراد الشّعب، مستعينين في ذلك بالقرآن الكريم و الحديث الشّريف و الشّعر، فغلبت في خطبهم القيم التّبليغيّة على القيم البلاغيّة قصدا لأنّ الهدف كان يقتضي ذلك، و من بين الخطب التي تبيّن ذلك خطبة للشّيخ محمّد خير الدّين دعا فيها إلى ضرورة الاهتمام بالشّباب الجزائري لأنّ توجّهه قد حاد عن طريقه الصّحيح، و التي قال في جزء منها:

"من المؤسف بل من المحزن أنّنا نرى شبابنا العاملين الذين هم عماد هذه الحركة في المستقبل لم يزالوا يقنعون من العلوم بنظريتها السّطحيّة' و لم ينفذوا ببصائرهم إلى الحقائق، و لم يزالوا جاهلين بقيمة الوقت، غير متخليقين بخلقي الصّبر و الجدّ؛ و لم يزالوا مضطربين في سلوكهم اضطراب المتحيّر المتردّد، و لم يزالوا مرضى بالتّقصير و الكسل و الفتور.

فترى الواحد منهم يتحمس و لكن مادامت دواعي التّحمس موجودة فإذا زالت

[1] _ عبد الله الرّكيبي: تطوّر النّثر الجزائري الحديث 1830_1974، ص23.

الدواعي خمدت الحماسة و بردت العزائم. و هذا عيب فاضح لا تتحقق لنا معه غاية، و لا نصل معه إلى مقصد ما دام سائدا في ربوعنا و متسلّط على عقول أبنائنا»[1].

نلاحظ من خلال هذا الجزء من هذه الخطّبة أن محمّد خير الدين لم يحتج كي يشرّح واقع شّباب الجزائر بهذا الإلمام الواسع و هذا التّصوير الدّقيق لمعاناته إلى مقدرة لغويّة كبيرة، بقدر ما احتاج إلى إحساس صادق، و رغبة قويّة للوقوف على مكان الدّاء الذي يعاني منه الشّاب الجزائري حتى يتمكن رفقة زملائه من رجالات الجمعيّة من إيجاد الدّواء المناسب له.

كما لم تخرج أعمدة المقالة عن أخواتها من الفنون الأدبيّة السّابقة عن التّغيير الذي لحق بها إثر انتشار الفكر الإصلاحي فقد أصبحت مضامينها أكثر قربا من اهتمامات الشّعب الجزائري، و هذا لأنّ كتّابها «أوقفوا نتاج قرائحهم على معالجة قضايا الوطن و الأمّة»[2]، لا على خدمة مخطّطات المستعمر أو تقرّبا لإدارته كما كان سابقا.

فسطع نجم كتّاب الفكر الإصلاحي في المقالة العلميّة الدّينيّة و الإصلاحيّة و الاجتماعيّة و السّياسيّة، إلاّ أنّهم لم يكن له باع كبير في حقل المقالة الأدبيّة، لأنّ هذا اللّون من المقالة يتطلّب حضورا فنيّا و شحذا لغويّا كان روّاد الإصلاح منشغلين عنه

[1] _ نوّار جدواني: سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، دار المعرفة، (د.ط)، 2008م، ص172.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص76.

بحضور ذهنيّ و تركيز موضوعاتي في هموم وطنهم.

و حتّى و إن كان لبعض أعلام الفكر الإصلاحي حضور في حقل المقالة الأدبيّة كالإبراهيمي مثلا فإنّ حقيقة الكتابة "فيها لم تكن خالصة لوجه الأدب في جوانبه الفنيّة بقدر ما كانت تبتغي تحرير الشّعب الجزائري دينيّا و اجتماعيّا و سيّاسيّا، و هو الهدف الجوهري الذي يمكن أن يسجّل بأمانة لدور المقالة الأدبيّة"[1] في الأدب الإصلاحي بخاصّة و الأدب الجزائري بعامّة.

و قد استعان كتّاب المقالة الإصلاحيّة في توصيل أفكارهم بالأسلوب البسيط و المباشر مع مراعاة قدرة اللّغة على تبليغ الأفكار دون مراعاة كبيرة بالصّور الفنيّة التي يرجى من ورائها اللّذّة الأدبيّة؛ ذلك أنّ "الإعراض عن الزّخارف اللّفظيّة و السّجع و التّكلّف بات سمة حديثة للمقالة إلاّ ما جاء عرضا"[2]، لأنّ مقتضيات الأوضاع المزريّة التي كان يعيشها الشّعب الجزائري أنداك فرضت انصراف كتّاب المقال عن ذلك.

و هذا جزء من مقالة للإبراهيمي تحت عنوان "**الإنسان أخو الإنسان**" يبيّن لنا ذلك الأسلوب الصّريح والمباشر في عرض مضمون ما يريد الإبراهيمي طرحه إذ يقول:

"جملة وجدت منذ وجد البشر و لم يختلف العقلاء في فهم مؤدّاها...مؤدّى هذه

---

[1] _ محمّد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا، ص136.

[2] _ عمر بن قينة: الأدب العربي الحديث. الجزائر، دار الأمّة، الطّبعة الأولى، جانفي 1999م، ص209.

الجملة الصريح عقد الأخوّة بين أفراد البشر بموجب الإنسانيّة التي هي حقيقة سارية في كل فرد.

و مقتضى هذه الأخوّة أن يشارك الإنسان الإنسان في جميع لوازم الحياة سرورًا وحزنًا لذة و ألمًا مشاركة عقول تنتهي إلى حدود لا تتعدّاها، بحيث يعلّم العالم الجاهل و يرشد النبيه الغافل و يواسي الغني الفقير و يقع التّعاون المتبادل بين الناس في كل جليل و حقير»[1].

نلاحظ كيف أنّ الإبراهيمي في دعوته الإنسان مقاسمة أخيه الإنسان كلّ لوازم الحياة بموجب عقد الأخوّة التي بين البشر لم يعوّل على الجوانب الفنيّة في طرحه، و إنّما عوّل على بساطة الأسلوب مع قوّة المعنى حتّى تكون أفكاره أكثر وضوحا و ما ترمي إليه أكثر إقناعا.

*_ خلاصة القول:

_ عالج أدباء الإصلاح الواقع الجزائري بأحزانه و أفراحه في منثورهم.

_ كان الإصلاح الدّيني و التّربوي و الاجتماعي هدفا ينشدونه في موضوعاتهم.

_ كان هدفهم التّبليغي سببا في عزوفهم عن أساليب الصّنعة و التّزويق.

_ استعانوا بالأسلوب البسيط و الفكرة الواضحة في توصيل أفكارهم.

[1] _ محمّد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي (1929م_1949م). جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى، 1997م، الجزء الأوّل، ص59، عن الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الخامس، سبتمبر1929م، ص11.

1_ نبذة عن حياة ابن باديس

2_ دوره الإصلاحي

3_ عوامل نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس

أ_ العامل الاجتماعي

ب_ العامل التّربوي

ج_ العامل الدّيني

د_ العامل الفكري

4_ أبعاد نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس

أ_ البعد الدّيني

ب_ البعد الفكري

ج_ البعد الاجتماعي

د_ البعد النّفسي

5_ السّمات العامّة لنكران الذّات في كتابات ابن باديس

أ_ السّمة الموضوعيّة

ب_ السّمة الإنسانيّة

ج_ السّمة الدّينيّة

1_ نبذة عن حياة ابن باديس:

بينما الجزائر تعيش في ظلام دامس، و الشّعب فيها يتجرّع مرارة الجهل، و تتلاطمه أمواج البدع و الخرافات، بزغ فجر «عبد الحميد بن محمّد المصطفى بن المكّي بن باديس في ليلة الجمعة الرّابع من شهر ديسمبر سنة 1889 ميلاديّة في مدينة قسنطينة بالشّرق الجزائري»[1]، من «أسرة قسنطينيّة مشهورة بالعلم و الثّراء و الجاه»[2].

و قد بدأ عبد الحميد بن باديس حياة التّعلّم على الطّريقة التّقليدية في الكتّاب القرآني مثله مثل أيّ طفل جزائري و «هو في الخامسة من عمره سنة 1894م»[3]. و كان ذلك على يد الشّيخ المدّاسي، «و لم يلتحق ابن باديس بالمدارس الفرنسيّة كغيره من أبناء العائلات الكبيرة في ذلك الوقت لأنّ والده فضّل أن يربيّه تربيّة إسلاميّة خالصة»[4]، فاختار له في حدود1903م «أحد الشّيوخ الصّالحين من ذوي المعارف الإسلاميّة و العربيّة و هو الشّيخ أحمد أبو حمدان الونّيسي* الذي كان يعلّمه مبادئ العربيّة و المعارف الإسلاميّة

---

[1] _ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر، ص153.

[2] _عمّار الطّالبي: آثار ابن باديس. الجزائر، الشّركة الجزائريّة، الطّبعة الثّالثة، 1417هـ/1997م، الجزء الأوّل، المجلّد الأوّل، ص72.

[3] _ عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر محمّد عبده و عبد الحميد بن باديس (نموذجا). قسنطينة الجزائر، دار مداد، الطّبعة الأولى، 2009م، الجزء الأوّل، ص193.

[4] _ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر، ص155.

* _ حمدان الونّيسي: (ولد سنة 1330هـ/توفي سنة 1912م)، عالم من زعماء حركة القوميّة الإسلاميّة في الجزائر، و أستاذ عبد الحميد بن باديس، من أهل قسنطينة. انظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص346.

و يوجّهه وجهة علميّة أخلاقيّة»[1].

ثمّ توجّه سنة 1908م إلى تونس و سنّه إذ ذاك تسعة عشر عاما و انتسب إلى جامع الزّيتونة و عُرِفَ في دراسته بالجدّ و النّشاط، «فأخذ يتلقّى الثّقافة العربيّة الإسلاميّة عن جماعة من أكابر علماء الزّيتونة»[2]؛ حيث «درس الأدب العربي على الشّيخ الطّاهر بن عاشور، و تفسير القرآن على العالم الكبير محمّد النّخلي، و التّاريخ العربي و الإسلامي على الأستاذ البشير صفر»[3]، و غيرهم ممّن كان لهم الفضّل في تعليمه بتونس.

و توّجت دراسة عبد الحميد بن باديس في جامع الزّيتونة بتونس _ والتي دامت ثلاث سنوات _ بحصوله على شهادة التّطويع بتفوق*1910م_1911م، «ثمّ علّم فيه سنة واحدة على عادة المتخرّجين في ذلك الوقت قبل أن يعود إلى أرض الوطن»[4].

و لمّا أتمّ عبد الحميد دراسته عاد إلى قسنطينة مسقط رأسه سنة 1913م و هو يحمل في جعبته زاداً فكريّاً يتوق إلى ملامسة تنظيراته على أرض الواقع «شرع على الفور

---

[1] _ عمّار الطّالبي: آثار ابن باديس. الجزء الأوّل، المجلّد الأوّل، ص74.

[2] _ المرجع نفسه، ص75.

[3] _ مولود عويمر: أعلام و قضايا في التّاريخ الإسلامي المعاصر. القبة القديمة الجزائر، دار الخلدونية، الطّبعة الأولى، 1428هـ/2007م، ص91.

* _ إذ كان ترتيبه الأوّل بين جميع الطّلبة النّاجحين، كما كان الطّالب الجزائري الوحيد الذي تخرّج من الزّيتونة في تلك الدّورة. انظر عبد الكريم بوصفصاف: جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّة وعلاقاتها بالحركات الجزائريّة الأخرى (دراسة تاريخيّة و أيديولوجيّة مقارنة)، ص81.

[4] _ المرجع نفسه، ص81.

يلقي دروساً في الجامع الكبير على رواده _من كتاب "الشّفاء"_ للقاضي عيّاض، و لكنّ الدّسائس بدأت تحاك له من خصوم الإصلاح و التّجديد حتّى حيل بينه و بين التّدريس في الجامع المذكور»[1]؛ فعزم عبد الحميد بن باديس في السّنة نفسها السّفر إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ و قد «مكث في المدينة المنوّرة ثلاثة أشهر ألقى فيها دروساً عديدة في مسجد رسول الإسلام صلّى الله و سلّم و التقى فيها بعلماء و مفكرين من كافة أنحاء العالم الإسلامي»[2].

و أثناء مكوثه بالمدينة المنوّرة «تعرّف لأوّل مرّة في حياته على الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي، كما التقى بأستاذه حمدان الونّيسي الذي كان قد هاجر إلى الحجاز مثله»[3] و اقترح عليه الإقامة بها، لكنّ الشّيخ حسين أحمد الهندي _ الذي كان يدرّس بالمسجد النّبوي _ «مانع في ذلك و حثّه على العودة إلى الجزائر لكونها في حاجة ماسّة إلى مصلحين متنورين و علماء متضلعين في مختف العلوم الدّينيّة و الدّنيويّة»[4].

عمل عبد الحميد بن باديس بنصيحة الشّيخ الهندي، و في طريق عودته إلى الجزائر زار سوريا و لبنان و مصر، و التقى بعدد من علماء هذه البلدان، و عند رجوعه

---

[1] _ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر، ص163.

[2] _ المرجع نفسه، ص164.

[3] _ المرجع نفسه، ص164.

[4] _ عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر محمّد عبده و عبد الحميد بن باديس، (نموذجا)، الجزء الأوّل، ص230.

إلى مدينة قسنطينة باشر من جديد مهنة التّعليم.

*_ يمكن لنا أن نوجز ما سبق بالتّالي:

_ ولد عبد الحميد بن باديس في أسرة قسنطينيّة مشهورة بالثّراء و العلم.

_ بدأ تعليمه في الكتّاب القرآني بالجزائر، و أتمّه بجامع الزّيتون بتونس.

_ أثرى زاده المعرفي إثر التقائه في سفره إلى بلاد المشرق العربي بالعديد من المفكّرين.

2_ دوره الإصلاحي:

عاد عبد الحميد بين باديس من رحلته إلى الحجاز و الشّام و مصر، و هو يحمل في جعبته مشروعا وضع لبناته مع رفيقه الأستاذ البشير الإبراهيمي يقضي هذا المشروع "بضبط خطّة إصلاحيّة متعدّدة الأوجه تنطلق أساسا من التّعليم و التّثقيف ثمّ تتوسّع لتشمل مجالات أخرى و تعتمد وسائل أخرى كذلك"[1].

فركّز ابن باديس بادئ الأمر عنايته بأمور التّربية و التّعليم، فَانْكَبَّ هو بذاته على تعليم مبادئ اللّغة العربيّة و الدّين الإسلامي إلى طلبته بالجامع الأخضر الذي يعتبر النّواة الأولى لعمل الشّيخ الإصلاحي، ثمّ أنشأ "مكتبا للتّعليم الابتدائي و ذلك في مسجد سيدي بومعزة ثمّ انتقل إلى بناية الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة التي تأسّست سنة

[1] _ عبد القادر فضيل، محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس. الجزائر، دار الأمّة، (د.ط)، 2010م، ص40.

1917م و في سنة 1349هـ_1930م تطوّر مكتب الجماعة إلى مدرسة جمعيّة التّربية و التّعلم الإسلاميّة»[1].

و كان اهتمام ابن باديس البالغ بأمور التّربيّة و التّعليم من أجل تكوين جيل قادر على بعث نهضة شاملة و التي لا يمكن أن تقوم إلاّ بتكوين «الفرد الجزائري من النّاحية الفكريّة و النّفسيّة تكوينا عربيا إسلاميّا متينا من ناحيّة، ثمّ العمل على ربط كافة الجزائريين بشبكة واسعة النّطاق من التّنظيمات الاجتماعيّة، و السّياسيّة و الوطنيّة للدّفاع عن كيان الوطن المهدّد بالخطر من ناحية أخرى»[2]، فالاستقلال في نظره سيجد في «الفرد الجزائري المشبع بالفطرة السّليمة و المُحفَّز بالإيمان الصّادق حقلا خصبا لقيّامه»[3].

عزّز عبد الحميد بن باديس طموحه الإصلاحي و نشاطه الفكري بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت فكرتها الأولى في بيت البشير الإبراهيمي سنة 1924م عندما أخبره «أنّه عزم العقد على تأسيس جمعية باسم (الإخاء العلمي) يكون مركزها العام بقسنطينة العاصمة العلميّة و تكون خاصة بعمالتها، تجمع شمل العلماء

[1]_ عمّار الطّالبي: آثار ابن باديس، الجزء الأوّل، المجلّد الأوّل، ص114.

[2]_ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر، ص204.

[3]_ Amar Hellal : Le Mouvement Reformiste Algérien, Les hommes et l'histoire (1831-1957), Alger, Office des publications universitaires, 2002, p 124.

و الطّلبة، و توحّد جهودهم، و تقارب بين مناحيهم في التّعليم و التّفكير»[1].

تفطّن بعد ذلك ابن باديس إلى أنّ جهوده التّربويّة و التّعليميّة لن تكلّل بالنّجاح إلاّ إذا اتّصلت بالشّعب على نطاق أوسع «و أنّ الطّريقة المجديّة للخروج بالدّعوة من منطقة قسنطينة في شرق الجزائر و تعميمها على الجمهور الجزائري في كافة مناطقه هي الصّحافة»[2]، فأصدر سنة 1925م أوّل جريدة تحت اسم "المنتقد" و كان شعارها "الحق فوق كلّ واحد، و الوطن قبل كلّ شيء"، و قد عمل فيها مع خيرة الأقلام العربيّة آنذاك مثل: مبارك الميلي، و الطّيب العقبي، و محمّد العيد، و محمّد الهادي السنوسي و غيرهم إلى الإصلاح الدّيني و محاربة الخرافات و البدع التي عشّشت في عقول الجزائريين و سلبت عقولهم، «و لكنّ لهجتها الحارة و حملتها الصّادقة ضدّ الخرافات و البدع أثارت حفيظة بعض الطّرقيين عليها و ساندهم في ذلك بعض رجال الدّين الرّسميين فأخذوا يسعون بالوشاية لدى السلطات الفرنسيّة ضدّها حتّى عطّلت بأمر حكومي»[3].

و ما إن عطّلت السّلطات الفرنسيّة جريدة المنتقد حتّى أصدر ابن باديس جريدة "الشّهاب" الأسبوعيّة في 12 نوفمبر 1925م حاملة شعارات "المنتقد" نفسها إلاّ أنّه في هذه المرّة اعتمد سياسة المرونة في تحرير مواضيعها، و هذا ما جعلها تصدر بانتظام دون

[1] _ نوار جدواني: سجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، ص52.
[2] _ أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص141.
[3] _ محمّد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847م إلى 1954م، ص97.

تخلّف أو توقّف، حتّى أصدر الوالي العام قرارا بتعطيلها سنة1939م بعد قيام الحرب العالميّة الثّانية.

و على الرّغم من العراقيل التي واجهت عمل عبد الحميد الصّحفي إلاّ أنّه تمكّن بجَرِيْدَتَيْه من أن يبني جسرا يتواصل بواسطته مع الشّعب، و يحقّق به تطلّعاته الإصلاحيّة في مجال التّربيّة و التّعليم و الدّين و حتى السّياسة، إلى أن وافته المنيّة في 16 أبريل 1940م.

*_ نختصر فنقول:

_ إنّ فكرة الإصلاح ولدت أثناء سفر ابن باديس إلى بلاد المشرق العربي.

_ كان اهتمام ابن باديس بادئ الأمر بأمور التّربيّة و التّعليم.

_ الإخاء العلمي كانت الاسم الأوّل لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين و التي كانت تجمع شمل العلماء و الطّلبة.

_ تفطّن ابن باديس لأهميّة الصّحافة في نشر ما يدعو إليه، فأصدر جريدة المنتقد و الشّهاب.

3_ عوامل نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس:

الإنس صنفان، صنف جُبِلَ على حبّ الذّات و تعظيم كلّ ما يصدر عنها، يزكّيها في كلّ مقال، و يعزو لها الفضل في كلّ مقام، لا يقبل الفضل لغيرها يرجع، و في نبذه لذلك الآخر يبرع، على أنانيّته يتغذّى، و لها يركع، و هذا إنسان سجن روحه

داخل ذاته و صار لها عبدا.

و صنف فُطِرَ على حبّ الغير و تقزيم كل ما يصدر عن ذاته أمام الآخر، فهو سيّد ذاته، يروّضها في كلّ مقال حتّى لا ينصاع لسلطتها، و يذكّرها بجميل غيرها في كلّ مقام، يتنكّر لسماع صوتها حتّى يسمع صوت غيرها، لتصبح أمة طواعيّة و برضاها.

و عبد الحميد بن باديس واحد من أبرز من أهمل أناة الوجدان الضّيق و تخلّى عنه مقابل الإفصاح عن أناة الوجدان الجمعي و التّكلّم باسمه؛ فقد كان ينطق بلسانه و يكتب بقلمه لا ليعبّر عن هواجسه الشّخصيّة و تطلّعاته الذّاتيّة فهو"لم يكتب عن خصوصيّاته و لم يطارحنا أفكاره و لم يلتفت إلى الذّات _ شأن أهل القلم_ ينفّس عليها من خلال محادثتها و الحديث عنها"[1]، و إنّما ليصرخ بآلام أُمّته و آمالها.

و لعلّ عقوق عبد الحميد بن باديس لذاته و رفضه الانصياع لسلطتها يعود لعوامل عديدة نمّت هذه الميزة في نفسه و رسّخت عواملها في شخصيّته و من بين هذه العوامل:

أ_ العامل الاجتماعي:

عبد الحميد بن باديس واحد من أبناء المجتمع الجزائري الذي عاش مأساة مشتركة غابت فيها الأحاسيس الذّاتيّة عن كل فرد تضوّره الجوع و نهش جسمه الظّلم

[1] _ سليمان عشراتي: ابن باديس حواشي و هوامش من الصّميم استبصار في خطوط المرايا المضبّبة. وهران الجزائر، دار الغرب للنّشر و التّوزيع، (د.ط)، 2010م، الجزء الثّالث، ص 102.

و توعّده الخوف، فكلّها ويلات تجرّعها الشّعب الجزائري بيد واحدة و تصدّى لها بقلب رجل واحد؛ إذ كان لهذا الشّعب "الاستعداد الكامل للبذل و العطاء و التّضحيّة بكلّ غال و نفيس من أجل المصلحة العامّة"[1]، و هذا ليس غريبا على "مجتمع محافظ لا يندفع بسرعة إلى تغيير تقاليده و عاداته الموروثة جريا وراء المستحدث من الأمور"[2]، فطبيعة الشّعب الجزائري معجونة بالشّهامة و عزّة النّفس، تطلب الموت شهادة على أن تعيش ذليلة.

إذا لا غرابة أن يحمل ابن باديس هذه الخصال في دمه، فالأرض مشبعة بهذا الحسّ الجماعي طبعا و قصرا فما كان عليه سوى "رعاية هذه الخصال النّبيلة في أبناء الجزائر و محاولة تغليبها على عوامل السّلبيّة و الأنانيّة و الفرديّة و اللامبالاة"[3]، فهذه الشّحنة الغيريّة عنده ليست وليدة الصّدفة و إنّما هي مخاض عطاء جماعي لأمّة بأكملها، و هذا نستشفّه من قوله: "ثم لهذه الأمة الكريمة المعوانة على الخير، المنطوية على أصول الكمال، ذات النّسب العريق في الفضائل، و الحسب الطّويل العريض في المحامد.

---

[1] _ علي محمّد محمّد الصّلابي: كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي و سيرة الزّعيم عبد الحميد بن باديس، ص151.

[2] _ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر، ص44.

[3] _ علي محمّد محمّد الصّلابي: كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي و سيرة الزّعيم عبد الحميد بن باديس، ص151.

هذه الأمّة التي ما علمت يوما _علم الله_ لإرضائها لذاتها، و إنّما عملت و ما أزال أعمل لإرضاء الله، بخدمة دينها و لغتها، و لكنّ الله سدّدها في الفهم و أرشدها إلى صواب الرّأي؛ فتبيّنت قصدي على وجهه و أعمالي على حقيقتها فأعانت و نشطت بأقوالها و أموالها و بفلذات أكبادها، فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العملي أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العلمي»[1].

فابن باديس ابن مجتمعه في دينه و لغته، عاداته و أخلاقه، خدمه على حساب اعتبارات شخصيّة فكانت هذه الخدمة وليدة هذا الحسّ الجمعي بين فئات المجتمع الجزائري، الذي يمثّل هويّة جماعيّة تحمل القيّم التي يعتقدونها و العمق التّاريخي الذي ينتمون إليه.

ب_ العامل التّربوي:

الأسرة بيت التّجرّد من حبّ الذّات، و الرّوابط التي تجمع أفرادها هي السّلطة التي تمنع هذا الطّفيلي في أن يتغلغل داخلها، فكلّما عملت على ترسيخ مبدأ الأثرة بين أفرادها زاد تماسكها و اشتدّ عودها، و هذا لا يكون إلاّ بالتّنشئة الصّالحة التي تقوم على أساس ديني.

و قد كان لأسرة عبد الحميد بن باديس الدّور الفعّال ليتجرّد عبد الحميد بن

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب ، الجزء الرّابع و الخامس، المجلّد الرّابع عشر، ص290.

باديس من حبّه لذاته من خلال التّنشئة الصّالحة و العناية الكبيرة التي لقيها في تربيته و تعليمه بخاصّة من والده الذي اعترف بن باديس بالفضل له في تربيته تربية دينيّة و خلقيّة فاضلة قائلا: «إنّ الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة، و وجهني وجهة صالحة، رضي لي العلم طريقا أتبعها و مشربا أرده، و قاتني و أعاشني و براني كالسهم و راشني و حماني من المكاره صغيرا و كبيرا، و كفاني كلف الحياة»[1].

و على الرّغم من أنّ أسرة عبد الحميد «كانت أسرة قسنطينيّة مشهورة بالعلم و الثّراء و الجاه و كانت منذ القدم مسيّرة للسّياسة و الحكم في المغرب الإسلامي»[2] إلاّ أنّها كانت أسرة مدافعة عن الحقّ و مقاومة للبدع و الضّلال مستغلّة لمكانتها الاجتماعيّة و العلميّة «للدّفاع عن المجتمع الجزائري الذي كان في أمسّ الحاجة إلى مدافعين وطنيين يحمونه من بطش الإدارة الاستعماريّة»[3] فلا غرابة إذا و الأسرة على هذا الحال من إحساس بهموم الجزائريين رغم رغد عيشها أن يتّسم عبد الحميد بن باديس بهذا الإحساس الأسري النّابع عن قناعة إنسانيّة جُبل عليها الفرد الجزائري، و عن قيّم دينيّة يأخذ بها في تصريف شؤون حياته اليوميّة.

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «كلمة المحتفل به». مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع و الخامس، المجلّد الرّابع عشر، ص289.

[2] _ عمّار الطّالبي: آثار ابن باديس، الجزء الأوّل، المجلّد الأوّل، ص72.

[3] _ عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر محمّد عبده و عبد الحميد بن باديس (نموذجا)، الجزء الأوّل، ص192.

إذا كل ما سبق اعتبارات أسريّة نحتت في عبد الحميد بن باديس القيّم الدّينيّة النّبيلة من أثرة و تواضع، و غيرها من الأخلاق الفاضلة، نمّت فيه حب الآخر و الإحساس به فكانت كفيلة أن تنشأ شخصيّة خادمة للمظلومين من أبناء وطنها.

ج_ العامل الدّيني:

إنّ صلاح الفرد في هذه الحياة و نجاحه فيها مرهون بالمنبع الذي يسقيه له والده لقوله صلّى الله عليه و سلّم: [مَا مِن مَولُودٍ إِلاّ يُولَدُ عَلَى الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَو يُمَجِّسَانِه أَوْ يُسْلِمَانِهِ][1] ، فمن نشأ على المحجّة البيضاء، و شبّ على تعاليم دين الإسلام و خصال النبيّ محمّد صلّى الله عليه و سلّم شاب فردا صالحا، نافعا لنفسه و مجتمعه و أمّته.

و لمّا كان لأسرة عبد الحميد بن باديس الدّور البارز في تنشئته انحاز باكرا للدّين و الإصلاح الذي كان "المنوال السّلوكي الذي تهيّأت له الأسرة بحكم نسبها التّسلسلي فحال ابن باديس في هذا الأمر هي حال كل فرد سليل للأسرة النّبيلة لا يمكن له إلاّ أن يلتزم بشارات و شعارات السّلف"[2]، فقد نشأ عبد الحميد بن باديس و هو حافظ للقرآن صغيرا، و عرف مفسّرا له كبيرا؛ إذ أنّه "صاغ نفسه، و هزّ كيانه، و استولى على قلبه

[1] _ محمّد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري. دمشق سوريا، بيروت لبنان، دار بن كثير، الطّبعة الأولى، 1423هـ/2002م، كتاب الجنائز، ص327.

[2] _ سليمان عشراتي: ابن باديس مخاضات العبور إلى العدوة الأخرى قراءة في تفاصيل المسيرة نحو خطّ النّار. وهران الجزائر، دار الغرب للنّشر و التّوزيع، (د.ط)، 2010م، الجزء الأوّل، ص155.

فاستوحاه في منهجه طوال حياته، و ترسّم خطاه في دعوته، و نجاه في ليله و نهاره يستلهمه و يسترشده، و يتأمّله فيعبّ منه ويستمدّ علاج أمراض القلوب و أدواء النّفوس»[1]، فكان السّبيل الأنجع لتقويم سلوكه الفردي و الجماعي، و الإطار المرجعي الذي جعل منه فردا صالحا سويّا قادرا على إحداث توافق نفسي «مع ذاته و بيئته و الشّعور بالسّعادة، و تحقيق أهداف فلسفيّة سليمة للحياة يسعى إلى تحقيقها»[2] من خلال اتّباع تعاليم الشّريعة السّمحة، و ما احتوت عليه من عبادات و أخلاق و معاملات و عقائد.

و لأنّ القرآن سبيل الإنسان للتّرفّع عن غرائز النّفس و شهواتها فإنّ ابن باديس لم يلتفت لنفسه و ما يرضيها بل جعل تعاليم دينه الرّقيب الذي يكبح جماحها، و يكبّل سطوتها فانصقلت «مواجد ابن باديس بقيم الخير و تجرّدت نفسه من نزوعات الذّاتيّة المعيقة للعمل الصّالح، و انفكّت روحه عمّا يستهويها من أهواء تتسرّب إليها عادة ممّا لدى الفرد من اعتبارات الرّفعة و النّشأة و الوجاهة»[3]، فأضحت الأثرة و حبّ الغير سمة بارزة في شخصيّته.

---

[1] _ عمّار الطّالبي: آثار ابن باديس، الجزء الأوّل، المجلّد الأوّل، ص79.

[2] _ عبد المجيد سيّد أحمد المنصور، زكريّا أحمد الشّربيني، اسماعيل محمّد الفقي: السّلوك الإنساني بين التّفسير الإسلامي و أسس علم النّفس المعاصر. مصر، المكتبة الأنجلو مصريّة، (د.ط)، 2002م، ص194.

[3] _ سليمان عشراتي: ابن باديس مخاضات العبور إلى العدوة الأخرى قراءة في تفاصيل المسيرة نحو خطّ النّار، الجزء الأوّل، ص194.

د_ العامل الفكري:

يكلّل نشاط الإنسان الفكري بالنّجاح إن استطاع صاحبه أن يخرج به من دائرة التّصوّرات المجرّدة و النّظريّات الجامدة إلى دائرة الممارسات العمليّة جاعلا له بذلك "دورا وظيفيّا لا يقتصر على مجرّد الزّينة و الزّخرفة"[1].

و عبد الحميد بن باديس واحد من بين من شحذوا قريحتهم الفكريّة لتغيير واقع أمّته و حلّ مشكلاتها لأنّه كان "واع، و مرتبط و ملتزم بحقائق دينه، مستوعب أسباب معاناة بلاده، متطلّع إلى معايشة عصره"[2]، فاتحا المجال بذلك لبنات أفكاره للعمل الميداني و التّطوع التّطبيقي.

و هذا ما نجح فيه ابن باديس عن سائر علماء عصره فقد كانت حركته "أقرب الحركات إلى النّفوس و العقول على حدّ سواء"[3]، بعيدة عن المشادّات الكلاميّة المجرّدة و المجادلات الفكريّة العقيمة، و كان نهجه التّفكيري هذا اقتداء بوصيّة شيخه النّخلي له عندما أعرب ابن باديس له عن تبرّمه من إدخال المفسّرين لتأويلاتهم الجدليّة و اصطلاحاتهم المذهبيّة في كلام الله فردّ عليه شيخه قائلا: "اجعل ذهنك مصفاة لهذه

---

[1] _ مالك بن نبي: مشكلات الحضارة مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. بيروت لبنان، دمشق سوريا، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م، ص42.

[2] _ عبد القادر فضيل، محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص164.

[3] _ عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر محمّد عبده و عبد الحميد بن باديس (نموذجا)، الجزء الأوّل، ص423.

الأساليب المعقّدة و هذه الأقوال المختلفة و هذه الآراء المضطربة، يسقط السّاقط و يبقى الصّحيح و تسترح»[1]، فكانت إجابة شيخه الطّريق الذي اتّبعه في تفكيره معتمدا على التّفتّح العقلي و الالتزام الدّيني.

و لعلّ سرّ نجاعة الفكر الباديسي هي "هذه السّمة الدّينية المطعّمة بالنّزعة العقليّة»[2] التي يتجاوز فيها المرء التّفكير في نفسه و شهواتها إلى التّفكير في الغير و كيفيّة تخليصه من مآسيه فكانت هذه السّمة هي "القوّة التي يكافح بها كلّ شيء و يستعلي بها على كلّ شيء، و ينشئ بها ما يريد»[3]، أفنى حياته و هو يسخّرها خدمة لإعلاء كلمة الحقّ و خدمة أبناء أمّته يستنهضهم و يبعث فيهم الهمّة و الوعي.

*_ و بالتّالي نقول إجمالا:

_ أنّ ميزة نكران الذّات غُرست في فكر ابن باديس و وجدانه مثله مثل أيّ جزائري عرف ظلم فرنسا و بطشها.

_ التّنشئة الصّالحة و الاهتمام الكبير الذي لقيه ابن باديس من والده، و تسلسل الأسرة الباديسيّة في نصرة الحقّ و الدّفاع عن المظلومين، كانت أسبابا في بروز ميزة

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع و الخامس، المجلّد الرّابع عشر، ص290.

[2] _ عبد القادر فضيل، محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص164.

[3] _ محمّد قطب: دراسات في النّفس الإنسانيّة، مصر، دار الشّروق، الطّبعة العاشرة، 1414هـ/1993م، ص155.

نكران الذّات في شخصيّته.

_ انحياز ابن باديس الباكر للدّين عزّز لديه مبدأ التّرفّع عن إرضاء الذّات و كلّ ما يستهويها.

_ يعدّ التّفكير الباديسي المستَند على إحكام الدّين و العقل عاملا بارزا في ابتعاده عن التّفكير الذّاتي الضّيّق.

4_ أبعاد نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس:

أ_ البعد الدّيني:

استطاعت تعاليم ديننا الحنيف استقطاب النّفس البشريّة و إرشادها لسبيل صلاحها و إحساسها بالسّكينة و الطمأنينة لأنّها الوحيدة القادرة على بناء "شخصية فريدة لا تقاس بالشّخصيّة التي رتّبتها النّظم الوضعيّة المعاصرة و لا الشّرائع القديمة التي تعب في صياغتها الفلاسفة و المفكّرون"[1]، لتجعل من صاحب هذه الشّخصيّة نموذجا للإنسان الاجتماعي الرّاقي صاحب رسالة في حياته.

و عبد الحميد بن باديس صاحب رسالة اتّبع هدي القرآن الكريم و تمثّل السّنّة النّبويّة الشّريفة في سلوكاته لتبليغها، فطُبعت رسالته بقيّم أخلاقيّة و أبعاد روحيّة كرّست ولاءه لرضى ربّه و خدمة أرضه و أبناء وطنه، و حقّقت خذلانه لنفسه و مبتغاها و إن

[1] _ محمّد علي الهاشمي: شخصيّة المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب و السّنّة. لبنان، دار البشائر الإسلاميّة، الطّبعة العاشرة ، 1423هـ/2002م، ص162.

كان ذلك مفروشا بالتّعب و العناء و سخط الأعداء.

و قد تجلّت هذه القيّم الأخلاقيّة التي أبانت عن غيريّة ابن باديس في سلوكيّاته من خلال بروز صفة البذل و العطاء في عمله؛ إذ لم يكن عبد الحميد بن باديس ذلك الذي يبخل بوقته و علمه و رحابة صدره على أبناء وطنه دون أن يعرف الرّاحة في ممارسة عمله الإصلاحي، فعلى سبيل المثال لا الحصر عطاؤه الوقتي في إطار تعليمه المسجدي؛ إذ سخّر جلّ وقته و هو "يلقي من الدّروس في اليوم الواحد ما يعجز عنه غيره، يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر و يظل طيلة نهاره يعلّم طلبته الدّين و علوم العربيّة و لا يقطع دروسه إلاّ لصلاة الظّهر و لتناوّل الغذاء، ثمّ يستمرّ إلى ما بعد صلاة العشاء"[1] ، لا يلهيه عن جهاده هذا أنس الرّفقة أو يشغله راحة البدن، فكان عطاؤه هذا فعل تطهير لنفسه من شهواتها و فعل تواصل مع الآخر و خدمة لمصالحه.

ثمّ كان الإيثار من أهمّ الصّفات الرّوحيّة التي طبعت شخصيّة عبد الحميد بن باديس و صوّرت لنا ذلك التّنازل المادي و المعنوي لما قد يكون مرغوبا فيه لمصلحة شخصيّة مقابل تغليب رغبة أخلاقيّة تنشد مصلحة الجميع و من ذلك إيثاره تغليب ولاءه لجمعيّة العلماء المسلمين و عدم بيع رجالاتها على حساب مساندة ميرانت _ مدير الأمور الأهليّة بالولاية العامّة_ لوالده و وقوفه معه في ذائقته الماليّة، فردّ على مراودة ميرانت له قائلا: "اقتل أسيرك يا ميرانت أمّا أنا فمانع جاري و اقتل معه ابنه عبد الحميد و اقض

[1] _ عبد الحميد محمّد حميداتو: "عبد الحميد بن باديس و جهوده التّربويّة". كتاب الأمّة، ص130.

على أسرة ابن باديس إن منحك الله هذه القدرة، و لكنّك لن تصل أبدا إلى قتل جمعيّة العلماء بيدي»[1]، فانتصر ابن باديس بموقفه هذا لصوت ضميره الأخلاقي الذي ينشد الخير للجميع و لا يرضى بسدّ حاجة شخصيّة على حساب جماعي.

و لأنّ الذي كان عبد الحميد يصبو إلى تحقيقه يتطلّب الاحتكاك بالشّعب الجزائري غنيّه و فقيره، مثقّفه و أميّه برزت صفة التّواضع في شخصيته بعفويّة «و سكينة و وقار من غير جبريّة و لا استكبار»[2] غير معتد برجاحة عقله و علوّ منزلته الاجتماعيّة، لا يحمل في نفسه كبرا و لا عشقا للتّفاخر و التّباهي «متواضعا تواضع العلماء العارفين، فكان بذلك أكثر قربا من العامّة لا من الخاصّة»[3]، و إن كان في داخله من تعال فهو تعال عن سماع صوت الاستعلاء و التّكبّر في كلّ نفس يغويها تجمّع الحشود لشخصها و ترداد اسمها أو مدح صنيعها من الصّواب كان أو الخطأ، و من ذلك أنّه لما كان في وهران عرضت عليه قضيّة من القضايا فقال فيها بغير القول المشهور لكنّه أدرك فيما بعد أنّه لم يكن على صواب، فكتب في الشّهاب يعترف بخطئه و رجاحة رأي من كان قد اختلف معه في هذه القضيّة، الشّاهد في هذه القصّة أنّ ابن باديس كان يكفيه لو بعث برسالة للشّخص الذي اختلف معه لكنّه أبى إلاّ أن يعترف بخطئه بكلّ

---

[1] _ عبد القادر فضيل، محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص145.

[2] _ علي بن الحسن الشّافعي: مدح التّواضع و ذمّ الكبر: تحقيق عبد الرّحمان النّابلسي. دمشق، دار الشّامل للطّباعة و التّوزيع و النّشر، الطّبعة الأولى، 1413هـ/1993م، ص6.

[3] _ عبد الحميد محمّد حميداتو: «عبد الحميد بن باديس و جهوده التّربويّة». كتاب الأمّة، ص125.

تواضع مبرّرا ذلك لصديقه حمزة بوكوشة بقوله: «أردت أن يكون لكم درسا في الرّجوع عن الحقّ»[1].

هو موقف تستأثر فيه النّفس السّكوت عن الحقّ حتّى لا يشهّر بها فيظهر نقصها، لكنّ ابن باديس لم يصغ لهواجسها بل أصغى لضميره الجمعي الذي انتصر للتّواضع فألزمه الرّجوع إلى الحق حتى تعمّ الفائدة الجميع و يستخلص الكلّ العبرة من هذا الموقف.

و لأنّ طموح ابن باديس تجاوز المقاصد الصّغرى إلى مقاصد كبرى كانت طريق وصوله إلى طموحه محفوفة بالمكائد و تعترضها كثير من الشّدائد لأنّه «بقدر خروج تلك المطامح عن دائرة الذّات و الأثرة و الأنانيّة، يكون العناء محطّما و تكون المكابدة جارفة»[2]؛ فكان الصّبر الدّعامة الرّوحيّة التي استمدّ منها ابن باديس تلك القدرة على الاحتمال و التّحدّي و المعين الذي روّض به نفسه على الثّبات و الاحتساب لخلاص الشّعب من مأساته و ليس لخلاص ابن باديس من المشاق التي وقفت في طريقه.

فصبر ابن باديس على أذى بعض الجزائريين له بآرائهم الفجّة و تصرّفاتهم السّيّئة، و على مضايقة السّلطات الفرنسيّة له «لأنّه صاحب قضيّة، و رائد رسالة،

---

[1] _ مازن صلاح حامد مطبقاني: عبد الحميد بن باديس العالم الرّباني و الزّعيم السّياسي. الجزائر، عالم الأفكار، (د.ط)، 2007م، ص38.

[2] _ سليمان عشراتي: ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة، الجزء الثّاني، ص247.

و لسان دعوة، و لابدّ لمن تصدّى لهذه المهمّات الجسام من أن يوطّن نفسه على التّضحيّة في سبيل تلك القضيّة»[1] و يسخّرها خدمة لها لرفع رايتها هي و ليس ليقال على كلّ لسان فلان ابن فلان قد قدّم التّضحيات الجسام نيلا لكذا و كذا وسام.

و من صبر عبد الحميد بن باديس على أذى غيره له أنّه لمّا تعرّض لمحاولة اغتيال دنيئة* من طرف أحد معارضيه عفا عنه و أمر من تدخلوا لإنقاذه عدم الفتك به قائلا لهم: "لا تمسوه بسوء، فليس الذّنب ذنبه فما هو إلاّ صخرة مرسلة و آلة مستعملة»[2]، فابن باديس لم ينتهز هذه الفرصة لتصفيّة حسابات شخصيّة مع الجاني لأنّه في نظره عبد مأمور، بل احتسب ما تلقّاه من أذى أجرا عند الله.

ب_ البعد الفكري:

المفكّر مولع بإسناد أفكاره إليه إن هي اعتُمدت تنظيرا لوضع ما أو إن حصد تطبيقها نتائج مرضيّة لأيّ قضيّة، لذلك ألفناه يسعى جاهدا لتوثيق نسبها إليه في مجلّدات أو وجدناه يتباهى بما حقّقته في مناظرات.

---

[1] _ محمّد علي الهاشمي: شخصيّة المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب و السّنّة، ص261.

* _ في ليلة الأربعاء 9 جمادى الأخيرة 1345هـ/ الرّابع عشر من شهر ديسمبر1926م السّاعة السّابعة مساء، كمن أحد الأوباش للأستاذ العلاّمة عبد الحميد بن باديس في طريق داره بعد خروجه من درس القرآن العزيز، و فاجأه بضربتين بدبوس، الأولى على الرأس و الثّانية تحت العين، و كانت الأولى قويّة للغاية أراد بها الجاني إسقاط الأستاذ للقضاء عليه. انظر أحمد حمّاني: صراع بين السّنّة و البدعة. الجزائر، دار البعث، (د.ط)، 1984م، الجزء الأوّل، ص(94_99). بتصرّف.

[2] _ أحمد حمّاني: صراع بين السّنّة و البدعة. الجزء الأوّل، ص100.

لكن لمّا كان مفكّرنا ابن باديس تشغله اهتماماته الغيريّة عن اهتماماته الشّخصيّة فإنّه انصرف عن تأليف كتب توثّق أفكارا تبنّاها و نظريات عمل بها؛ و هذا ما يتّضح من خلال ردّه على اقتراح أحد طلبته بأن يخصّص وقتا لتأليف الكتب قائلا: «إنّ الشّعب يا بني ليس اليوم في حاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو في حاجة إلى تأليف الرّجال، هب أنّي انصرفت إلى التّأليف عمّا أنا عليه اليوم من نشر العلم و إعداد نشء الأمّة من أمثالكم لمواصلة عملي فمن يقرأ كتبي و تآليفي ما دام الشّعب يتخبّط في ظلمات الجهل و الأميّة، إنّ إعداد معلّم واحد كفؤ يتصدّى لمحاربة الجهل الفاشي في ربوعنا لخير لمجتمعنا من ألف كتاب قد يستحوذ عليها واحد من المحتكرين فيغلق عليها في خزانته للزينة و الفخر إلى أن تبيد و تبلى»[1]، فقيمة النّبوغ الفكري عنده لا تقاس بما يُوثّق له من كتب بل بما يحدثه من تغيير و ما يحقّقه من إنجازات على المستوى الفردي و الجماعي في مختلف مجالات الحياة.

ثمّ إنّ التّفكير الباديسي لم يكن أسير تصوّراته هو فقط و إنّما كان تفكيرا متعايّشا مع غيره يرتكز على التّآلف و التّقارب في وجهات النّظر مقصيّا ذلك التّفكير الفردي الذي سيكون حجمه «من الإشعاع على أهميّته ناقصا و محدودا. أمّا أن يغدو الإصلاح في حجم إشعاع جمعيّة العلماء و في مساحة الأهداف التي رسمها لها ابن باديس فذلك ما

[1] _ باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرّئيسين عبد الحميد بن باديس و محمّد البشير الإبراهيمي. الجزائر، منشورات الحبر، الطّبعة الثّانية، 2007م، ص35_36.

يقتضي تجنّدا لا هوادة فيه؛ إذ أنّ الإصلاح الباديسي اتّخذ صورة المؤسّسة الأم»[1] التي تقوم على مبدأ التّشاور و الأخذ و العطاء لا الاحتكار.

و لأنّ أفكار ابن باديس كانت تتعدّى هواجسه الشّخصيّة و حتّى الأسريّة إلى تحرير عقول الجزائريين من الآراء الباطلة و المعتقدات الفاسدة انقاد أنصاره و تلامذته إليها أفواجا «لأنّه وقف من المجتمع الجزائري الرّاكد موقف النّاقد الحصين و المرشد المخلص لا موقف المداهن أو المرائي الذي لا يهمّه في الحياة سوى تحقيق منافعه الخاصّة فقط كما يفعل الكثيرون من السّياسيين المحترفين»[2] لذلك كان ما يصبو إلى تحقيقه من أهداف مطروح في الطّريق تبنّاه العام و الخاص لأنّهم آمنوا بإخلاص من يدعو إليها.

ج_ البعد الاجتماعي:

الإنسان المسلم الذي ارتوى من أحكام دينه اجتماعيّ بطبعه تتجسّد مكارم الأخلاق، في أقواله و أفعاله مع غيره فما بالك إذا «كان صاحب رسالة في الحياة و أصحاب الرّسالات لابدّ لهم من الاتّصال بالنّاس يخالطونهم، و يعاملونهم و يبادلونهم

[1] _ سليمان عشراتي: ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة، الجزء الثّاني، ص252

[2] _ رابح تركي: «ابن باديس و نشأة الحركة الإصلاحيّة في الجزائر». مجلّة الأصالة، الجزائر، السّنة الرّابعة، العدد الرّابع و العشرون، وزارة التّعليم الأصلي و الشّؤون الدّينيّة، ربيع الأوّل_ ربيع الثّاني1395هـ/ مارس_ أبريل1975م، ص85.

الأخذ و العطاء»[1]، فيرتقون بأنفسهم من الملذّات الخاصّة في هذه الدّنيا إلى ملذّات روحيّة تتجاوز دواتهم إلى ذوات أخرى لنيل الرّضى الرّبّاني.

و عبد الحميد بن باديس شخصيّة اجتماعيّة من الطّراز الرّفيع تلقّت أحكام الدّين الإسلامي و تمثّلت أخلاقه الإنسانيّة الرّفيعة في مجال التّعامل الاجتماعي، استقطبت الجماهير بحسن سلوكها و نبل صفاتها و إخلاصها في العمل، أفنى عمره متطوّعا لإصلاح عقول الجزائريين و بعث الأمل فيهم و نشر الوعي بينهم؛ فأحبّه الشّعب الجزائري بكلّ أطيافه ذلك أنّ «الشّخصيّة تكبر أكثر حين يكون أحدنا هو الذي اختار الخدمة متطوّعا لا يرجو منها منفعة ذاتيّة»[2].

و حتّى ينهض عبد الحميد بهذا الهمّ الجماعي استغنى عمّا يكرّس فردانيته في المجتمع عازفا عن «مباهج الحياة في أسرته الثّريّة ذات الموقع الاجتماعي المتميّز بتاريخها و مكانتها»[3]؛ إذ انتقل ابن باديس من بيت الأسرة الباديسيّة إلى غرفة بجوار مسجد قموش، غير مكترث بأصناف المأكولات و المشروبات، راضيّا بالكسرة و اللّبن في حياة بسيطة بين طلبته، فنفسه لم تكن تطاوعه أن يتناول ما لذّ و طاب و طلبته

[1] _ محمّد علي الهاشمي: شخصيّة المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب و السّنّة، ص162.

[2] _ موسى سلامة: الشّخصيّة النّاجحة. مصر، مؤسّسة هنداوي للتّعليم و الثّقافة، (د.ط)، (د.ت)، ص52.

[3] _ عمر بن قينة: أعلام و أعمال في الفكر و الثّقافة و الأدب. دراسة، دمشق سوريا، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، (د.ط)، 2000م، ص41.

يعانون الفقر و يكابدون الجوع، فيُروى يوما أنّه خرج لشراء اللّبن، فوجدها أحدّ التّجّار فرصة لإكرامه، فاشترى صحنا من اللّحم، فلّمّا قدّمه له، ردّ عليه ابن باديس غاضبا: "ألا تعلم أنّني ابن مصطفى بن باديس، و أنّ أنواعا مختلفة من الطّعام اللّذيذ تعدّ كلّ يوم في بيته، و لكن ضميري لا يسمح لي بذلك، و طلبتي يسبغون الخبز بالزّيت، و قد يأكله بعضهم بالماء"[1]، بل إنّ ابن باديس من شدّة إحساسه بطلبته "كان ينفق معظم دخله على طلبته الأكثر حرمانا"[2].

ثم إنّه هجر السّعادة الزّوجيّة باعتبارها أجمل حلم للإنسان، و لم يحفل بالعاطفة الأبويّة التي مدحها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿المَالُ وَ البَنُوْنَ زِيْنَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، الكهف، (الآية:45)؛ ذلك أنّه "كان متزوّجا و مرتبطا بقضيّة أكبر من أيّ امرأة و أَنْفَسَ من أيّ عرس، قضيّة الإصلاح و المنافحة عن الأمّة المسلمة"[3]، فلم يشغل نفسه بالبحث عن رفيقة أخرى لدربه بعد طلاقه، و لا عن إكثار نسله بعد وفاة ابنه الوحيد كما كان يدعو الجزائريين، فقد كان منقادا إلى غرضه السّامي فهو "ما خلق ليكون أبا لفرد من

---

[1]_ عبد الرّشيد زرقة: جهاد ابن باديس ضدّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913_1940). لبنان، دار الشّهاب، الطّبعة الأولى، 1420هـ/1999م، ص103.

[2]_ Belguedj M.S: "Ben Badis et le Mu'tazilisme". Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°13-14, 1973, Mélanges le Tourneau, I, p77.

[3]_ سليمان عشراتي: ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة. الجزء الثّاني، ص70.

الأسرة الباديسيّة و إنّما خلق ليكون أبا لأبناء الجزائر أجمعين»[1]، ضحّى بتطلّعاته الشّخصيّة تحقيقا لتطلّعاتهم الجماعيّة و قد أعلنها صراحة لمّا قال: «أنّي لست لنفسي و إنّما للأمّة، أعلّم أبناءها و أجاهد في سبيل دينها و لغتها»[2].

و إذا كانت الشّخصيّة العامّة في سعيّها لامتلاك قلوب الجماهير و استمالة عقولها، تنشد تبوّء مكانة اجتماعيّة تحقّق لها المجد و تجلب لها الشّهرة فإنّ ابن باديس «آثر أن يسلك طريقا كان يعلم مسبقا أنّه مليء بالعقبات»[3]؛ فقد عاش «متنازلا، غاضّا عن اعتبارات لا يكاد من كان في مستوى مكانته الاجتماعيّة أن يتنازل عنها في كلّيتها»[4]، لم يغره بيت الأبوّة المترف و لا وظيفة تصبّ عليه المال و تذرف، بل عاش «يعلّم و يرشد، و يعظ و يحرّر، و يتنقّل و يتعبّد، و يتأمّل و يحقّق، لا يهدأ له بال لا باللّيل و لا بالنّهار، لم يشفق على نفسه و لا على جسمه، و لم يبال لصحّته في سبيل مبدأ أعظم، و أمّة يسوء حالها، و يدمي نفسه احتلالها، و يدفعه للبذل و السّهر مآلها و آمالها أفنى

[1] _ علي محمّد محمّد الصّلابي: كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي و سيرة الزّعيم عبد الحميد بن باديس، ص156.

[2] _ محمّد الصّالح الصّديق: نماذج للإقتداء، نقلا عن البصائر العدد 93 في 28 شوّال 1356هـ/31 ديسمبر 1937م، ص18.

[3] _ Ali Merad : Le Réformisme Musulman En Algérie de 1925 à 1940, p 81 .

[4] _ سليمان عشراتي: ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة. الجزء الثّاني، ص81.

ذاته في سبيل عقيدته، و قضى من أجل رسالته»[1].

د_ البعد النّفسي:

من المسلّمات النّفسيّة أنَّ للإنسان قوة باطنة تراقب و تحدّد أيّ سلوك بشري وهي الأنا؛ فهي تلك "الذات التي ترد إليها أفعال الشّعور جميعها، و جدانيّة كانت أو عقليّة أو إراديّة»[2]، و في خضمّ سيطرة الأنا على مختلف نوازعه النّفسيّة والعقليّة تبرز أنانيّته و تطغى فردانيّته لنفسه "من حيث اهتمامه، و مصلحته و انحيازه لذاته»[3].

و بالتّالي فإنّ وجود الغير ضروري لوجود الأنا و وعيّه بذاته و معرفته لمكوناته بل "إنّ أفضل وسيلة لمعرفة النّفس هي أن تسعى لمعرفة الغير»[4]؛ فالأنا مجبر على أن يعايش الآخر و يتأثّر بمشاعره و انفعالاته، و أحاسيسه مادام أنّه يتواصل مع ذلك الغير، من هنا كان إحساس الأنا بالغير و تنصّله من ذاته و تجرّده من ذاتيّته يسمى إحساسا غيريّا تكون فيه "عناية و اهتمام بخير الآخرين و إيثار لمصالحهم أحيانا على المصالح الخاصّة»[5].

---

[1] _ عبد الرّشيد زرقة: جهاد ابن باديس ضدّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913_1940)، 103.

[2] _ مجمع اللّغة العربية: المعجم الفلسفي. القاهرة مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (د.ط)، 1403هـ/1983م، ص23.

[3] _ أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفيّة. تعريب خليل أحمد خليل، بيروت لبنان، منشورات عويدات، الطّبعة الثّانية، 2001م، المجلّد الثّاني(HQ)، ص824.

[4] _ مجمع اللّغة العربيّة، المعجم الفلسفي، ص133.

[5] _ عبد النّور جبور: المعجم الأدبي. بيروت لبنان، دار العلم للملايين، الطّبعة الثّانية، كانون الثّاني يناير1984م، ص188.

هي معادلة صعبة أن يجمع الإنسان بين حبّه لنفسه و حبّه لغيره، بين انحيازه لذاته و إيثاره لمصالح الآخرين خاصّة إذا كان من خيرة البشريّة؛ حيث تظهر أن العظمة في كلّ إنجاز و تطغى الفردانيّة و الأنانيّة في كلّ اهتمام.

لكنّ حلّ هذه المعادلة استأثر به بعض رجالات الأمّة عن غيرهم و من بينهم عبد الحميد بن باديس الذي استطاع أن يروّض هذه النّفس و يسيطر على سلطتها، و يوجّه نزواتها إلى ما فيه خير للآخرين ذلك أنّ "شخصيّة استنارت بهدي القرآن الكريم، و ارتوت من منهل السّنّة النّبويّة المطهّرة"[1]، كافحت متطوّعة لخدمة دينها و لغتها و من ثمّ أبناء وطنها، فتمكّن بتطوّعه هذا من الجمع و التّوفيق بين ما هو فردي و جماعي، و بين ما هو إنّي و غيري؛ و ارتقى به هذا التّطوّع إلى مستوى آخر لا يمكن أن يبلغه و هو مكلّف تدفعه المصلحة الخاصّة "ذلك أن الإنسان لا يتطوّع بالخدمة العامّة إلاّ بعد أن يكون قد حقّق انقلابا داخليّا في نفسه، إذ يجب أن يجعل للغيريّة مكانة تسمو على الأنانيّة بل هو قد يضحي بمصالحه الشّخصيّة من أجل الخدمة العامّة"[2]، فأحدث عبد الحميد بتطوّعه هذا تلاحما إيجابيّا بين ذاتيّته و غيريّته، و مكّنه من أن ينجح في عمله نجاحا كبيرا و أن يؤثر في أبناء أمّته تأثيرا قويّا.

فكان ابن باديس يحمل بين جنبيه نفسا قويّة لا يظهر عليها الارتباك أو عدم

---

[1] _ محمّد علي الهاشمي: شخصيّة المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب و السّنّة، ص162.

[2] _ موسى سلامة: الشّخصيّة النّاجحة، ص51.

الاتّزان، نفسا أحكمت ضبط داخلها فنفت مشاعر الاغترار و الإعجاب التي يمكن أن تُخلّ بتوازنها و تعيق تحصيل الفضائل لأنّه "من لم يكن معجبا بنفسه كان بمدرجة من التّخلّق بمحاسن الأخلاق و التّنزّه عن نقائصها"[1]، و حصل له من تجاهل إعجابه بها رضى ربّاني و اعتراف النّاس أجمعين بحس أخلاقه.

و قد شهد لعبد الحميد بن باديس بهذه الهيبة الرّوحيّة و الاتّزان النّفسي العديد من رفاقه في الكفاح من بينهم رفيق دربه محمّد البشير الإبراهيمي الذي كان لا يتمالك نفسه حين يرى انقياد النّاس إليه حتّى يقول: "ما أقوى نفوذ هذا الرّجل"[2]، و كذلك ما قاله تلميذه محمّد الصّالح رمضان عنه: "إنّ للشّيخ عبد الحميد بن باديس قوّة روحيّة خارقة سببها الجانب الرّوحي في حياته"[3]، فهذه شهادات و أخرى توثّق تلك الملامح النّفسيّة القويّة التي برزت من خلال سيطرة ابن باديس على ذاته.

*_ مجمل ما سبق ما يلي:

_ بانت ميزة نكران الذّات في شخصيّة ابن باديس من خلال تمثّله للأخلاق الحميدة: كالأثرة و التّواضع و الصّبر، و البذل و العطاء...

_ من أهمّ ما يظهر نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس هو انشغاله عن

---

[1] _ سليمان عشراتي: ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة، الجزء الثّاني، ص243.

[2] _ مازن صلاح حامد مطبقاني: عبد الحميد بن باديس العالم الرّباني و الزّعيم السّياسي، ص37.

[3] _ المرجع نفسه، ص37.

تأليف كتب لأفكاره بتكوين رجال لأمّته.

_ إهماله التّفكير الفردي الذي ينشد المنفعة الخاصّة مقابل تبنّي التّفكير الجماعي الذي ينشد المنفعة العامّة.

_ تبني قاعدة جماهيريّة كبيرة لأفكاره لأنّها تجاوزت ذاتيّته إلى غيريّته.

_ تنازل ابن باديس عن مكانته الاجتماعيّة، و ترف العيش في أحضان أسرته الثّريّة، و هجرانه السّعادة الزّوجيّة، كان مظهرا بارزا لنكران الذّات عنده.

_ يظهر نكران ابن باديس لذاته من خلال تجرّده من الأنانيّة و إيثاره مصلحة الآخرين على مصلحته الشّخصيّة.

_ نفي الاغترار و الإعجاب بنفسه أكسبه شخصيّة قويّة و هيبة روحيّة.

5_ السّمات العامّة لنكران الذّات في كتابات عبد الحميد بن باديس:

أ_ السّمة الموضوعيّة:

الموضوعيّة أداة المبدع لالتزام العقليّة في تفكيره و لإقصاء «الخبرة الذّاتيّة و التزام الحيدة و استبعاد الذّات Subjectelimhnation بمعنى توخّي النّزاهة Disinterstednss و التزام الحيدة و استبعاد الاعتبارات الشّخصيّة أو العقيدة الدّينيّة أو الفكرة القوميّة و تجريد النّفس ما استطاع الباحث إلى ذلك سبيلا»[1]، فتكون بذلك

[1] _ عبد الفتّاح مصطفى غنيمه: نحو فلسفة العلوم الطّبيعيّة النّظريّات الذّريّة و الكوانتم و النّسبيّة. مصر،(د.ن)، (د.ط)، (د.ت)، ص228.

العمود الذي يتكئ عليه في معالجة قضاياه، ينشدها سمة تطبع مواقفه و وسيلة تعينه على التّأثير، فكلّما أنكر المبدع ذاتيته كان في طرحه أكثر إقناعا و لقرّائه أكثر إفادة.

و لمّا كانت الأعمال الأدبيّة سبيل المبدع لطرح أفكار تدور في ذهنه و الإفصاح عن أحاسيس تخالجه؛ سواء أ كانت بواعث هذه الأعمال "ذاتيّة تتعلّق بنفسية الأديب المنغلق عل نفسه أم بواعث موضوعيّة تمليها عليه ظروف سياسيّة أو فكريّة"[1] كان دافع المبدع الذي يدفعه إلى الكتابة هو سرّ نجاح عمله الأدبي؛ إذ أنّه كلّما كان الباعث ينطلق من مواقف ذاتيّة محضة تهمّ المبدع فقط و إن كانت تخصّ قضايا مجتمعه فإنّ مواقف أعماله تغدو "مزيّفة لا تسمو إلى درجة الأدب الإنساني الخالد"[2]، أمّا إذا كان باعث المبدع إلى الكتابة هو إيمانه الصّادق لما يعالج من قضايا و ما يتّخذه إزاءها من مواقف موضوعيّة تخدمها ، فإنّه بموقفه هذا يفتح لها أبواب النّجاح و يقدّر لها الخلود مصيرا.

و لمّا كان باعث الكتابة عند ابن باديس هو إيمانه الصّادق بقضايا مجتمعه الجزائري و إحساسه العميق بمعاناته فإنّه حصد تجاوبا كبيرا مع أعماله الأدبيّة و حقّق تأثيرا إيجابيّا بواسطتها. متّخذا من الموضوعيّة مطيّة لبلوغ غاياته "فقد كانت هي منطلقه

[1] _ محمّد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا، 133

[2] _ محمّد مصايف، دراسات في النّقد و الأدب، ص55.

و هي غايته و هو يعالج ما يعالج من مشكلات»[1] و يدبّج ما يدبّج من كتابات، و يعود هذا في نظر عديد الدّارسين لآثاره إلى ميزة شخصيّة تكمن في إهماله لأناة الوجدان الفردي الضّيق و تخليه عنه مقابل الإفصاح عن أناة الوجدان الجمعي و التّكلّم باسمه؛ إذ كان ينطق بلسانه و يكتب بقلمه لا ليعبّر عن هواجسه الشّخصيّة و تطلّعاته الذّاتيّة، و إنّما ليصرخ بآلام و آمال أمّته.

فلا مكان للعناصر الذّاتيّة في كتاباته و لا مجال للاحتكام إليها في طرح أفكاره، و إنّما كان على العقل في تفكيره يستند و على المنطق في استدلاله يحتكم، فطغت قيّم النّجاعة و الجدوى على خطبه و مقالاته و رسائله «بحيث جاءت بمواصفاتها المذكورة اعتدالا في المتن، تركيزا على الجوهر، تبسيطا للفحوى و اشتمالا على إيماءات من العمق في التّفكير»[2] متميّزة بالقوّة في الإقناع في معالجة القضايا لأنّها تعتمد عل الحجّة و البرهان العقلي لا على التّحليل الشّخصي الانفعالي، و متّسمة بالصّدق و حرارة الوجدان لأنّها نابعة من إحساس فردي انصهر في الحسّ الجمعي، و ملتزمة بالقصد و الوضوح و ذلك لإعطاء صورة واضحة للقضايا التي كان يتناولها و حتى يضمن قاعدة استيعاب كبيرة لكتاباته.

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث في الجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص77.

[2] _ سليمان عشراتي: ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة، الجزء الثّاني، ص192.

فما كان للجماهير الجزائريّة المتعطّشة لإعمال الفكر و إثارة الوجدان أمام هذه السّمات الموضوعيّة في كتابات ابن باديس إلاّ الخضوع لمضامينها و الانقياد إلى غاياتها.

ب_ السّمة الإنسانيّة:

تكون فرصة الأعمال الأدبيّة للعالميّة و الخلود إذا كانت أعمالا إنسانيّة تجاوز فيها أصحابها ذلك النّبض الوجداني القطري أو الحزبي أو العقائدي إلى نبض وجداني كلّي (فردي و جماعي)، لا يستثني فيه صاحبها الإحساس بجنس دون جنس أو بدين غير دين أو بقضيّة دون قضيّة فعبّروا من خلالها "عن بيئاتهم بأصالة و اقتدار، و عاشوا هموم دنياهم في معاناة صادقة و ملابسة عميقة، و اندمجت ذاتيتهم الفرديّة الجماعيّة في الذّاتيّة الإنسانيّة فجاءت أعمالهم الفنيّة كاشفة عن جوهر الإنسان"[1] خادمة لقضاياه متطلّعة لخلاصه و سعادته.

و هذا النّبض الإنساني حاضر في كتابات ابن باديس لأنّ إعمال فكره في معالجة قضيّة ما لم يكن "قطريّا أو إقليميّا ضيّقا بل كان تفكيرا عربيّا و إسلاميّا و إنسانيّا في الوقت ذاته"[2] يتّجه إلى خدمة الإنسانيّة جمعاء، و قد عبّر عن ذلك صراحة

[1] _ عائشة عبد الرّحمان بنت الشّاطئ: قيم جديدة للأدب العربي القديم و المعاصر. مصر دار المعارف، الطّبعة الثّانية، (د.ت)، ص217.

[2] _ عبد القادر فضيل، محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص236.

حين قال في مقاله "**لمن أعيش**": «إنّ خدمة الإنسانيّة في جميع شعوبها و الحدب عليها في جميع أوطانها، و احترامها في جميع مظاهر تفكيرها و نزعاتها، هو ما نقصده و نرمي إليه»[1].

فظهرت هذه السّمة الإنسانيّة في موضوعات كتاباته من خلال تطرّقه إلى قيّم تصبّ في صميم مصلحة الإنسان كالحثّ على الأخوّة و نبذ التّعصّب الدّيني؛ إذ قال في مقال ردّ فيه على مقال "**م. أشيل روبير**": «المسلم حبيب الإنسانية، مأمور بالعطف على أبنائها من أي ملة كانوا و إلى أي وطن انتسبوا و القرآن يذكره بالأخوة الإنسانية في كثير من آياته: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[2]» [3].

كما بانت هذه السّمة في نثره من خلال حرصه على حريّة الإنسان و استنكاره لكلّ أشكال الظّلم و الاضطهاد و هذا واضح من خلال نصرته للقضايا التّحرّريّة كالقضيّة الفلسطينيّة، و تقديمه الاحتجاجات ضدّ الانتهاكات المتّخذة في حقّ الشّعب الفلسطيني، كهذا الاحتجاج الذي هو تحت اسم "**احتجاج ديني إنساني**"، و الذي جاء فيه: «إنّ

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «لمن أعيش». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء العاشر، المجلد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة ، شوّال 1355هـ/جانفي 1937م، ص425.

[2] _ سورة النّساء، الآية: (01).

[3] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، (د.ن)، (د.ط)، 2007م، الجزء الخامس، ص45، نقلا عن الشّهاب، العدد السّادس، 30 جمادى الأولى 1344هـ/ 1925/12/17م، ص4.

الحوادث الدّامية التي وقعت أخيرا بفلسطين قد آلمتنا و مست شعورنا الدّيني، و أنّ تلك البقاع المقدّسة عند جميع الأمم و التي هي القبلة الأولى للإسلام مما يجب أن تستنكر الإنسانيّة و كل روح دينية كل ما يكون فيها من ترتيب يؤدي الى إثارة الفتنة و سفك الدماء بها فنحن باسم الدّين و الإنسانيّة نقدم لوزارة الخارجيّة الفرنسوية التي هي الممثلة لرعاياها المسلمين في مثل هذه المواقف احتجاجنا ضدّ ذلك»[1].

و تجلّت هذه السّمة في أعماله الأدبيّة أيضا من خلال مطالبته بتمكين الإنسان من حقّه في التّعلم، و دعوته إلى التّمسّك بالعلم كسلاح ضدّ أعداء التّقدّم في كلّ زمان و مكان؛ إذ قال في خطابه الذي جاء بعنوان "**خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس**": «كانت جمعيّة العلماء فكانت نهضة الأمّة دوى صوت العلم فأيقظها من رقدتها، و كذلك عرفت الأمم في تاريخها. لا تنهض إلاّ على صوت علمائها فهو الذي يحلّ الأفكار من عقلها و يزيل عن الأبصار غشاوتها، و يبعث الهمم من مراقدها و يدفع بالأمم إلى التّقدم في جميع نواحي الحياة، و لهذا ترى أعداء النّهوض في كلّ عصر و مصر يبذلون لإخفاء هذا الصّوت كلّ جهودهم و يكيدون له كلّ كيدهم... »[2].

---

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص517، نقلا عن الصّراط السّوي، السّنّة الأولى العدد 11، شعبان1352هـ/ 27 نوفمبر 1933م، ص4.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: «خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّامن، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، شعبان 1356هـ/أكتوبر 1937م، ص359.

لقد كان لهذه الوقفات الإنسانيّة و غيرها في كتابات ابن باديس بالغ الأثر في استقطاب القلوب و استدراج العقول إليها لأنّها تخاطب في الإنسان فطرته و سجيّته و تدعو إلى احترامها، و تنكر شقاءه و سلبه حقوقه و تدعو إلى تمكينه إيّها.

ج_ السّمة الدّينيّة:

يسعى المبدع في نتاجه الفنّي إلى إيصال أفكاره و طرح مواقفه في صورة صادقة موحيّة و مقنعة، لكنّه لن يستطيع إلى ذلك سبيلا ما لم ينبعث كل هذا عن تصوّر إسلامي للكون و الحياة و الإنسان لأنّه أشمل تصوّر حدّد المفاهيم و سبر أغوار الحقائق فلامس شغاف القلوب و استسلمت له العقول؛ فهو "تصوّر لا يأخذ جانب من الوّجود و يدع جانب آخر... و إنّما يأخذ الوّجود كلّه بمادّياته و روحانياته و معنويّاته و كلّ كائناته"[1]، لذلك يغدو فنّ من تمثّل هذا التّصوّر الإسلامي في موضوعاته رفيعا و حظّه من التّأثير يكون كبيرا.

لقد كان هذا التّصوّر الإسلامي للكون و الحياة و الإنسان حاضرا في آراء ابن باديس و كتاباته إن لم نقل سيّدها، مبثوث هنا و هناك في محاضرة تلقى أو في مقالة تنشر، أو في خطبة تبثّ من على منبر، أو في رسالة تُبعث إلى سائر الأمصار و مختلف البشر، فقد تَمَثَّل الدّين الإسلامي منهجا و سلوكا في مواقفه و غاية و أسلوبا

[1] _ سيّد قطب: منهج الفن الإسلامي. لبنان، دار الشروق، الطّبعة السّادسة، 1403هـ/1983م، ص13.

و وسيلة في معالجته لقضايا عصره و تحليل أحداثها جاعلا إيّاه "محورا جوهريّا في استراتيجيّة التّغيير"[1] التي كان يصبو إليها، لما له من سلطان النّفاذ بين النّاس و قابليّة الخضوع و الانصياع لتعاليمه طواعيّة.

فكانت كتاباته تفيض بالنّفحات الإيمانيّة موضوعا و استشهادا، تُخلّل بموعظة تقوم على الحجّة القرآنيّة، و هذا ما نقف عنده مثلا في "**خطبته التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة**" لمّا خصّ زملاءه بالشّكر على الثّقة التي وضعوها فيه إثر انتخابه رئيسا لها، إذ قال: "إنّ أعظم لذة يشعر بها ذو الضّمير الحيّ أن تكون له قيمة عند قومه، و أنذ لحصول الثّقة منكم للذّة أعظم من كلّ لذّة و أنّها لتقع بعد نعمة الإسلام و الإيمان.

ثقة القوم بأخيهم هي التي يسعى إليها من يعرف قيمة نفسه و قيمة قومه.

و أنتم تعلمون ما هي قصة من أوذي في سبيل الله و دخل الجنة بعد موته فقال: ﴿يَا لَيتَ قَومِي يَعلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ المُكرَمِينَ﴾[2]، فانه في حياته لم تكن لهم به ثقة بل كان فيما بينهم من المكذبين، و لذلك حينما نال ما نال تمنى أن يكون يعلم به قومه حتى يعلموا ما صار اليه من حسن حال و سمو مقام"[3].

---

[1] _ عبد القادر فضيل، محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص74.

[2] _ سورة ياسين، الآية: (26).

[3] _ عبد الحميد بن باديس: "خطبة رئيس الجمعية التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة =

كما كانت بعض مقالاته لوحة مرصّعة بالآيات القرآنيّة، و هذا ما نلمحه مثلا في مقاله: "**الوطن و الوطنيّة الحقّ فوق كلّ أحد و الوطن قبل كل شيء**"، حيث قال في معرض تعريفه للوطنيّة: «فهي تخاطب البشريّة كلّها في جميع أجناسها بقوله تعالى: ﴿ وَ لَقَد كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَ البَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]، و تخاطبها في جميع أديانها بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ﴾[2]، و تخاطب جميع الأمم و الأوطان بقوله تعالى: ﴿وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسِّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾[3] وَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُم فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ﴾[4] و هذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة و وطنيّة كلّ مسلم صادق في إسلامه و وطنيّته»[5].

و كانت بعض احتجاجاته التي أبرق بها إلى الوّلاة المتعاقبين على الجزائر وعاء مُلِئَ بصرخاته اتّجاه انتهاكات السّلطات الاستعماريّة لحرمة الدّين كاحتجاجه على "**انتهاك حرمة الدّين بغرداية**" و الذي قال في جزء منه: «نحن باسم جمعيّة العلماء المسلمين

الإسلاميّة، شعبان 1355هـ/ نوفمبر 1936م، ص360.

[1]_ سورة الإسراء، الآية: (70).

[2]_ سورة الكافرون، الآية: (06).

[3]_ سورة الأنفال، الآية: (62).

[4]_ سورة البقرة، الآية: (193).

[5]_ عبد الحميد بن باديس: «الوطن و الوطنيّة الحق فوق كل أحد، و الوطن قبل كلّ شيء». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء السّابع، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، رجب 1356هـ/ سبتمبر 1937م، ص306،307.

الجزائريين نحتج بكل قوة ضد الاعتداء الفضيع و الامتهان الجارح لكرامة الدّين الإسلامي و حرمة القرآن العظيم في شخص إخواننا بني ميزاب باعتقال سيدين منهم في السّجن و هما الأستاذ صالح بابكر رئيس جمعيّة الإصلاح و مدير مدرستها بغرداية»[1].

و قد استطاع ابن باديس بهذا التّمثّل الدّيني أن يضمن لكتاباته حجّة دامغة و قوّة مقنعة، و لذّة روحيّة تأسر من اطّلع عليها بنفحاتها الإيمانيّة و مضامينها الموضوعيّة.

*_ خلاصة القول:

_ نكران ابن باديس لذاته أضفى صبغة الموضوعيّة على بنيّات أفكاره، ممّا جعلها تلقى إقبالا و تجاوّبا كبيرا معها.

_ تنكّر ابن باديس لأيّ انتماء قطري أو حزبي أو عقائدي أكسب كتاباته بعدا إنسانيّا.

_ عدم احتكام ابن باديس في الاستدلال على رجاحة ما يدعو إليه بآرائه الشّخصيّة بل احتكامه في ذلك على كتاب الله و سنّة نبيّه جعل كتاباته تأتي مرصّعة بالآيات القرآنيّة و الأحاديث الشّريفة.

[1]_ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص537، نقلا عن البصائر، السّنّة الثّانية، العدد 80، جمادى الثّانية 1356هـ/ سبتمبر 1937م.

1_ أدب ابن باديس النّثري

أ_ الخطابة

ب_ المقال

ج_ الرّسائل

2_ ملامح نكران الذّات في نثر عبد الحميد بن باديس

أوّلا: ميله إلى الكتابات ذات الطّابع العام

ثانيّا: ندرة كتاباته الشّخصيّة

ثالثا: بساطة تعبيره رغم بلاغة أسلوبه

رابعا: وجود سمات تعبيريّة تكرّس نكرانه لذاته

1_ أدب ابن باديس النّثري:

إنّ الذي يقف على النّتاج النّثري الجزائري في فترة الاحتلال الفرنسي يجده أكثر وفرة و حضورا في السّاحة الأدبيّة، و ذلك لطبيعة النّشاط الفكري و السّياسي و الاجتماعي آنذاك؛ إذ انتزع راية الرّيادة من الشّعر"فغدا الأداة الأكثر تعبيرا عن ظروف المجتمع و حاجاته، و اتّسع صدره للإفصاح عن جملة من القضايا العامّة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوجدان الجماعي و تصوّر تصويراً صادقاً تطلعات الأمّة"[1].

و قد جال قلم عبد الحميد بن باديس في كثير من فنون النّثر و أغراضه، فكتب في الخطابة و الرّسائل، و أدب الرّحلة و التّراجم من الفنون النّثريّة القديمة، و المقال و القصّة من الفنون النّثريّة الحديثة، فكان "من بين أولئك الأعلام الرّواد الذين تفتّقت قرائحهم على حذق صناعة النّثر"[2]، بعدما رسف كثيراً في أغلال الصّنعة و التّكلّف.

أ_ الخطابة:

لقد كان لزاماً على عبد الحميد بن باديس و هو أحد قادة الكفاح الفكري و السّياسي أن يتقن أبجديات هذا الفن لأنّه السّبيل الأمثل للاتصال المباشر بالجماهير في شتّى أنحاء الوطن، و بثّ الفكرة الإصلاحيّة فيهم "فكان يخطب في العامّة و الخاصّة، يخطب في العامّة أثناء رحلاته و تنقّلاته التي يقوم بها في مختلف أرجاء

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص24.

[2] _ المرجع نفسه، ص25.

البلاد على مدار السّنة...و كان يخطب في الخاصّة في لقاءات جمعيّة التّربية و التّعليم، و في مؤتمرات جمعيّ ة العلماء و اجتماعاتها الدّوريّة و السّنويّة»[1].

فجاءت خطبه تحمل أغراضا ذات صبغة دينيّة، اجتماعيّة، سياسيّة و الجدير بالذّكر هنا أنّ هذه الأغراض قد تحفل بها خطبة واحدة تبعاً لمقتضيات الموضوع المتطرّق إليه. و هي في طابعها العام تحمل «طابع الدّين و الوعظ و التّركيز على فكرة الإحياء و الرّجوع إلى الماضي و الدّعوة إلى النّهوض و اليقظة»[2]، فكان أخطب النّاس في الجزائر على عهده «و فارسها المعلّم، و زعيمها المقدّم، و قائدها البارع في الاستحواذ على قلوب المخطوب فيهم بما أوتي من مواهب عاليّة في إثارة المشاعر، و إيقاظ العواطف و تهييج القلوب»[3]، و هذه مقاطع من خطبته "**خطاب الرّئيس في الاجتماع العام لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين بنادي التّرقي صبيحة يوم السّبت 29 رجب**" التي ألقاها بنادي التّرقي عام 1931م حين سجن الوطنيّون الجزائريّون، و قد مزج فيها بين الإصلاح و السّياسة و الوطنيّة قال فيها:

«فسلام عليكم يا أعضاء جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين، و سلام على مساجينكم في المساجين، و سلام على متّهميكم في المتّهمين، و سلام على

---

[1] _ المرجع السّابق، ص27.

[2] _ عبد الله الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830_1974، ص24.

[3] _ عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر بالجزائر 1925_1954. الجزائر الشّركة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع، الطّبعة الثّانية، 1983، ص63.

منكوبيكم في المنكوبين، سجون و اتهامات و نكبات، ثلاث لا تبنى الحياة إلاّ عليها و لا تشاد الصّروح السّامقة للعلم و الفضيلة و المدينة الحقّة إلاّ على أساسها...

هذا الأستاذ العقبي برّأته العدالة من التّهمة الباطلة ثم أتت تلك النّواحي المظلمة من الحياة الجزائريّة إلاّ أن تعود به إلى التّهمة...

و هذا الأستاذ الإبراهيمي سيق إلى المحاكمة على حفلة علميّة و قضي عليه بالغرامة، فلم يكتف في حقه بذلك فرفعت القضيّة للإعادة و هو ينتظر ما يكون.

و هؤلاء رجال التّعليم في بجاية، و باتنة و غيرها يساقون إلى المحاكمة المرّة بعد الأخرى، و يغرمون من أجل التّعليم و يهددون بالسّجن.

و هذه مدرسة دار الحديث بتلمسان مغلقة إلى اليوم و كم أذكر؟ و كم أعدد، فلقد هبّت الأمّة لتعليم دينها و لغة دينها في جدّ و نشاط فاق السّنوات المتقدّمة، فعوجلت بهذه البلايا و المحن...

و فيم هذا كله؟ على من ثرتم؟ و إلى من أسأتم؟ و أي حدود تعديتم؟ و ماذا تبغون؟

لا و الله، ما ثرتم إلاّ على الجهل و الرّذيلة، و ما أسأتم إلاّ للأثرة و الجبريّة، و ما تخطيتم إلاّ حدود الجمود و الخرافة، و لا تبغون إلاّ الحقّ و الخير و العدل و الإحسان.

ألا في سبيل الله ما لقيتم، ألا في سبيل الله ما أنتم لاقون.

أيّها الإخوان، قد اعتدنا في كل اجتماع من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا و احتجاجاتنا إلى الولاية العامّة و إلى الحكومة العليا، و لم يرد لنا جواب مرة واحدة بل يكون الجواب بزيادة الإرهاق و تضييق الخناق.

فصدر قانون النّوادي الذي يرمي إلى إخلائها و حرمان الكبار من التّهذيب في نواديهم... و صدر قانون 8 مارس الذي يرمي إلى غلق المدارس و حرمان المسلمين من تهذيبهم و تلقين دينهم و آداب دينهم، و لغة دينهم... فاسمع و تعجب يا عصر المدينة و النّور...»[1].

الخطّبة كما هو ظاهر مزيج من تكافل اجتماعي ظهر من خلال دفاع ابن باديس و تضامنه مع زملائه من رجالات الحركة الإصلاحيّة و الاتّهامات التي تعرّضوا لها و البلايا التي سقطت على رؤوسهم إثرها، و من سخط سياسي عبر فيه ابن باديس عن احتجاج الجمعية لدى السّلطات الاستعماريّة على المضايقات التي يتعرّض لها رجالات الإصلاح، و الإجراءات الجائرة المتّخذة في حق نشاطات الجمعيّة، و هي مساحة إيمانيّة بثّها ابن باديس من خلال دعوة أصحابه إلى الثّبات على الحق و الصّبر

[1]_ عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس في الاجتماع العام لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي التّرقي صبيحة يوم السبت 29 رجب". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّامن، المجلّد الرّابع عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، 19 رمضان 1357/ 11نوفمبر 1938م، ص(100_103).

على المحن لأنّ ذلك في سبيل الله كما قال.

أمّا من حيث البناء فالخطبة عند ابن باديس تقوم على ثلاثة أقسام: مقدّمة، موضوع، و خاتمة؛ أمّا المقدّمة فغالباً ما كانت تأتي مسجوعة، مخيّرة اللّفظ، و ذلك لاستمالة المتلقّين، قصيرة في معظمها يحتذي فيها خطب الرّسول صلّى الله عليه و سلّم، و خطب الخلفاء الرّاشدين، و من ذلك فاتحة "**خطبته التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة**" التي قال فيها:

"الحمد لله معطي الفلج لباذلي المهج، و الصّلاة و السّلام على سيدنا محمّد بن عبد الله الذي جاءنا بها حنفيّة سمحة لا إصر فيها و لا حرج؛ و على آله الطّيبين الطّاهرين، و على أصحابه فرسان الرّهج، الذين أقاموا بالحقّ كلّ عوج، و على التّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدّين عدد من دبّ و درج ..."[1].

أمّا موضوعها فكان ذا صلة شديدة بالواقع، توخّى فيه ابن باديس مخاطبة العقل لا تهييج العواطف، و توسّل "إلى ذلك بجملة من الأدلّة المنطقيّة و البراهين الإيمانيّة و الأدوات التّقريريّة"[2]؛ و هذا يعود إلى أنّ عبد الحميد يركّز على توضيح المعنى و القصد في القول لا على زخرف اللّفظ و رتابة الإيقاع، إذ أنّه "من خطباء المعاني لا

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "خطبة رئيس الجمعيّة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة". مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، ص359.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص32.

الألفاظ»[1]، و هذا ما ساعده على استقطاب و تعبئة الجماهير و إيقاظ عقولها.

و لأنّ غاية ابن باديس كانت توصيل الأفكار، جاء أسلوبه في خطبه واضح التّعبير، كثير التّفصيل، سلس المعاني قوي التّأثير، فبدت معظمها محرّرة من«مظاهر الصّنعة البديعيّة و الزّخرف اللّفظي»[2]، إلاّ ما جاء عفو الخاطر، أو ما تقصّده عبد الحميد في مقدّمات خطبه كما ذكرنا سالفاً، أو ما تعمّده من وقفات فنيّة في صلب موضوع بعض خطبه لاستمالة أذن السّامعين لها و اجتذاب عقولهم لتدبّر معانيها و ذلك لتقرير المعنى في الأذهان و توضيحه لا «رغبة منه في إظهار القدرة البلاغيّة و البراعة اللّفظيّة»[3]، ومن هذه الخطب ذات المسحة الفنيّة خطابه "**خطاب الرئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس**" و الذي يقول في جزء منه:

«...حُوربت فيكم العربيّة حتّى ظنّ أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشّعور و المشاعر، و تهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدكّ الحصون و المعاقل، و يهزّ كتابكم أقلامها فتصيب الكلا و المفاصل»[4].

---

[1] _ عبد الله الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830_1974، ص28.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص33.

[3] _ المرجع نفسه، ص34.

[4] _ عبد الحميد بن باديس: «خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس». مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلدّ الثّالث عشر، ص357.

كما هو ظاهر الفقرة تفيض بالتّصوير الفني و الخيال الحسّي و الألفاظ الموحيّة بمعناها لا بانسجام حروفها و تناغم بعضها البعض؛ ذلك أنّ اللّغة عنده ليست هدفا و إنّما أداة و وسيلة لإيصال أفكاره و إفهامها.

و ما يمكن أيضا أن نلمحه في هذه الخطبة قدرة ابن باديس على سبر أغوار واقع الجزائريين و ملامسة دائه و الوقوف على دوائه؛ ففي كلّ مرّة كان ابن باديس يذكّر فيها الجزائريين، بما يعيشونه من اضطهاد في عروبتهم أو إسلامهم أو علمهم أو فضيلتهم إلاّ و ذكر لهم سرّ التّخلص منه و سبل دحضه، كما جاء في باقي الخطبة.

و هذه الواقعيّة في تناول خطبه جعلته يجنح إلى الموضوعيّة في عرض أفكاره و ينشدها منهجا و هدفا في معالجة موضوعاته على اختلاف أغراضها، و هي ميزة طبعت نتاجه الخطابي بل مجمل نتاجه النّثري.

و يمكن_ لو جاز لنا_ أن نقيس موضوعيّة خطبه باستشهاده الكثير بالقرآن الكريم و الحديث الشّريف و الشّعر و الأمثال العربيّة؛ إذ لم يكن يدافع عن مسلّماته الفكريّة بقناعات ذاتيّة و تصوّرات خياليّة بعيدة عن الواقع، و إنّما من حجج منطقيّة و براهين ثابتة لا مجال لتفنيدها أو الشّك في مصداقيّتها، و من ذلك وصفه لبعض من انشق عن الجمعيّة و ناصبها العداء بعدما عرفوا أنّها تحارب كثيرا من الآفات الاجتماعيّة التي هم مصدرها لأنّهم كانوا ذا خلفيّة طرقيّة؛ إذ يقول واصفا إيّاهم في "**الخطاب الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعيّة بنادي التّرقي بالعاصمة**":

"و كانوا و الجمعية كما قال كثير:

وَ كُنَّا سَلَكنَا فِي صُعُودٍ مِنَ الهَوَى فَلَمَّـــا تَوَافَينَـــا ثَبَـــتَ و زَلّـــتِ

وَ كُنَّـا عَقَـدنَا عُقْـدَةَ الوَصْـلِ بَيَنـنَا فَلَـــمَّا تَوَاثَقْنَـــا شَـــدَدتُ و حَلَّـــتِ

﴿...فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَنُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيْمًا﴾[1]" [2].

أمّا الخاتمة في خطبه فكانت تأتي قصيرة ذات طابع ديني محتذياً في ذلك النّموذج الخطابي التراثي "حتّى لتكاد تقتصر على معاني الدّعاء بالخير و الصّلاح و التّقدّم لعامّة المسلمين وللإنسانيّة جمعاء"[3]، و من أمثلتها قوله في خاتمة خطبة "**خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس**":

"...هذه مواقف جمعيتكم _ أيها الإخوان _ عرضتها عليكم في إيضاح و إيجاز، والله أسأل أن يثبت أقدامنا في مواقف الحقّ كلّها في الدّنيا و في مواطن السّؤال و الجزاء في الأخرى.﴿يَومَ تَأتِي كُلَّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَّفْسِهَا وَ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُم لاَ

---

[1] _ سورة الفتح، الآية: (10).

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "خطاب رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعيّة بنادي التّرقي بالعاصمة". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، شعبان1355هـ/ نوفمبر1936م، ص356.

[3] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص31.

يُظْلَمُونَ﴾[1].آمين يا رب العالمين»[2].

و بما أنّ عبد الحميد بن باديس كان كثير التّرحال و المهام فقد كان يرتجل الكلام في معظم خطبه «لكن و هو يرتجل يختصر الكلام أمّا حين يكتب يطيل و يفصّل و لا يوجز»[3]، و في كلا الموقفين أبان عن مقدرة خطابية شهد له بها العدوّ قبل الصّديق حيث اعترفت جريدة le petit matin* بهذه الموهبة الخطابيّة التي تتمتّع بالقدرة على التّأثير والإقناع قائلة: «...و الشّيخ ابن باديس يمثل حقا الزّعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام و بصوته النّاري يستفز الجماهير، فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السّلام... لقد يستطيع أن يفعل ما يريد في الجموع التي كانت بالأمس تستمع إلى خطابه كان يستطيع أن يجعل منها سرابا من الطّيور الكاسرة، أو قطيعا من الخرفان، و هذا ما نستطيع أن نصف به هذا الرّجل الخارق للعادة»[4].

---

[1]_ سورة النّحل، الآية: (111).

[2]_ عبد الحميد بن باديس: «خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس». مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلدّ الثّالث عشر، ص361.

[3]_ عبد الله الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث1830_1974، ص25.

*_ هي جريدة فرنسية كانت تصدر في تونس، و قد أوردت هذا الوصف لموهبة الشّيخ الخطابية في عددها الصادر بتاريخ 19 ماي 1939، بمناسبة خطاب ألقاه في الذّكرى العشرين لوفاة الأستاذ "البشير صفر". انظر رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربيّة في الجزائر، ص180.

[4]_ عبد الحميد بن باديس:«و قالت البتي ماتان». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الخامس، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، جمادى الأولى1356هـ/ 10 جويلية1937م، ص229، 230.

كما شهد قراء الفرنسيّة من الجزائريين الذين كانوا يهرعون لسماع خطبه _ على الرّغم من ضعفهم في اللّغة العربيّة _ بمقدرته الخطابيّة و تأثّرهم بها حيث قالوا: "إنّه يؤثّر فينا بعربيّته أكثر ممّا يؤثّر فينا غيره بفرنسيته، لأنّه يملك من وسائل التّعبير عن الشّعور الجزائري العام ما لا يملكه غيره، فشخصيته و إشاراته، و وضوح ما يدعو إليه و إخلاصه للمبدأ الذي يعمل له كلّها تعبر عن رأيه تعبيراً لا يقلّ عن فصاحة لسانه و سحر بيانه"[1].

*_ خلاصة ما سبق ما يلي:

_ جاءت خطب ابن باديس تحمل أغراضا دينيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة.

_ خطبه من حيث البناء ثلاثة أقسام: مقدّمة، عرض، خاتمة.

_ جاءت خطبه من حيث التّعبير محرّرة من مظاهر التّكلّف و الصّنعة، أسلوبها واضح و معانيها سلسة.

_ كثيرا ما كان يستشهد في خطبه بالقرآن الكريم و الحديث النّبوي الشّريف، و كلام العرب.

_ كان يتقصّى الموضوعيّة في معالجة موضوعات خطبه.

1_ باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرّئيسين عبد الحميد بن باديس و محمّد البشير الإبراهيمي، ص57.

ب_ المقال:

تفطّن عبد الحميد بن باديس كغيره من مفكري و مناضلي عصره لما للصّحافة من أثر في يقظة الشّعوب و بثّ الوعي الدّيني و الاجتماعي و السّياسي فيها فأنشأ جريدة "المنتقد" سنة 1925م و التي أراد باسمها القضاء على الشّعار القائل "اعتقد و لا تنتقد" و بدّله بشعار"لا تعتقد حتّى تنتقد"، و لمّا عطّلت هذه الجريدة من قبل السّلطات الاستعماريّة بعد صدور 18 عدداً لها أخلفها بجريدة الشّهاب (1925_1939) الأسبوعيّة و اقتفى فيها «آثار سابقاتها مبادئ و أفكاراً، و مضموناً و شكلاً»[1]، و حمّلها شعارات المنتقد نفسها.

و لأنّ عبد الحميد بن باديس كان يعمل على عدّة جبهات للتّواصل مع الجماهير و توعيتهم للرّد على المستعمر و مخطّطاته، كانت مقالاته عبر صفحات جريدتيه واحدة من هذه الجبهات التي كثيراً ما أثلجت صدور الجزائريين بجرأتها في الذّود عن حقوقهم المهضومة و حريّتهم المسلوبة، و كثيراً كذلك ما أوجعت العدو الفرنسي بنقد سياساته و فضحها في الدّاخل و الخارج.

و بذلك احتلّت المقالة عند ابن باديس حيّزاً واسعاً من اهتمامه فأجاد في كتابتها موضوعاً، و أسلوباً، و بناءً، بل إنّ فنّ المقالة عرف على يده رفقة أقرانه من رجال الفكر الإصلاحي «نقلة ملحوظة في نوعيّة الموضوعات و في طرق التّناول و في وجوه

[1] _ محمّد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1954، ص101.

الصّياغة»[1].

و بما أنّ الجزائريين كانوا يعيشون تهتّكاً و تصدّعاً في مختلف مجالات الحياة عالج عبد الحميد بن باديس قضاياهم في مقالاته؛ فتنوّعت موضوعاتها من علميّة دينيّة، و إصلاحيّة، و اجتماعيّة، و سياسيّة، حتّى أضحت لسان الأمّة النّاطق بواقعها و المعبّر عن تطلّعاتها.

ففي المقالة العلميّة الدّينيّة اعتمد ابن باديس على الأسلوب العلمي الذي يستند إلى العقل و المنطق و ذلك حتّى يخوض في الموضوعات الدّينيّة و قد تمثّلت "هذه المقالة فيما كان ينشره الشّيخ في نظراته في تفسير القرآن الكريم و تأمّلاته في شرح الحديث الشّريف»[2]، و هذه أجزاء من مقال بعنوان "**دعوة إلى الحسنى فهل من مجيب**"، يقول فيها:

«﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوْا بَيْنَ أَخَوَيْكُم وَ اتّقُوْا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ﴾[3].

مهما اختلفت مذاهب المسلمين و تشعبت طرقهم و كثرت فرقهم، فإنّهم _ بحمد الله _ متّفقون على أصل دينهم الذي لا يكون أحد من أهل الذين إلا به... و كلهم يقولون

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث في الجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص75.

[2] _ المرجع نفسه، ص77.

[3] _ سورة الحجرات، الآية: (10).

بلسان المقال أو بلسان الحال: رضينا بالله ربا، و بالإسلام دينا، و بمحمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم رسولا فقد حفظوا _ بفضل الله _ مما لم يحفظ منه غيرهم: من الخلاف فيما يكون به المسلم مسلما، قد كان من مقتضى تفاوت النّظار في القوّة الفكريّة من أصل الفطرة، و تباينهم في العدّة العلميّة بحسب الزّمان و المكان و البيئة _ إن اختلفوا، كما قد كان من مقتضى عوامل سياسية داخلية في تاريخ الإسلام، و دسائس أجنبيّة من جمعيّات سريّة تعمل على هدمه مستترة باسمه _ إن افترقوا، و لقد كان افتراقهم السّبب الأوّل الأقوى لجميع البلايا و المحن الدّاخليّة و الخارجيّة التي لحقتهم في جميع أجيالهم أيام قوّتهم و أيام ضعفهم، و إن تاريخهم لعبرة، و إنّ في أنبائهم لمزدجرا.

حق علينا _ معشر الجزائريين _ اليوم أن نتدبّر تلك العبر، و أن نزدجر عمّا في مصائب الفرقة من خطر، فقد قامت بين كتابنا خلافات في مسائل دينيّة؛ أدّت إلى افتراقات حزبيّة حتّى خرجت ببعض الكتّاب من الجانبين إلى مراعاة بسهام التّشاؤم و قذائف السّباب مما لا ترضيه مروءة؛ و لا يسيغه عقل و لا دين...»[1].

دعا ابن باديس في هذا الجزء من المقال النّاس إلى اجتناب أسباب الفرقة و الخلاف، ملتزمين بما جاء في القرآن و السّنّة كما أورد، مستدلاّ استدلالا منطقيّا بما

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص80، 81، نقلا عن الشّهاب، العدد 102، 23 ذي الحجّة 1345هـ/ 23 جوان 1927م.

وقع للسّلف حتّى لا يقع فيه الخلف.

أمّا في المقالة الإصلاحيّة فقد عمل فيها ابن باديس على إصلاح أحوال النّاس و تصحيح انحرافاتهم و عقيدتهم و ما لحق بها من بدع و خرافات و "الرّدّ على دعاوي بعض المستشرقين و دحض أباطيلهم"[1]، و هذا مقتطف من مقال "**صلاة و صلاة**" ردّ فيه على مقال نشرته مجلّة مسيحيّة بعنوان "غاية التّبشير النّضال ضدّ الإسلام" _ قدّم فيه صاحبه دعواته و صلواته من أجل اتّحاد الكاثوليك و محاربة الإسلام: قال فيه عبد الحميد بن باديس: "... بهذا تغدي الكنيسة مؤمنيها و هم في وسط إسلامي لا تمكن سعادته و هناؤه إلاّ بتعاون سكانه فيه بروح التّسامح و التّواد، و تملأ صدورهم بهذا التّعصب الممقوت ضدّ قوم مسلمين و مستضعفين. فلا يدري إلا الله كم أثمرت هذه التغذية الخبيثة من علقم كان وزر من جرعه و من تجرّعه على من بثوه في النّفوس و مكنوه من القلوب"[2].

و ختم مقاله بقوله: "...و ليعلم إخواننا المسلمون عظيم نعمة الله عليهم، بما شرعه لهم من أصل التّسامح العظيم، فيزدادوا به تماسكا، فيعيشوا سالمي الصّدور من داء الحقد الدّيني، و التّعصب الممقوت، و ليعرف الذين يبثون تلك السّموم أنّ أعمالهم لا

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث في الجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص77.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "صلاة و صلاة". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّالث، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الأول1355هـ/ جوان1936م، ص109.

تخفى على غيرهم، فعسى أن يقلعوا عنها و يرجوا للعمل معنا على بثّ التّسامح بين عباد الله، و الله يهدي من يشاء إلى سوء السّبيل».

فالمقال كما نرى ينضح بإنسانيّة و حكمة ابن باديس في الرّدّ على المتعصّبين و تفنيد افتراءاتهم، و مجادلتهم بالتي هي أحسن كما عرف عنه، و بأسلوب علمي و عقلي يعتمد على المقارنة و الاستدلال لا على المفاخرة الشّخصيّة و الارتجال.

و لمّا كان ابن باديس يعيش قضايا الجزائريين فقد أسهم في معالجة مشاكلهم بتصوير واقعهم و نقل همومهم من خلال المقالة الاجتماعيّة ، فكتب في أغلب الموضوعات الاجتماعيّة، داعيّا أفراد الأمّة الجزائريّة «إلى التّمسّك بأصول دينهم، و المحافظة على مقوّماتهم الشّخصيّة و التّحلّي بآداب الفضيلة و الأخذ بأسباب العلم و العمل و الإقبال على الحياة و الحرص على دعم أواصر الأخوّة و الوحدة، و نبذ أسباب النّزاع و الفرقة»[1]، كما كان لموضوعات النّهوض بالمرأة و رعاية الشّباب حضورا في مقالاته تأكيدا على دورهما الفعّال في المجتمع.

و هذا جزء من مقال ذو صّبغة اجتماعية يعبّر فيه ابن باديس عن رغبة الجزائيين في التّعلّم تحت عنوان "**في سبيل التّعلم و التّقدم**" يقول الإمام: «ما من شكّ في أن الشّعب الجزائري شعر بسوء الحالة التي وصل إليها في جميع نواحيه. و ما من شكّ

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث في الجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص78.

في أنّه قد آلمه ما شعر به فأخذ يعمل للتّخلص من تعاسته و النّهوض من كبوته بكلّ ما يستطيع.

الشّعب الجزائري شعب مسلم طبعه الإسلام على تعظيم العلم، و حب التّعلم، و احترام المتعلمين، فلما دبّت فيه الحياة و هبّ للنّهوض اندفع للتّعلم اندفاعاً أدهش قوما و حير آخرين...»[1].

يعكس هذا الجزء من هذا المقال إحساس عبد الحميد بواقع الجزائريين و تطلّعه لتلاشي الظّلام الذي يخيّم عليهم، و هو الإحساس العام الذي نجده في جميع مقالاته على اختلاف أنواعها، ممّا جعل الشّغل الشّاغل له و هو يدبّج ما يدبّج من مقالات لإيصال أفكاره و تصوّراته بأوضح بيان، و أبسط صورة.

و بما أنّ السّياسة أخذت نصيبا من اهتمامات عبد الحميد بن باديس فقد كتب في المقالة السّياسيّة حيث خاض في بعض القضايا السّياسيّة دفاعا عن الشّخصيّة الجزائريّة، و مطالبا بحقوق الشّعب المسلوبة فعرف عنه أنّه «سياسيّ محنّك يعرف كيف يثور و كيف يسكن»[2]، لذلك فالدّارس للمقالة السّياسيّة عند ابن باديس يجد أنّها مرّت

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر (د.ن)، (د.ط)، 2007م، الجزء الرّابع، ص140. نقلا عن البصائر، السّنة الثّالثة، العدد 136، قسنطينة، الجمعة 27 شعبان 1357هـ/ 21 أكتوبر 1938م.

[2] _ عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر بالجزائر 1925_1954. الجزائر، الشّركة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع، الطّبعة الثّانية، (د.ت)، ص91.

بمرحلتين عبر تطوّرها.

و قد اتّسمت المرحلة الأولى و التي تبدأ "بمطلع العشرينيّات و تنتهي في أعقاب المؤتمر الإسلامي سنة1936م"[1] بميل ابن باديس إلى المرونة السّياسيّة، فكان يليّن القول و يخفّف اللّهجة مع السّلطات الحاكمة، لأنّه كان يراعي مجريات الأحداث من حوله، و كان يدرك عدم تكافؤ ميزان القوّة بين الشّعب الجزائري و فرنسا، فكان يؤكّد في تلك المقالات على تمسّك الشّعب الجزائري بمقوّمات هويّته الحضاريّة، و يذكّر بحقوقه المهضومة من خلال التّعقيب على خطابات و تصريحات بعض حكّام الاحتلال.

و هذا جزء من مقال كتبه تعقيبا و تعليقا على خطابات الوالي العام موريس فيوليت و الذي جاء تحت عنوان: "**المسألة الأهليّة في خطابات سمو الوالي العام**"حيث يقول فيه:

"... إنّ وجود مثل سموّه على رأس إدارة عليا فرصة سعادة تخطو بها الأمّة الجزائريّة بنت فرنسا خطوات إلى الأمام، و ربّما كان بعد هذه الفرصة ما تقف به الأمّة حيث هي برهة من الزّمن، فإنّه بوجود أفراد على رأس إدارة عليا في الحكومة تكون سعادة أو شقاوة و حياة أو موت"[2].

---

[1] _ محمّد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1954، ص103.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، الجزء الخامس، ص223، 224. نقلا عن الشّهاب العدد 37، 02 محرّم 1345هـ/ 12 جويلية 1926م.

إلى أن يقول: "يرمي سموه في خطاباته إلى لزوم تعليم الأهالي التّعليم الفكري و التّعليم الصّناعي، و لا حياة للإنسان إلاّ بفكره و يده، و لا شكّ أنّ سموّه _ و هو يرى ما شيّدته فرنسا من المدارس الثلاثة لتّعليم العربيّة و الفرنسويّة _ يرى أنّ مصلحة الأهالي أن يتعلموا لغتهم العربيّة و لغتهم الفرنسويّة، و أنّهم _ لكونهم عربا جنسا و فرنسويين سياسة _ لا يطيرون في سماء المدينة مع أبناء فرنسا و لأجل فرنسا إلاّ بهذين الجناحين"[1].

نلمس في هذا الجزء من هذه المقالة مرونة و لينا متعمّدا من طرف عبد الحميد بن باديس، و نوعا من الاحترام اتّجاه الوالي العام و من وراءه فرنسا، إيمانا منه أنّ سياسة المجابهة و الجرأة لا تجدي في هذا الوقت مع هذا المستعمر الظّالم، لذلك عمد ابن باديس ممثّلا لجمعيّة العلماء المسلمين إلى "خطّة ذكيّة مزدوجة ظاهرها مسالمة الحكومة الفرنسيّة و إظهار الثّقة بها لكونها حكومة ديمقراطيّة يسيّرها رجال ينتمون إلى الجبهة الشّعبيّة و باطنها عداوة متحكّمة و شديدة للموظّفين الرّسميين"[2]، و ذلك حتّى يظفر الشّعب الجزائري ببعض المكاسب و الحقوق مثله مثل أبناء فرنسا.

أمّا المرحلة الثّانية و التي بدأت في أعقاب المؤتمر الإسلامي سنة 1936م و انتهت بوفاة ابن باديس سنة 1940م أدرك فيها ابن باديس كباقي الزّعماء السّياسيين

[1] _ المرجع السّابق، ص225.

[2] _ محمّد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1954، ص281.

الجزائريين أنّ الوّعود الفرنسيّة غير قابلة للتّحقيق فلجأ إلى تغيير أسلوب تعامله معهم، فشهد نتاجه المقالي "نقلة ملحوظة انعكاسا لما عرفه نشاطه السّياسي في هذه الفترة من انقلاب كبير على مستوى التّصوّر الفكري و من جرأة مشهودة على صعيد السّلوك العملي"[1].

و لأنّ المقالة الباديسيّة يغلب عليها الطّبع الذهني و الرّوح الإصلاحيّة تميّزت بأسلوب صريح "مباشر و قوي و قصير الجمل و مركّز و مفحم للخصم، و طافح بالسّخرية اللاّذعة خصوصاً عندما يكون الأمر متعلقاً بمناقشة المتهجّمين على الشّخصيّة القوميّة سواء كانوا جزائريين أو أجانب"[2]، و ظهر هذا جلّيا في المقالة السّياسيّة كما ذكرنا سابقا و هذا مقال سيّاسي له تحت اسم "**كلمة صريحة**" ردّ فيه على فرحات عباس بعدما أنكر هذا الأخير وجود القوميّة الجزائريّة في التّاريخ قال فيه:

"حقا إنّنا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته؛ فمن فوضى في الدّين إلى فوضى في الأخلاق، إلى فوضى في الاقتصاد، و زادتنا الأيّام على ذلك فوضى جديدة ربما كانت أخطر الفوضات و أشّدها تأثيرا على حياة الأمّة و هي فوضى التّكلم باسم الأمّة.

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث في الجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص81.

[2] _ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي و التّربية في الجزائر، ص185.

فما من متكلم اليوم، في أيّ مناسبة من المناسبات إلاّ و رفع عقيرته مدّعيا بأنّه إنّما يمثل الأمّة الإسلاميّة قاطبة في هذه البلاد؛ و إنّ الكلمات التي يقولها من عند نفسه إنّما هي كلمة الأمّة الحق و قولها الفصل. و لو أنّهم اقتصدوا في القول و لم يلجوا باب الغلو و الإسراف، و قالوا إنّنا نتكلم باسم الفريق الذي انتخبنا، أو باسم الهيأة التي ننتمي إليها، أو باسم الجماعة التي نحن منها، أو باسم الذين يشاركوننا في الرّأي و التّفكير، لكان قولهم أصوب، و رأيهم أصلح، و كلامهم أقرب إلى نفوس السّامعين من رجال الحكومة و من رجال الشّعب»[1].

إنّ جانب النّقد اللاّذع و الجرأة لظاهر بأسلوب صريح في الردّ على دعاة الاندماج و التّجنيس في هذه المقالة التي تعبّر عن نهج عبد الحميد في الدّفاع عن كلّ ما يمسّ الجزائريين و الجزائر.

و حتّى تصل أفكار ابن باديس في فن المقالة بأسلوب مباشر و واضح اهتمّ "باللّغة من حيث مفرداتها و أيضاً من حيث أصالتها و قدرتها على تبليغ الأفكار بل و العناية ببعض خصائص الأساليب العربيّة و البيان العربي دون اهتمام كبير بجمال التّعبير و صياغته صياغة يقصد من ورائها اللّذة الأدبيّة»[2]، و هذه العناية غالبة في

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة صريحة". مجلّة الشّهاب، الجزء الأوّل، المجلّد الثّاني عشر، ص(42_50).

[2] _ عبد الله الركيبي: تطوّر النّثر الجزائري الحديث 1830_1974، ص137.

مقالات الفكر الإصلاحي على العموم؛ فالجانب الفنّي الأدبي يقع في الدّرجة الثّانية، و لغة المقالات السّابقة خير شاهد على ذلك.

و المتتبّع لمقالات عبد الحميد بن باديس على اختلاف أنواعها و موضوعاتها يلحظ التزامه بالخطّة التي تسير عليها كتابة المقالة من مقدّمة و عرض و خاتمة؛ بحيث نجد كل عنصر من عناصر الخطّة واضح المعالم فجاءت مقالاته على "أعلى درجة من التّماسك و التّرابط بين أجزائها"[1].

فكانت المقدّمة في غالب مقالاته قصيرة "شديدة الصّلة بالواقع ممهّدة لما يتخلّله من أفكار و مشاعر"[2] و من ذلك قوله في مقدّمة إحدى مقالاته الاجتماعيّة المعنونة باسم "**صلاح التّعليم أساس الإصلاح**": "لن يصلح المسلمون حتّى يصلح علماؤهم، فإنّما العلماء من الأمّة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كلّه و إذا فسد فسد الجسد كلّه "[3].

فنلاحظ كيف جاءت المقدّمة موجزة قصيرة، ذكر فيها أن صلاح المسلمين مرهون بصلاح علمائهم، ثمّ راح يفصّل في العرض.

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص85.

[2] _ المرجع نفسه، ص85.

[3] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، الجزء الرّابع، ص74. نقلا عن الشّهاب الجزء الحادي عشر، المجلّد العاشر، غرّة رجب 1353هـ/ 10 أكتوبر 1934م.

أمّا العرض فتميّز «في معظم مقالات الكاتب بوحدة الموضوع»[1] حيث كان يعالج موضوعا واحدا تصحيحا للعقيدة أو دفاعا عن مقوّمات الأمّة أو حقوق المرأة و الشّباب مستشهدا بالقرآن و السّنّة أحيانا، يقول في جزء من مقال بعنوان "**عبر المؤتمر الآفخار ستي**":

«و المسلمون أرقى و أرفع من إثارة مثل تلك الأحقاد، و تحريك مثل تلك الإحن، و بودهم و هم شعب متديّن أن يعيش سائر المتدينين تحت كنف الإسلام و المودّة و الحبّ الخالص، و التّسامح الإسلامي العظيم يجبرهم على ذلك و يوصيهم بها و ينهاهم عن خلافه، أما قال الله في كتابه العزيز: ﴿ لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ﴾[2]؟ أو لم يقل أيضا ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّيْنِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾،[3] أو لم يقل أيضا ما هو آية الإعجاز في التّسامح الدّيني بله الإنساني ﴿إِنَّ الذِيْنَ آَمَنُوْا و الذِيْنَ هَادُوْا وَ النَّصَارَى وَ الصَابِئِيْنَ مَنْ آَمَنَ بِالله وَ اليَوْمِ الآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾[4]» [5].

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص85.

[2] _ سورة الكافرون، الآية: (06).

[3] _ سورة البقرة، الآية: (255).

[4] _سورة البقرة، الآية: (61).

[5] _ عبد الحميد بن باديس: نصوص مختارة. جمعها و علّق عليها محمّد القورصو، الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، (د.ط)، 2005، ص129.

عالج ابن باديس في هذا المقال موضوعا واحدا هو التّسامح الدّيني بين الشّعوب، مستشهدا ببعض الآيات من القرآن الكريم لتوضيح الفكرة و ترسيخها في أذهان القرّاء.

بينما الخاتمة كانت تأتي في غالب مقالاته "دُعائيّة موجزة ملخصة للمعاني المطروقة في صلب العرض"[1]، يتوخّى فيها الأهداف المرجوّة و مطعّمة باستشهاد أو اقتباس من القرآن و السّنّة، و من ذلك قوله في خاتمة مقال بعنوان "**المناظرة و المهاترة**": "فلنثبت على سيرنا، و ليثبت الأخصام على سيرهم إن شاءوا، و ليعمل كل على شاكلته، فكل ميسر لما خلق له"[2].

فهذه الخاتمة موجزة كما نرى اقتبس فيها من القرآن الكريم و الحديث النّبوي الشّريف، و قدّم فيها النّصح و الإرشاد.

*_ يمكن أن نوجز فنقول:

_ تفطّن ابن باديس للدّور الهام الذي تلعبه الصّحافة في يقظة الشّعوب جعله ينشط في كتابة المقالة.

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبية في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص85.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، الجزء الخامس، ص68. نقلا عن الشّهاب العدد الخامس عشر، 05 شعبان 1344هـ/ 18 فبراير 1926م.

_ كتب ابن باديس في حقل المقالة العلميّة و الإصلاحيّة و الاجتماعيّة و السّياسيّة.

_ تميّزت المقالة عنده بادئ الأمر بالمرونة السّياسيّة لكن مع مرور الوقت أصبحت جريئة.

_ التزمت مقالاته بالخطّة التي تسير عليها كتابة المقال من مقدّمة و عرض و خاتمة.

_ اعتمد الأسلوب الصّريح المباشر في معالجة موضوعات مقالاته، و عدّته في ذلك اللّغة البسيطة، قويّة المعنى و الصّحيحة المبنى.

_ كانت أغلب مقالاته تأتي مطعّمة بالقرآن الكريم أو بالحديث النّبوي الشّريف.

ج_ الرّسائل:

إنّ الذي يلفتك و أنت تقلّب نتاج ابن باديس من الرّسائل هو تنوّع أشكال التّرسّل عنده، و هذا بحسب المقام الذي كان يريد الحديث فيه؛ فكانت مراسلاته تأتي تارة في صيغة النّداء، و أحياناً تأخذ طابع البيان و المنشور و أحياناً أخرى ينشرها على شكل برقيّات أو تلغرافات أو احتجاجات، فعلى سبيل المثال لا الحصر نعرض عناوين بعض ما نشره على صفحات الشّهاب: "**منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين**"[1]، "**دعوة و بيان إلى عموم الشعب المسلم الجزائري**

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء التّاسع، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة رمضان1356هـ/

الكريم"[1]، "برقية جمعية العلماء إلى المؤتمر البرلماني من أجل فلسطين"[2]، احتجاج على "لانديجينا الجديدة"[3]، "تلغراف مرسل إلى السّيّد الوالي العام"[4].

هذا التّنوع في طرق بثّ ابن باديس لرسائله خدمه كثيراً في توعيّة الشّعب الجزائري من خلال النّداءات و المناشير و البيانات الموجّهة له، و من جهة أخرى أفاده في الدّفاع عن حقوق الجزائريين و المطالبة بها في شكل اعتراضات و احتجاجات و نشر بيانات.

و هو تنوّع اتّسم بالطّابع العام؛ ذلك أنّ مكاتباته كانت تربطه في معظمها بالأمّة الجزائريّة و نزر من زعمائها وبعض الهيئات الوطنيّة و الخارجيّة، و كذلك مثّلت جسرا للتّواصل مع السّلطات الاستعماريّة و هي مكاتبات _كما قلنا_ "غلبت عليها الصّبغة

نوفمبر1937م، ص427.

[1]_ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص320. نقلا عن البصائر، السّنة الثّانية، العدد 79، 12 جمادى الثّانية 1356هـ/ 20 أوت 1937م.

[2]_ المرجع نفسه، ص542. نقلا عن البصائر، السّنة الثّانية، العدد135، شعبان1357هـ/ أكتوبر1938م.

[3]_ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، (د.ن)، (د.ط)، 2007، الجزء السّادس، ص210. نقلا عن البصائر، العدد115، 27 ربيع الأوّل1357هـ/ 27 ماي1938م.

[4]_ المرجع نفسه، الجزء الخامس، ص 519، نقلا عن الشّهاب الجزء التّاسع المجلّد العاشر، غرّة جمادى الأولى 1353هـ/ 12 أوت 1934م.

العامّة و سيطرت الموضوعيّة عليها بوجه واضح»[1].

و المتصفّح لزاد ابن باديس من فن الرّسائل سيصادف حقيقة «أنّ نتاجه يكاد يخلو ممّا يعرف بالرّسائل الشّخصيّة»[2]؛ و مردّ ذلك عند من تناول ابن باديس و نتاجه النّثري بالدّراسة إلى ضياع بعض رسائله، أو عزوفه الإفصاح عن الجانب الخاص من حياته، و يعزو بعض الدّارسين ذلك إلى «أنّ الرّسائل الخاصّة لم تنشر في الصّحف أو المجلاّت، فظلّت مطمورة في المكتبات الخاصّة»[3]، و الأكيد هنا أنّ التّرسل ذو الطّابع العام شغل حيزاً واسعاً من اهتمام ابن باديس. و يمكن أن نصنّف مراسلاته[4] كالآتي:

1_ رسائل موجّهة للأمّة: و تدخل ضمنها:

أ_ الرّسائل الموجّهة إلى عموم الجماهير الجزائرية.

ب_ الرّسائل الموجّهة إلى بعض علماء الإصلاح، و إلى بعض طلبته، و إلى بعض الزّعماء السّياسيين، و بعض الهيئات داخل الجزائر و خارجها.

2_ رسائل بعثها إلى السّلطات الاستعماريّة و تتضمّن:

---

[1]_ عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي بالجزائر 1931_1954. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، (د.ط)، 1983م، ص307.

[2]_ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر (الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص36.

[3]_ عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي بالجزائر 1931_1954، ص307.

[4]_ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر (الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص(36_38).

أ_ الرّسائل التي بعثها إلى الحكومة الفرنسيّة في الجزائر.

ب_ الرّسائل التي وجّهها إلى الإدارة الفرنسيّة في باريس.

ت_ الرّسائل التي أرسلها إلى الصّحف الأجنبيّة.

و قد تناول ابن باديس في رسائله الموجّهة إلى عموم الجماهير الجزائريّة قضايا عامّة تصبّ في عمق واقع الجزائريين و تطرح انشغالاتهم ملتزما في ذلك الوضوح و الدّخول مباشرة في عرض الموضوع المراد التّحدّث فيه، دون أيّ تزويق أو تنميق في العبارات، فالمهمّ هنا و هو يتوجّه إلى شريحة واسعة من الشّعب الجزائري و هي الشّريحة غير المتعلّمة أن تصل الفكرة بيسر و بساطة تامة حتّى تكون في متناول وعيهم و ثقافتهم، و نقف هنا عند "**النداء الذي وجهه إلى سكان قسنطينة لمقاطعة الاحتفالات بالذكرى المئوية لاحتلال مدينة قسنطينة**" يقول فيه:

"إخواني القسنطينيين !

في هذه الأيّام، منذ قرن، مات أجدادكم المجاهدون المدافعون و الفرنسيون المهاجمون في ميدان البطولة و الشّرف، و طويت صفحة من التّاريخ على شهادته بالشّجاعة و التّضحية للغالب و المغلوب.

و مضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة، و ضمد تلك الجروح، و تقريب السّكان المتجاورين بعضهم من بعض.

لكنّ قوما من الأنانيين الذين يأبون إلاّ أن يكونوا سادة متفوقين، و إلاّ أن يشعروا

المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين، _هؤلاء القوم_ و ليسوا كل الفرنسيين_ أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكريّة بدخلة قسنطينة، تثير العواطف، و تمس كرامة الأحياء منا و الأموات، و تنافي مبادئ الأخوّة و الرّحمة التي ندعو إليها.

يحتفلون احتفالاتهم هذه و مطالب الشّعب الجزائري بعرقلتهم معطّلة، و حقوقه بسعيّهم مهملة و سوط القوانين الاستثنائيّة نازل بيدهم على ظهره في كل يوم.

لهذا قد اجتمعت 14 جمعية إسلاميّة من جمعيات قسنطينية يوم السّبت 18 سبتامبر الماضي في نادي الاتحاد و كانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، فقررت _ بالإجماع _ ما يلي: نحن _ الممثلين لجمعياتنا _ نرى احترامًا لأنفسنا و احتراما لأجدادنا، و احتراما للإنسانيّة:

أولا_ أن لا نشارك في هذه الاحتفالات و لا نحضرها.

ثانيا_ أن نكون في هدوء تام عام.

إخواني القسنطينيين!

قد فعل المؤتمر الإسلامي الجزائري واجبه فاحتج على هذه الاحتفالات في اجتماعه العام الأخير، و قدم مكتبه ذلك الاحتجاج إلى الوالي العام، و قدمه مكتب لجنته القسنطينية إلى مير قسنطينة. و فعلت الجمعيّات الإسلاميّة القسنطينية واجبها بما قررته في قرارها المتقدّم. و أخوكم هذا_ كقسنطيني _ فعل واجبه بنشر هذا المنشور عليكم. فما بقي إلاّ أن تقوموا أنتم بواجبكم.

فقاطعوا هذه الاحتفالات و لا تشاركوا فيها.

كونوا في هدوء و سلام.

و السّلام عليكم من أخيكم: عبد الحميد بن باديس.

حرر بالمنصورة حوز تلمسان مساء الثلاثاء 23 رجب

1356هـ/1937/09/28م»[1]

فالبيان كما هو ظاهر ينطق بغصّة ابن باديس اتجاه ما حاولت السّلطات الاستعماريّة تذويقه لسكّان قسنطينة من إذلال و إهانة، لكنّه استطاع بفضل نشر هذا البيان امتصاص غضب القسنطينيين و تهدئتهم و عدم تمكين المحتفلين الفرنسيين من استفزازهم.

إنّ إحساس عبد الحميد بن باديس و تعبيره الصّادق عن جراح القسنطينيين و محاولة تضميدها أكسبت بيانه تعاطفا جماهيريّا كبيرا إلى درجة استجابتهم لمقاطعة الاحتفالات، و لم يتوسّل في ذلك إلى دغدغة عواطفهم و إنّما خاطب عقولهم؛ فليس من المنطقي أن يستشهد الأجداد في حين يشارك أحفادهم مع قتلتهم في احتفالات أراد بها الفرنسيّون تذكيرهم بقصّة الغالب و المغلوب.

و على غرار معظم بيانات ابن باديس جاء هذا البيان صريحا، مباشرا التزم في

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين". مجلّة الشّهاب، الجزء التّاسع، المجلّد الثّالث عشر، ص(427_429).

عرض أفكاره بالبساطة و الوضوح لغة و أسلوبا، فهو لا يحمل عبارات يمكن أن تشكّل استفهاما أو تطرح تساؤلا للمتلقي، فكلّ ما جاء فيه هو تحصيل حاصل لكنّ الجديد فيه هو طريقة عرضه.

و قد اتّسمت مكاتباته أو بياناته الموجّهة إلى جماهير الأمّة أو بعض هيئاتها أكثر من أيّ شكل آخر «بشيء من سعة الصّدر و طول النّفس نسبيّا»[1]؛ على اعتبار أنّه يخاطب شريحة تستحقّ شرحا وافيا لاستدراك قلة وعيها.

إنّ سمة الوضوح و القصد و الدّخول مباشرة في الموضوع سمة طاغيّة على نتاج ابن باديس من فنّ الرّسائل، فحتّى الرّسائل الموجّهة إلى بعض الشّخصيّات الجزائريّة و العربيّة، و بعض الهيئات داخل الوطن و خارجه التي تستوجب نوعا من التّخيّر لأفضل العبارات، و انتقاء لأجمل الصّور التّعبيريّة غلب عليها هذا التّوجّه و من ذلك "**كتابه المفتوح إلى النواب الجزائريين الأحرار بالعمالات الثلاث**" الذي يقول في جزء منه:

«السلام عليكم و رحمة الله و بركاته،

و بعد؛ فلا يخفى عليكم ان منزلتكم من الأمّة منزلة الرّكيل المؤتمن، و أنّ بينكم و بين الأمّة التي أولتكم شرف النيابة عنها و ملكتكم حقّ التّكلم باسمها. عقدا يلزمكم بواجبات و حقوق للأمّة لا يخرجكم من عهدتها إلاّ القيام على تحقيقها بالمحافظة على

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص41.

الموجود و السّعي في تحصيل المفقود.

و لا يخفى عليكم أيضا أنّ أعلى و أغلى ما أفرغت الأمّة ثقتها عليكم لأجله و جمعت قوتها المتفرقة فيكم للمحافظة عليه و هو دينها و لغتها و أنّها قد تغفر لكم التّقصير في كل شيء و تقبل منكم الاعتذار عن كل شيء إلاّ فيما يتعلق بدينها و لغتها. و قد كانت للحكومة الفرنسوية سوابق عهود قانونيّة مسجلة مؤكدة بالشّرف الفرنساوي في المحافظة لهذه الأمّة على دينها و لغتها و لكنّها في هذه السّنوات الأخيرة سلكت مع الدّين و لغته سياسة تناقض تلك العهود و المواثيق و ترمي في غايتها إلى محو الدّين و لغته.

و قد كانت الأمّة الجزائرية تشكو من الظلم و الغبن في بقاء نحو مليون من أبنائها محروما من التّعليم الإفرنسي و مازالت تعلق عليكم الآمال في إزالة ذلك الظلم أو تخفيفه، فما راعها إلاّ هذا الظلم الجديد و الغبن العظيم في التّعليم الدّيني العربي الذي هو أعز عليها من أرواحها و في المدارس التي شادتها بجهودها و أنفقت عليها من أموالها...»[1].

لقد كان بإمكان عبد الحميد و هو يتوسّم من النوّاب الجزائريين الأحرار الدّفاع

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين = الجزائريين. الجزء السّادس، ص197، 198. نقلا عن البصائر، العدد110، السّنة الثّالثة، 21 صفر1357هـ/ 22 أبريل1958م.

عن دين الجزائريين و لغتهم أن يمعن في مقدّمة رسالته بالإشادة بأفضالهم و يسترسل في عرضها بذكر مجهوداتهم، و بذل المزيد منها لتحقيق ذلك، حاشدا في كلّ هذا ألوانا من البديع، عامدا إلى كثير من الزّخرف اللّفظي، حتّى يستدرجهم و يحثهم على تحقيق المطالب و نيل كثير من جزيل الشّكر و الامتنان.

لكنّ ابن باديس لم ينصرف إلى كلّ هذا بل نجده في كلّ أقسام الرّسالة مصرّا على تذكيرهم بواجبهم اتجاه عهد نالوا شرف الدّفاع عنه نيابة عن الأمّة الجزائريّة و هو دين الجزائريين و لغتهم سالكا في ذلك أسلوب التّرغيب و التّرهيب لا التّملّق و التّنميق، حتّى يكون في ذلك مقنعا من جهة، و يزرع في داخلهم الإحساس بالمسؤوليّة و الاستماثة في استرجاع المفقود من حقوق الجزائريين من جهة أخرى.

و كما هو ظاهر لم يَحْتَجْ عبد الحميد بن باديس في إيصال رسالته بهذه القوّة و هذه الصّور التّعبيريّة المقنعة إلاّ على إحساس صادق بهموم الجزائريين، و أسلوب صريح و واضح في طرح انشغالاتهم على النوّاب، و عبارات مشحونة بحسّ المسؤوليّة كقوله: «**منزلة الرّكيل المؤتمن**»، «**المحافظة على الموجود**»، «**السّعي في تحصيل المفقود**»، «**تغفر لكم التّقصير في كلّ شيء**»، «**تقبل منكم الاعتذار عن كل شيء**»، فلا مجال للّعب على أوتار المشاعر في قرارات عبد الحميد و دغدغتها و الأمر يتعلق بدين الجزائر و لغتها فهما مُلْزِمَانِ لكلّ من ينتسب لهذا الوطن.

و يظهر هذا الأسلوب المباشر الصريح في برقيّاته و احتجاجاته الموجّهة للإدارة

الاستعماريّة، فهو لا يراوغ، في طرح حقوق الجزائريين و المطالبة بها و لا يلمح في ذكر و استنكار انتهاكات السّلطات الفرنسيّة، و على سبيل المثال "**برقية الشّكوى و الاستنكار التي وجهها إلى رئيس الوزارة الفرنسيّة م. دالادى بباريس**" بعد التّضييق على تعليم الإسلام و لغته نتيجة إصدار قانون 8 مارس* و التي يقول فيها:

"رئيس الوزارة الفرنسيّة م. دالادى _ باريس

يا جناب الوزير،

إلى اليوم، و في هذه الظروف ما يزال التّضييق متواليا و متزايدا على التّعليم الإسلامي.

فالمساجد محجّرة، و كثير من المدارس معطلة، و كثير من الكتاتيب القرآنيّة مغلقة، و كثير من المعلمين متابعون في المحاكم و مئات الآلاف من أبنائنا مشرّدون في الشّوارع.

يمتثل الشّيوخ للقانون فيطلبون رخص التّعليم و يقدمون جميع اللوازم، فلا يسمع لهم صوت. بل كثيرا ما نزعت الرّخص من أيد أصحابها.

---

* _ يعرف هذا القرار بقرار شوطان chautemps نسبة إلى وزير الدّاخليّة الفرنسي الذي أصدره، و قد نصّ على إغلاق المدارس العربيّة الحرّة التي لا تتمتّع برخصة عمل، و منع كل معلّم من مزاولة التّعليم في المدارس المرخّصة إلاّ بعد الحصول على رخصة التّعليم من السلطات المسؤولة، و أخطر ما في هذا القرار اعتباره اللّغة العربيّة لغة أجنبيّة في الجزائر. انظر أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، ص204.

كل هذا من آثار قانون 8 مارس المطبق على التّعليم الإسلامي تطبيقا جائرا مغرضا، بمنع الرخص عن أهلها وينزعها منهم بينما التّعليم الأجنبي _ و الأجنبي المعادي_ يتمتع بكل حريّة و احترام.

يا جناب الوزير،

إنّني في هذا اليوم يوم 8 مارس الذي هو أسوأ الأيام في تاريخ الإسلام بالجزائر _ أرفع إليكم باسم الإسلام كلمة الاستنكار التّام لهذه الحال، و أقدم إليكم باسم المسلمين مر الشّكوى من هذه المعاملة الخاصة التي تركت في القلوب أسوأ الآثار و أوجع الآلام.

راجيا منكم أن تتداركوا الأمر بما عرف عنكم من حكمة و بعد نظر و وزن للأحوال. لكم باحترام

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

عبد الحميد بن باديس»[1]

لم يتوان ابن باديس في سرد انتهاكات السّلطات الفرنسيّة بصراحة و ذكر آثار تطبيقها هذا القانون على الجزائريين في إيجاز غير مخل بما يريد توضيحه، و هي ميزة طبعت برقيّاته الموجّهة للإدارة الفرنسيّة، و قد أمدّته صراحته الجرأة ليصف تطبيقات

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء السّادس، ص295، 296. نقلا عن البصائر، 18 محرّم1358هـ/ 10 مارس1939م.

فرنسا بالجائرة و المغرضة بل و ينعت الفرد الفرنسي بالأجنبي المعادي، فتمكّن بلغته هذه أن يصيب مَكْمَنَ التّعبير بألفاظه السّهلة و عباراته المفعَمة بإحساسه الصّادق لما تعرّض له الإسلام و لغته.

و ما يلاحظ عموما في رسائله على تنوّع أشكالها و اختلاف متلقّيها اقتضاب مقدّمتها؛ فعبد الحميد كما ذكرنا سابقا يدخل مباشرة في عرض موضوعه دون حاجة إلى تمهيد يسهّل عليه الخوض فيه، فقد كان يميل في موضوع رسائله إلى الإيجاز و "القصد و التّركيز في عرض أفكارها"[1]، و هذا عندما يتوجّه بها إلى السّلطات الفرنسيّة و بعض الشّخصيّات و الهيئات داخل الجزائر و خارجها، بينما نجده يميل إلى الإطالة و التّفصيل و هو يخاطب عموم الشّعب الجزائري.

*_ و بالتّالي يمكن القول إجمالا:

_ أنّ التّرسّل عند عبد الحميد بن باديس تنوّعت أشكاله بين بيانات و نداءات و برقيّات و مناشير و احتجاجات.

_ اتّسمت رسائله بالطّابع العام.

_ لم يكن له باع في حقل الرّسائل الشّخصيّة.

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص41.

_ يمكن أن نصنّف رسائله إلى صنفين: رسائل موجّة للأمّة الجزائريّة و رسائل موجّهة إلى السّلطات الاستعماريّة.

_ اتّسمت رسائله بالوضوح و القصد و الدّخول مباشرة في عرض الموضوع.

2_ ملامح نكران الذّات في نثر عبد الحميد بن باديس:

إنّ نكران عبد الحميد بن باديس لذاته و غيريتّه لأمر ظاهر لكلّ من يتصفّح نتاجه الخطابي و المقالي و التّراسلي، و ما واقعيّة كتاباته و موضوعيّتها إلاّ دليل على ذلك؛ فالعلاّمة كما مرّ بنا سلخ ذاتيّته و انحاز لإنسانيّته حتّى يكون أكثر قربا من أفراح الإنسان الجزائري و أقراحه، فلمسنا ذلك الإقصاء للذّات و الحضور للآخر في كتاباته من خلال:

أوّلا: ميله إلى الكتابات ذات الطّابع العام:

اندمج ابن باديس في ذات وطنه و انشغل بقضاياها فجاءت خطبه مُفْعَمَة بروح حبّ الغير، موضوعاتها موجّهة لتوعيّته و إيقاظه من سباته، و حتّى الخطب التي كانت تستدعي منه إطراء نفسه و الإسهاب في سرد إنجازاتها كان يُؤثِر فيها الحديث عن غيره، ويقلّل من حجم إنجازاته، فنجده يقول مثلا في جزء من الخطبة التي ألقاها في الحفل الذي أقيم بمناسبة تكريمه لختمه تفسير القرآن الكريم بعنوان "**كلمة المحتفل به**" ما يلي:

«أيّها الإخوان:

...أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي، و بكل من له يد في تكويني،

و أنّ الإنصاف الذي هو خير ما ربي عليه امرؤ نفسه ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التّاريخي العظيم بالتّمجيد و التّكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتّى تأخذ حظها مستوفى من كلّ ما أفرغتم على شخصي الضّعيف من ثناء و مدح بالقول و الفعل. فاني اشهد الله أنكم بالغتم في التّحفي بي و التّنويه بأعمالي و أشهد أنّ هذا التّحفي عسير علي جزاؤه ثقيل علي حمله، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر و وفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التّنويه و تقاضت حقوقها من الثّناء الذي أثقلتم به كاهلي، فأكون بذلك قد أرضيت ضميري و خففت عن نفسي...»[1].

هذا الجزء من هذه الخطبة كما هو ظاهر مثقل بالعبارات التي تقصي صراحة ذات عبد الحميد و افتخاره و إعجابه بإنجازاتها من قبيل: إنّ الإنصاف...أن أذكر في هذا الموقف التّاريخي...كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتّى تأخذ حظها مستوفى من كلّ ما أفرغتم على شخصي الضّعيف من ثناء ومدح...فإني أشهد الله أنّكم بالغتم في التّحفي بي و التّنويه بأعمالي...فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر وفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل... و تقاضت حقوقها من الثّناء الذي أثقلتم به كاهلي فأكون بذلك قد أرضيت ضميري و خففت عن نفسي....

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع و الخامس، المجلّد الرّابع عشر، ص 288، 289.

فابن باديس عدل عن ذكر الجهود التي بذلها في تفسير كتاب الله و المنهج الذي اتبعه، و الصّعوبات التي واجهته في سبيل ذلك، ليعترف بمن كان لهم الفضل في تكوين هذه الذّات الضّعيفة كما قال و يأتي في بكورتهم كما ورد في بقيّة هذه الخطبة "توفيق العناية الإلهية ثم هداية القرآن الكريم ثم والده و شيوخه و أمّته"[1].

و هنا نلاحظ كيف أنّه لم يُصْغِ لأنا العظمة في كلّ ذات إنسانيّة، أناة تحبّ الإطراء و الحديث عن نفسها، لتظهر قدراتها و تزيد من عظمة ما تفعله أو تقوله بل و جدناه يقلّل من حبّها لنفسها و يخفّف من شغفها للثّناء و المدح بذكر فضل غيرها من الذّوات الأخرى في صنعها.

و إذا تجوّلنا في أعمدة مقالاته لمسنا ذلك الحرص في معالجة المشكلات التي تعترض ذلك الآخر فكتب في أغلب الموضوعات الاجتماعيّة، السّياسيّة، العلميّة، الدّينيّة، الإصلاحيّة، موقفا "جهوده العلميّة و إسهاماته الفكريّة و الأدبيّة على خدمة قضايا أمّته و السّهر على حماية مصالحها العليا، و الأخذ بيدها على طريق التّحرّر و التّقدّم"[2].

أمّا رسائله فجاءت في أغلبها ذات اللّون العام "سواء منها تلك التي كانت بين الشّيخ و بين هيئات عموميّة، أم تلك التي جرت بينه و بين بعض الشّخصيّات، فقد

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث (الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص40.

[2] _ المرجع نفسه، ص77.

تمخّضت جميعها_ كما مرّ معنا _ لمعالجة قضايا عامّة، و لم يكن أيّا منها بدافع ارتباطات خاصّة أو مصالح شخصيّة، «و إنّما كان الدّافع إلى معظمها كلّها عواطف غيريّة جماعيّة»[1]؛ فكانت وعاء مُلأ بهموم الجزائريين و آمالهم فلا مكان شاغر ليتحدّث فيها عن نفسه و عن رغبات شخصيّة قد يطمح إليها أي شخص كان في منزلته الفكريّة و الاجتماعيّة، و ما "**بيان الاعتذار و الرّفض الذي بعث به إلى أعضاء لجنة المؤتمر الإسلامي الجزائري**" بعدما نصّبوه رئيسا عليهم إلاّ حجّة على ما أوردنا إذ يقول في جزء منه:

«...غير أنّني لا يمكنني أن أعمل فيه إلاّ ما يشغلني عما أوقفت له حياتي من نشر الهداية الإسلاميّة و اللّغة العربيّة و ذلك هو ما لا يتجاوز مركز عضو عامل في اللّجنة.

و لذا لما شرفني إخواني أعضاء اللّجنة في غيبتي بمركز الرّئاسة لم أبادر بالتّلبيّة و أوقفت البت في الأمر على استشارة هيئات ارتبطت معها ارتباطا فكريّا و عمليّا في خدمة الإسلام و العربيّة»[2].

لقد كان في مقدور ابن باديس القبول بمنصب الرّئاسة الذي أوكل إليه لإرضاء

---

[1] _ المرجع السّابق، ص38.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء السّادس، ص186.

هوى لا يقنع، و إضافة لقب إلى مجموع إنجازاته لكنّه آثر لنفسه أن تكون خادمة لا مخدومة، تعمل على إرشاد الآخر إلى دينه و لغته خير من تحقيق مكسب شخصي.

نلاحظ أخيرا كيف أنّ نتاج ابن باديس من الخطابة و المقالة و الرّسالة ينأى عن كلّ ذاتيّة في الطّرح؛ فأناه سجين عقله و قناعته الفكريّة إذا أراد أن يتحرّر لابد له من قتل غيريّة ابن باديس و إنسانيّته.

ثم إنّه لم يثبت عن ابن باديس أنّه بعث رسائل حقّقت خدمة خاصة له أو لأحد أفراد أسرته أو معارفه، فالمسألة عنده مسألة قناعة فكريّة و مبدأ إنساني يؤمن به و لعلّ من المواقف الكثيرة التي تعرّض لها عبد الحميد بن باديس و التي يمكن من خلالها الاستدلال على تقديمه المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة، و قمعه لأحاسيسه الذّاتيّة على حساب مبدئه الإنساني الجمعي هو موقفه مع مدير الشّؤون الأهليّة بالولاية العامّة "ميرانت" حين استدعاه إلى مكتبه ليساومه بين التّخلي عن رئاسة جمعيّة العلماء المسلمين مقابل الإفراج عن والده و مساعدة أسرته في التّخلّص من ضائقتها الماليّة، فأرسل ابن باديس بعد تعرّضه إلى إغراءات "ميرانت" كتابا* صرخ فيه بقمعه و نكرانه لكلّ ما هو ذاتي؛ فهو عندما يطلب من "ميرانت" قتل أبيه و قتله هو شخصيّا و القضاء على أسرته إنّما يقتل و يرفض سيطرة أحاسيسه و مشاعره الذّاتيّة ، و يتجرّد منها مقابل إعلاء

* _ ورد ذكر جزء من هذا الكتاب في الفصل الثّاني من هذه المذكّرة، ص 70 و 71.

مبدأ إنساني يخدم الجماعة و إحساسه الغيري و لا يخضع للفرد الواحد و شعوره الأناني؛ فعبد الحميد من خلال خطابه هذا أثبت أنّه لا مكان للمحسوبيّة في أجندته الفكريّة و قراراته الوجدانيّة، و إن كان لابدّ من مكان فهو لخدمة الجماعة و مصالحها.

ثانيا: ندرة كتاباته الشّخصيّة:

تنوّعت كتابات ابن باديس العامّة و قد كان فيها مكثرا، أمّا كتاباته الخاصّة فقد كان فيها مقلاّ إذ لم نقل أنّ الخوض فيها كان معدوما، ففي فنّ المقالة "لم يكن له حضور يذكر في حقل المقالة الذّاتيّة فقد ترك ذلك لغيره، و كان مشغولا عن سماع صوت نفسه بالإصغاء إلى صوت أمّته»[1]، و لعلّه ذكر ذلك صراحة في مقالته الشّهيرة "**لمن أعيش**" إذ يقول في جزء منها عن الإسلام:

«....فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية لخيرها و سعادتها، في جميع أجناسها و أوطانها، و في جميع مظاهر عاطفتها و تفكيرها، و ما كنا لنكون هكذا إلاّ بالإسلام الذي ندين به و نعيش له و نعمل من أجله»[2].

و يقول عن وطنه الجزائر: «...فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أوّل ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة و كما أنّني كلما أردت أن أعمل عملا وجدتني في حاجة إليه:

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص77.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "لمن أعيش". مجلّة الشّهاب، الجزء العاشر، المجلّد الثّاني عشر، ص427.

لرجاله و إلى ماله و إلى آلامه و إلى آماله، كذلك أجدني إذا عملت قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه...»[1].

نلاحظ كيف أنّ النّموذجين يمثّلان وثيقة اعتراف بمجاورة الآخر لفكر ابن باديس و وجدانه، فهو يرى أنّه إذا عاش لخدمة الإسلام فهو لا يعيش ليخدم ذاته و فقط و إنّما ليخدم الإنسانيّة جمعاء (الغير)، و إذا أفنى حياته في خدمة وطنه الجزائر فالفضل كلّ الفضل إلى ذلك الآخر (رجال الوطن، آلامهم، آمالهم)، فهو حاضر في ذهنه و وجدانه طواعيّة و ليس غصبا لأنّه لا يمكن أن يخدم شيئا دون أن يشعر بوجوده، و يتفاعل مع أفراحه و أقراحه، و ما أناه إلاّ تابع يسخره عبد الحميد لخدمة الغير قبل نفسه.

أمّا نتاجه من فن الرّسائل فهو يكاد يخلو من الرّسائل الشّخصيّة «باستثناء رسالة وجّهها للشّيخ (الطّاهر العبيدي)، و قد جاءت بأسلوب مصنّع»[2] شذّ فيها عن أسلوبه المرسل، و الرّسالة جاءت ردا على رسالتين بعثهما الطّاهر لعبيدي* له يقول في مقطع منها:

---

[1] _ المرجع السّابق، ص427.

[2] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص36.

* _ ولد في مدينة الوادي سنة 1304هـ/1886_1887م، و توفي بتقرت سنة 1387هـ/1968م، و كان منذ شبابه إماما مدرّسا بجامع تقرت الأعظم. و قد ظلّ على ذلك إلى وفاته،. انظر أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب و الرّحلة. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، (د.ط)، 1983، ص100، 101. بتصرّف.

"بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و سلم

إلى حضرة علم العلم و الفضل، و معلم الكرم و النبل، التقي الطّاهر الأثواب، السرى البارع الآداب، مستحق الشّكر منا بما له علينا من سابق الأيدي، العلامة الشّيخ سيدي أبي الطّيب الطّاهر لعبيدي، أدامه الله بدرا طالعا في هالة درسه، و غيثا هامعا يحي ربع العلم من بعد طمسه، حتّى يبذل وحشة قطره بأنسه، و يجتني من بساتين تلاميذه ثمرات غرسه، آمين.

...فلما قدمت و قبلته قدمته على غيره و قبلته، و كان ما دخلني من السّرور بمجلو خطابه، مخففا لما غشيني من الخجل لمر عتابه، و لك العتبى يا سيدي فيما ذكرت، و منك الفضل فيما به ابتدأت و تفضلت، فقد بلغتني القصيدة الغراء التي راقت و رقت، و استوجبت الحمد و استحقت، نظرت إلى أوصافك الكريمة فحليتني بها، و نسبتني إليها، و الله يهدي ببركة محبتك الخالصة ما ظننت، و يجازيك بالخير الجزيل على ما فعلت"[1].

إنّ وجود هذه الرّسالة كشاهد وحيد على كتابة عبد الحميد بن باديس في الرّسائل الشّخصيّة يعزّز عزوفه التّعبير عن الجانب الشّخصي و الإفصاح عن وجدانه الخاص كقناعة فكريّة يسلّم بها، و يؤكّد انشغاله بقضايا وطنه و السّهر على حماية مصالحه، ذلك أنّ "الشّيخ كان بجبلّته _ كما يذكر معارفه و تؤكّد آثاره _ جادا غيريّا تشغل فكره

[1] _ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب و الرّحلة، ص(103_105).

الاهتمامات العامّة و تستغرق وجدانه معاناة الآخرين»[1].

ثالثا: بساطة تعبيره رغم بلاغة أسلوبه:

اعتمد عبد الحميد بن باديس في كتاباته على الأسلوب البسيط المرسل، و الفكرة المباشرة الواضحة القصد للتّواصل مع الشّعب الجزائري على الرّغم من فصاحة لسانه و بلاغة بيانه، إذ تخلّى عن مقدرة لغويّة تسعى كل نفس بشرية انتهاز الفرص لإظهارها و التّباهي بامتلاكها، مقابل تحقيق إفادة عامة يكون فيها المتلقي لخطاباته هو المستفيد الأوّل و الأخير فيها، و هذا نكران لمقدرة لغويّة ما بعده نكران و بلاغة ما بعدها بلاغة ذلك أنّ واجب البليغ «أن يكون واضحا مفهوما يرمي إلى إفادة قرّائه و رفع مستواهم الثّقافي...و بعد ذلك يأتي التّعبير اللّغوي الذي يتطلّب من المنشئ ثروة لغويّة و قدرة على التّصرّف في التّراكيب و العبارات»[2]، فهو لا يجنح إلى الغموض و تخيّر اللّفظ و تنميق الأسلوب لإرضاء لذّة جماليّة خاصّة و إثارة متعة فنيّة عامة كهدف، و إنّما لكلّ مقام مقال.

و قد وقفنا في خضمّ حديثنا عن نتاجه النّثري، كيف أنّ بعض كتاباته الموجّهة إلى الطّبقة المثقّفة كانت تأتي على درجة جيّدة من حسن التّصوير، و قوّة الأسلوب،

---

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر(الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص39.

[2] _ أحمد الشّايب: الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية). القاهرة مصر، مكتبة النهضة المصريّة، الطّبعة الثّامنة، 1411هـ/1991م، ص186.

و جزالة الألفاظ، مع وضوح فكرتها، و هذا ما يؤكّد جنوح عبد الحميد بن باديس إلى البساطة و الوضوح كوسيلة تعبيريّة متعمّدة لتحقيق حاجة غيريّة في نفسه تتمثّل في استمالة عدد كبير من المتلقين لرسائله من جهة، و استدراك قلّة فهمهم من جهة أخرى، و كذلك جلب منفعة عامّة تكمن في تجاوب الشّعب الجزائري مع موضوعات كتاباته و إحداثها الوعي في أذهانهم.

رابعا: وجود سمات تعبيريّة تكرّس نكرانه لذاته:

إنّ ممّا يؤكّد نكران الذّات في كتابات ابن باديس النّثريّة هو احتواء بعضها على عبارات تقمع مدحه لنفسه و افتخاره بمكانته الاجتماعيّة و السّياسيّة و الدّينيّة، وتذكيرها بفنائها حتى تتواضع لما حقّقته من إنجازات، و ترضخ لقناعة صاحبها الفكريّة و من ذلك تكرار عبارات "**فهذا العاجز**"، "**شخصي الضّعيف الفاني**"، "**هذا العاجز**"، "**إنّ هذا العبد الضّعيف**"، "**باسمي الضّئيل**"... التي كرّست نكران ابن باديس لذاته و قمعه لأناه الفردي بشكل صريح و واضح و هو بتوظيفه لهذه العبارات يؤكّد تخلصه من كلّ ما من شأنه أن يعلي هذه النّفس و يزيد من سيطرتها و إحساسها بالعظمة. و سنبيّن هذا بالتّفصيل في الفصل الرّابع من هذه المذكّرة.

نلاحظ أخيرا كيف أنّ نتاج ابن باديس من الخطابة و المقالة و الرّسالة ينأى عن كلّ ذاتيّة في الطّرح؛ فأناه سجين إيمانه و قناعته الفكريّة إذا أراد أن يتحرّر لابد له من قتل غيريّة ابن باديس و إنسانيّته.

*_ و باختصار من معالم نكران الذّات في نثر ابن باديس ما يلي:

_ انصرافه عن الكتابة في مجال الرّسائل الشّخصيّة و المقالة الذّاتيّة.

_ جاءت خطبه و مقالاته و رسائله تنضح بقضايا الأمّة و فقط.

_ التزامه البساطة و الوضوح على الرّغم من مقدرته اللّغويّة.

_ كلّما تحدّث في كتاباته بلسانه استعمل عبارات تقلّل من شأن نفسه.

1_ ابن باديس و عدول الأنا في رسائله

2_ الخصائص الأسلوبيّة لنكران الذّات في خطب بن باديس

أ_ المستوى الصّوتي

ب_ المستوى الدّلالي

ج_ المستوى التّركيبي

3_ أدبيّة المقال و موضوعيّته

أ_ الوضوح

ب_ التّصوير الفنّي الواقعي

الأسلوب كاتم سرّ صاحبه، يكشف بشكله و مضمونه نمط تفكيره و طريقة تعبيره عمّا يخالجه فهو "جسر إلى مقاصد صاحبه من حيث أنّه قناة العبور إلى مقوّمات شخصيّته لا الفنيّة فحسب بل الوّجوديّة مطلقا"[1]؛ فلا عجب إذا تقصّيناه أخبرنا ما خفي و ما ظهر عنه؛ لذا فإنّه يتعذّر دراسة الأسلوب بمعزل عن صانعه.

و صاحب الخطاب سيّد أسلوبه يروّضه كيفما شاء حسب ما يمتلك من قدرات لغويّة و فنيّة و ما يحمّله لها من إيحاءات مختلفة تخبرنا عن حالته الشّعوريّة لأنّ الأسلوب محكوم "بقضاء المكوّنات اللّغويّة و قضاء الوّجود الإنساني"[2] ، الذي لن يكتمل وّجوده الإبداعي ما لم يأخذ بعين الاعتبار مستوى المخاطب الفكري و اللّغوي؛ لأنّ "الكاتب النّاجح أو صانع الجمال الماهر هو الذي لا يهمّه تأدية المعنى و حسب بل ينبغي إيصال المعنى بأوضح السّبل و أحسنها و أجملها"[3]، و إلاّ فإنّه سيحكم على إبداعه بالفشل و أسلوبه بالضّياع.

لكنّ ذروة صناعة الأسلوب لن تكتمل عند المبدع ما لم تنبض لغة خطابه بإحساسه الصّادق، فهو بمثابة الرّوح الذي يمدّها بالحيويّة و النّشاط "فالأديب حين يعبّر

---

[1] _ عبد السّلام المسدّي: الأسلوبيّة و الأسلوب. طرابلس ليبيا، الدّار العربيّة للكتاب، الطّبعة الثّالثة، (د.ت)، ص68.

[2] _ منذر عيّاشي: الأسلوبيّة و تحليل الخطاب. مركز الإنماء الحضاري، الطّبعة الأولى، 2002م، ص49.

[3] _ عبد السّلام المسدّي: الأسلوبيّة و الأسلوب، ص85.

عن شخصيّته تعبيرا صادقا يصف تجاربها و نزعاتها و مزاجها و طريقة اتّصالها بالحياة ينتهي به الأمر إلى أسلوب أدبي ممتاز في طريقة التّفكير و التّصوير و التّعبير»[1]، و يكون تفاعل المخاطب و تأثّره به ملاذا حتميّا.

و السّؤال الذي يطرح نفسه هنا هل استطاعت النّصوص النّثريّة الباديسيّة من خطب و رسائل و مقالات من أن تتوفّر على هذه العلاقة المتكاملة بين (المخاطِب و الخطاب و المُخَاطب)؟ و إذا سلّمنا تاريخيّا أنّ كثيرا من نصوصه النّثريّة حازت على تفاعل و تجاوّب شعبي معها، و أدّت عملها الوظيفي مع سلطة الاحتلال، فما الأدوات التّعبيريّة و السّمات الأسلوبيّة التي مهّدت الطّريق لبنات أفكاره و جعلتها تصل إلى الآخر؟ ثمّ إلى أيّ مدى نجحت هذه السّمات الأسلوبيّة في إظهار خاصيّة نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس؟

1_ ابن باديس و عدول الأنا في رسائله:

غاية المبدع جذب المتلقّي و التّأثير فيه لكنّ ذلك لن يتأتّى له ما لم يثر ما أبدعه المتعة و يحقّق اللّذّة لدى متلقيه، و كلّ هذا و ذاك مرهون بامتلاك المبدع "سمات الفرديّة التي ينبغي للفنان المبدع أن يتّسم و يسمو بها، و التي فيها تكمن القوّة التي تجذب القارئ نحو إبداعه»[2].

---

[1] _ أحمد الشّايب: الأسلوب دراسة بلاغيّة تحليلية لأصول الأساليب الأدبيّة، ص127.

[2] _ أحمد محمّد ويس: "وظيفة الانزياح في منظور الدّراسات الأسلوبيّة". مجلّة علامات، الجزء الواحد

و العدول سمة من سمات الفرديّة التي تسهم "في لفت انتباه القارئ، و من ثمّة التّأثير فيه و إيصاله إلى الإمتاع و اللّذة و توصيل الرّسالة التي يريدها الخطاب"[1]، و من ذلك قدرته على تمكين الكاتب من اختيار "لما من شأنه أن يخرج العبارة من حيادها و ينقلها من درجتها الصّفر إلى خطاب يتميّز بنفسه"[2]، يثير في ذهن المخاطب الكوامن النّفسيّة و الفكريّة فينقلها "من معناها الحقيقي و دلالتها المعتادة المألوفة إلى معنى مجازي خارج عن المألوف"[3] صانعا المفاجأة و المتعة المرجوّة.

و صناعة المفاجأة تُبنى في الأساس على التّلاعب بمفردات اللّغة و تراكيبها و صورها؛ لذلك نجد أنّ من اتّسم أسلوبه بهذه الصّناعة تكون بنات أفكاره غنيّة قويّة و معانيها عميقة سخيّة، تستدعي من الماضي و الحاضر مادّتها و تستلهم من المادّي و المعنوي فحواها فـ"تولّد اللاّمنتظر من المنتظر"[4].

و لمّا كان عبد الحميد بن باديس من خيرة معاصريه فصاحة و أشدّهم بيانا

= و العشرون، المجلّد السّادس، جمادى الأولى 1417هـ/ سبتمبر 1996م، ص304.

[1]_ بخولة بن الدّين: "الانزياح الدّلالي و أثره في تطوّر اللّغة". مجلّة جسور المعرفة، الجزائر، المجلّد الثّاني، العدد السّابع، ص82.

[2]_ عبد السّلام المسدّي: الأسلوبيّة و الأسلوب، ص102.

[3]_ أحمد حمد فالح: "الانزياح الوظيفي و ملامحه في الحديث النّبوي الشّريف (رؤية جديدة في الدّراسة و التّحقيق)". العراق، مجلّة أبحاث البصرة، المجلّد الثّامن و الثّلاثون، العدد الثّالث، 2013م، ص53.

[4]_ عبد السّلام المسدّي: الأسلوبية و الأسلوب، ص 102.

كانت هذه الصّناعة مزيّة تتناثر هنا و هناك في بعض كتاباته، و هي و إن لم ترد بقوّة على مستوى التّراكيب _ على اعتبار أنّه كان يجنح للوضوح و البساطة أسلوبا _ إلاّ أنّ هذه المفاجأة كانت على مستوى المعاني؛ فالعدول كما يكون على مستوى التّركيب قد "يكون بشحنة دلاليّة خاصّة"[1] تعدل عن المألوف و تخرج عن السّياق المتواتر عليه عند المتلقّي.

و هذا العدول عن المألوف بشحنة دلاليّة خاصّة ورد كثيرا في رسائل عبد الحميد بن باديس، فالرّسائل كما هو معلوم تتميّز بالنّبرة الشّخصيّة في الطّرح، لكنها عند ابن باديس خرجت عن هذه المعلومة المتواترة لدينا و تنكّرت لها خدمة للمبادئ النّبيلة التي كان يؤمن بها و يعمل على نشرها، فلا بأس أن نضع اليد على بعض الدّلالات غير المألوفة في بعض رسائله.

ففي رسالة "**شكر عام للإحساس العام**" تآليف لفظيّة انحرفت دلالتها عن السّياق المتوقّع لها عند المتلقّي صانعة المفاجأة، و ذلك في قوله: "**إنّني أشكر الشّكر الجم الأمّة الجزائريّة جمعاء على ما أظهرته من العطف و الشّعور نحو شخصي...**"[2]، و كذلك في

---

[1] _ صلاح فضل: علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته. مصر، دار الشّروق، الطّبعة الأولى، 1419هـ/1998م، ص217.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، الجزء الخامس، ص510. نقلا عن الشّهاب العدد 76، جمادى الثّانية 1345هـ/ 22 ديسمبر 1926م.

قوله: «**إنّني ـو أيم اللهـ لأرى نفسي...**»[1]، فالمتأمّل لهاتين العبارتين سوف يلحظ أنّ الدّلالة المتواترة و الأغلب التي تتبع حديث شخص ذو مكانة اجتماعيّة مرموقة عن نفسه هي أن يُعظّم ذاته و يمدحها خاصّة إذا ورد هذا الحديث بصيغة المتكلّم (أنا).

شخصي ⟵ أنا نفسي ⟵ أنا

فالمستقبِل مهيّأ نفسيّا لدلالة معيّنة ارتسمت في ذهنه مسبقا عند سماع توليفة لفظيّة بصيغة المتكلّم المفرد، إلاّ أنّه اصطدم بدلالة غير متوقّعة تُنكر الذّات و تقلّل من شأنها و هذا ما نلاحظه عند تكملة الشّاهدين: «**على ما أظهرته من العطف و الشّعور نحو شخصي الضّعيف**»، «**لأرى نفسي أحقر و أقل من هذا الاعتناء**».

شخصي ⟵ أنا ⟵ الضّعيف (دلالة غير متوقّعة)

نفسي ⟵ أنا ⟵ أحقر و أقلّ (دلالة غير متوقّعة)

و يظهر عدول صيغة المتكلّم (أنا) عن ما كان متوقّعا لها في ذهن المتلقّي أيضا في الجزء الأخير من البيان الذي بعثه ابن باديس إلى مدير جريدة المنتقد، و الذي جاء تحت عنوان "**بيان لا لبس فيه إجابة لصوت الواجب**"، حيث قال فيه: «**و أنا الحقير كواحد ممن ينسبون إلى شيء من العلم**»[2]؛ فالذي يُلاحظ في هذا الشّاهد أنّ ابن باديس يعبّر عن رأيّه، و عادة من ملك علما و مكانة أو مالا و وجاهة أن يُتبع كلامه

[1] _ المرجع السّابق، الجزء الخامس، ص510.

[2] _ المرجع نفسه، ص41، نقلا عن المنتقد 23 صفر 1344هـ/ 24 سبتمبر 1925م.

المبتدأ بضمير المتكلّم (أنا) بالثّناء و المدح إلاّ أنّ ابن باديس يُفاجئنا بذمّ هذه الأنا ناعتا إيّاها بالحقيرة بل و حقارتها تزيد إذا نسبت هذه الأنا نفسها ليس إلى شيء مذموم بل إلى شيء رفيع ألا و هو ليس العلم بل إلى شيء من العلم، فما أرقاها من دلالة و ما أجمله من معنى عدلت إليه صيغة المتكلّم المفرد في هذا الشّاهد، فبعدما كانت (أنا) المتكلّم علامة لغويّة تنذر بدلالة التّعظيم و الافتخار و المدح أضحت في رسائل ابن باديس تحتفي بدلالة الذّم و التّقليل من شأن النّفس تواضعا و ليس انتقاصا، و هنا تكمن لحظة التّوتّر و المتعة في سمة العدول عن المألوف.

و ما يعزّز إحساسنا بهذه الدّلالة المنحرفة في رسائل عبد الحميد بن باديس هو احتفاظ صيغة المتكلّم المفرد بالدّلالة المتعارف عليها عند مستقبليها إذا ما أراد ابن باديس إظهار الافتخار لما يستحقّ الإعجاب و التّعظيم لغيره سواء كان رأيا أو شخصا، أو مبدأ، و عدول هذه الصيغة عن دلالتها المتواترة عند متلقيها إذا ما تحدّث ابن باديس عن نفسه أو عبّر عن رأيّه و تكلّم بلسانه، و هذا ما يظهر جليّا في "**رسالة بعثها ابن باديس لمدير جريدة البُتِي مَاتَان (Petit matain)**" و ذلك في قوله: «**سيدي _أنا_ كمسلم، أدين بالأخوة الإنسانية و احترمها في جميع أجناسها و أديانها**»[1]، فصيغة المتكلّم (أنا) في

[1]_ عبد الحميد بن باديس: «سيدي مدير البتي ماتان المحترم». قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، الجزء الخامس، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، جمادى الأولى 1356هـ/10 جليت 1937م، ص238.

هذا الشّاهد احتفظت بدلالتها المألوفة، فابن باديس يفتخر صراحة بالإسلام و تعاليمه، لكن سرعان ما ستعدل هذه الصّيغة عن دلالتها المتواترة لدينا إلى دلالة الضّعف و الاحتقار و الفناء إذا ما سوّلت له نفسه أن ينسب الافتخار و التّعظيم لذاته، و هذا ما يظهر في قوله في نفس الرّسالة: «**فشكرا لكم _ سيّدي_ بلسان هذا المبدأ السّامي و أهله ثم بلسان شخصي الضّعيف الفاني**»[1]، فالشّكر ذو قيمة إذا ما قدّمه بلسان من يستحق الافتخار به و هو بلا قيمة إذا كان سيفسح المجال لذاته أن تعتدّ بنفسها.

و في رسائل ابن باديس إشارات انحرفت عن الدّلالة المتوقّعة لدى المتلقّي و نقف على ذلك في الرّسالة التي جاءت تحت عنوان "**غرداية وادي ميزاب**" و ذلك في قوله: «**هذا العاجز _ كما يعلم النّاس كلّهم _ كان و لا زال من دعاة التّوحيد و الاتّحاد**»[2]، و كذلك في قوله في البيان الذي بعث به إلى مدير جريدة المنتقد بعنوان "**بيان لا لبس فيه إجابة لصوت الواجب**": «**و قد علمتم أنّ كثيرا ممن يقولون و لا يحققون نسبوا إلى هذا الحقير ما نشر في صحيفتكم بإمضاءات صريحة لكتاب علماء مشهورين**»[3]، و نجد هذه الإشارة المنحرفة عن دلالتها المتواترة عند المتلقي أيضا في

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «سيدي مدير البتي ماتان المحترم»، ص238.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: «غرداية وادي ميزاب». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الخامس، المجلّد السّادس، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، غرّة محرّم1349هـ/ جوان1930م، ص316.

[3] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، الجزء الخامس، ص36، نقلا عن المنتقد 23 صفر 1344هـ/ 24 سبتمبر 1925م.

رسالة "**شكر عام للإحساس العام**" في قوله: «**فهذا العاجز يكرر شكره بلسان الحقّ و الدّين لأهل هذا الشّعور الطّاهر الشّريف**»[1].

فهذه الإشارات «**هذا العاجز_ هذا الحقير_ هذا العاجز**» توحي لأوّل وهلة أنّ الذي يأتي بعدها بيان لهذا العجز أو الاحتقار لكنّنا نتفاجأ بدلالة تنفيه فمن هو من دعاة التّوحيد و الاتّحاد ليس بالعاجز بل هو قامة في مجاله، و من ينشر الصّحفيون باسمه ما كان لكتّاب مشهورين ليس بالحقير بل لمعرفتهم بغزارة علمه و سعة فهمه، و من تتهاطل عليه البرقيّات و الكتب للاطمئنان على سلامته من داخل الجزائر و خارجها ليس بالعاجز، و إنّما هو علاّمة ذاع صيت ما يدعو إليه بين من عرفه، فدلالة هذه الإشارات التي انحرفت عن سياقها المتواتر عليه خُلق على إثرها «توتّر ذبذبي بين لذّة التّقبّل و خيبة الانتظار»[2] صانعة متعة غير منتظرة لما ألف القارئ انتظاره مفصحة عن ابن باديس النّاكر لمكانته و لعلمه في سبيل عدم إرضاء حبّ العظمة و التّمجيد الموجودة في كلّ ذات.

*_ خلاصة ما سبق:

_ أنّ العدول في رسائل ابن باديس حضر على مستوى الدّلالة.

---

[1] _ المرجع السّابق، ص510. نقلا عن الشّهاب العدد 76، جمادى الثّانية 1345هـ/ 22 ديسمبر 1926م.

[2] _ عبد السّلام المسدّي: الأسلوبية و الأسلوب، ص 84.

_ عدلت رسائل ابن باديس عن النّبرة الشّخصيّة التي تتميّز بها كتابة الرّسائل بصفة عامّة.

_ ضمير المتكلّم المفرد (أنا) أضحى في رسائل ابن باديس يفيد دلالة الذّم و الضّعف و الاحتقار خارجا عن الدّلالة المألوفة له و هي دلالة المدح و الاستعلاء و التّكبّر.

_ برزت في رسائل ابن باديس إشارات لفظيّة انحرفت عن الدّلالة المتواترة عند المتلقّي.

2_ نكران الذّات و مستويات الأسلوب في خطب ابن باديس:

معلوم أنّ إتقان فنّ الخطابة تحكمه قواعد، و تعبّد طريقه الممارسة، و تذلّل صعابه الخبرة، لكنّ العنصر الجوهري لنجاح هذا الفنّ هو أن يشعر مستمعوه "بأنّ هناك رسالة تصدر مباشرة من عقل المتكلّم و قلبه إلى عقولهم هم و قلوبهم"[1]، و هذا ما يستوجب من المخاطِب أن يكون فاقدا ذاته، و أن يكون عضوا وسط الحشد الذي يخطب فيه، قد حبس أفكاره و تحسّس مشاعره، و ألمّ بانشغالاته و عاين تطلّعاته، فتقاسمها معه نبرات صوتيّة و حركات جسديّة و عبارات لفظيّة.

و لأنّ ابن باديس مشهود له من الأعداء قبل الأصدقاء على امتلاكه مقدرة

[1] _ ديل كارنيجي: التّأثير في الجماهير عن طريق الخطابة. ترجمة رمزي ياسى عزّت فهيم صالح، دار الفكر العربي، (د.ط)، (د.ت)، ص92.

خطابيّة عبّرت عن الشّعور الجزائري العام ما لم تمتلكه مقدرة خطابيّة أخرى نتيجة وضوح أفكاره و بساطة أسلوبه، فكان لزاما علينا أن نتقصّى تلك القسمات الأسلوبيّة المتناثرة في خطبه حتّى تتجلّى لنا أكثر مقدرته الخطابيّة على تجاوّز إظهار كل ما هو ذاتي في سبيل التّحدّث عن كلّ ما هو جمعي، و لعلّ من أبرز هذه السّمات ما بان على:

أ_ المستوى الصّوتي:

الخطابة فن إلقاء قبل أن يكون فنّ أوراق، تلعب فيه الأصوات الدّور البارز في كشف الانفعالات النّفسية و الجوانب الجماليّة التي تحكم صاحبها، و تدعم المعاني التي يطرحها ذلك «أنّ المادّة الصّوتيّة تكمن فيها إمكانيّات تعبيريّة هائلة، فالأصوات و توافقها، و ألعاب النّغم و الإيقاع، و الكثافة و الاستمرار، و التّكرار و الفواصل الصّامتة، كلّ هذا يتضمّن بمادّته طاقة تعبيريّة فذّة»[1] تجذب المتلقّي و تجعله أكثر انتباها و أشدّ إصغاء.

و عبد الحميد بن باديس خطيب ملك مقاليد الكلام، استطاع بصوته النّاري أن يحمّل منطوق خطبه دلالات أثارت انتباه العقل الجزائري، و شدّ وقع إلقائها آذانه، و كثيرا ما كثّف هذا المنطوق معاني الإيثار و حبّ الآخر و تعظيم اهتماماته، و عزّز معاني نبذ الأنانيّة و حب الذّات و تقزيم إنجازاتها. و من بين الظّواهر الصّوتيّة التي دعمت هذه القيّم نجد:

[1] _ صلاح فضل: علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته، ص27.

1_ التّنغيم:

يعتبر التّنغيم ظاهرة صوتيّة تلفّ الكلام أثناء النّطق فهو "الإطار الصّوتي الذي تقال به الجملة"[1]، ينشأ "عن ارتفاع الصّوت و انخفاضه في أثناء الكلام تبعا لحال الخطاب و مقتضاه"[2]، مانحا بذلك للرّسالة الصّوتيّة دلالة خفيّة تعبّر عن مشاعر ناقلها و حالته الذّهنيّة.

و لمّا كانت الخطابة فنّا منطوقا بالدّرجة الأولى فإنّ التّنغيم حضر فيه بقوّة، و هذا ما كان واضحا في خطب ابن باديس؛ إذ عبّر تغيير نطق بعض العبارات صعودا أو هبوطا عن المشاعر و الأحاسيس التي كانت تنتاب ابن باديس، فنجد أنّ نبرة الصّوت ترتفع في العبارات التي تتحدّث عن الآخر و إنجازاته (الشّعب الجزائري، الأصدقاء)، و تنخفض هذه النّبرة في العبارات التي تتحدّث عن ابن باديس، و هذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على أنّ الرّجل كان يستحي الحديث عن نفسه و إن دعت الضّرورة لهذا الحديث فهو يهمّشه وراء نبرة صوته المنخفضة، في حين نجده يزأر في الجموع لشحذ هممها، و الحديث عن اهتماماتها.

و قد خدم التّنغيم هذه الدّلالة في الخطبة التي جاءت تحت عنوان "**كلمة المحتفل**

---

[1] _ حسان تمّام: اللّغة العربيّة معناها و مبناها. المغرب، دار الثّقافة، (د.ط)، (د.ت)، ص226.

[2] _ آلاء داود الشّرع، دريد عبد الجليل الشّاروط: "ظاهرة التّنغيم في العربيّة". العراق، مجلّة القادسيّة، المجلّد الثّالث، العدد الأوّل، رمضان 1425هـ/ تشرين الأوّل 2004م، ص149.

به"، ففي معرض ثنائه و افتخاره باحتفاء الجزائريين بالقرآن الكريم من خلال احتفالهم بختمه لتفسيره كان تنغيم العبارات التي يثني فيها على المحتفلين به صاعدا تعلوه نبرة مرتفعة ملؤها الافتخار و الاعتزاز و التّعظيم كما في قوله: «**أيها الإخوان: أنتم ضيوف القرآن، و هذا اليوم يوم القرآن**»[1]، و قوله كذلك: «**فاجتماعكم على تنائي الدّيار و تباعد الأقطار هو في نفسه تنويه بفضل القرآن و دعوة جهيرة إلى القرآن**»[2]، و قوله أيضا في نفس الخطبة: «**إنّ أقوال خطبائكم و شعرائكم كلها في الحقيقة إشادة بيوم القرآن و وفود القرآن**»[3].

و في حين نجد أن تنغيم العبارات التي يتكلّم فيها ابن باديس عن نفسه في هذه الخطبة هابطا تعتريه نبرة منخفضة توحي بالتّقليل من شّأن النّفس و تّصغير صنيعها؛ و كأنّه لا يرى أنّه حقّق شيئا أمام ما حقّقه المحتفلون به، و يتجلّى ذلك في قوله: «**فهل علمتم أنّكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي**»[4]، و كذلك قوله: «**و كل ما لي من فضل في هذا فهو أنّي كنت السّبب فيه**»[5].

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به"، مجلّة الشّهاب. الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 288.

[2] _ المرجع نفسه، ص288.

[3] _ المرجع نفسه، ص288.

[4] _ المرجع نفسه، ص288.

[5] _ المرجع نفسه، ص288.

و قد بانت دلالة نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس في تنغيم بعض العبارات التي وردت في الخطاب الذي ألقاه في اجتماع جمعية العلماء المسلمين بالعاصمة بعنوان "**خطبتان لصاحب المجلة**"؛ حيث قلّل ابن باديس من قيمته الشّخصيّة ليرفع من قيمة أصحابه الرّوحيّة و الفكريّة إذ قال في تنغيم هابط: «**إخواني إنّني ما كنت أعدّ نفسي أهلاً للرئاسة لو كنت حاضراً يوم الاجتماع الأوّل فكيف تخطر لي بالبال و أنا غائب**»[1] ليردف كلامه هذا بعبارات يعلوها تنغيم صاعد يقول فيها: «**لكنّكم بتواضعكم و سلامة صدوركم و سمو أنظاركم جئتم باختلاف اعتقادي في الأمرين فانتخبتموني للرئاسة و أنا غائب**»[2].

كما أوحى التّنغيم بهذه الدّلالة أيضا في "**الخطبة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة**"؛ حيث أنّه في معرض شكره للقاعدة المنتخِبة لأعضاء المجلس الإداري أثنى على جهودها المبذولة و وعدها باستمرار أعضائها المنتخبين على العمل الدّؤوب في سبيل تحقيق أهداف الجمعيّة، و قد جاء هذا في تنغيم مرتفع و بلسان أعضاء المجلس و ليس بلسانه حيث قال: «**فيا أيّها الإخوان إنّني بلسان إخوانكم أعضاء المجلس الإداري لجمعيّتكم أقدم لكم الشّكر على ما بذلتموه في المجلس من ثقة،**

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، الجزء الرّابع، ص158.

[2] _ المرجع نفسه، ص158.

و بلسانهم أعدكم أنّهم يسيرون بالجمعيّة في مستقبلها كما ساروا بها في ماضيها»[1]، لنجد بعدها أنّ تنغيم الشّكر ينخفض لمّا يقدّم الشّكر بلسانه الخاص في قوله: « **ثم إنّ هذا العبد الضّعيف يقدم بلسان العجز الشّكر لأعضاء الإدارة إخوانه أن قدّموه للرّئاسة و جددوا له ثقتهم به»[2]**.

*_ و بالتّالي يمكن القول:

_ أنّ التّنغيم أفاد ابن باديس في كبح حبّ ذاته للظّهور و الإعجاب.

_ عبّر عن نفسه في خطبه من خلال التّنغيم بنبرة صوت منخفضة، في حين أنّه عبّر عن الآخر و إنجازاته بنبرة صوت مرتفعة.

2_ التّكرار:

يعدّ التّكرار أداة وظيفيّة مهمّة على اعتبار دوره الوظيفي في بناء النّص و تقريب عالمه و ذلك من خلال «الإتيان بعناصر متماثلة في مواضع مختلفة من العمل الفنّي»[3]، و التي توحي معاودة تكرارها على هيمنة حالة شعوريّة ما على فكر المبدع و وجدانه ذلك أنّ «القيّم الصّوتيّة لجرس الحروف أو الكلمات عند التّكرار لا تفارق القيمة الفكريّة

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «خطبة رئيس الجمعية التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة». مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، ص359.

[2] _ المرجع نفسه، ص359.

[3] _ مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة و الأدب. لبنان، مكتبة لبنان، الطّبعة الثّانية، 1984م، ص117.

و الشّعوريّة المعبّر عنها»[1] فما هي إلاّ منبّهات ظاهرة لما هو خفيّ وراء تكرارها.

و قد أبان تكرار بعض العبارات بلفظها أو بمعناها في خطب ابن باديس عن ردع ظاهر لكلّ ما هو ذو قيمة ذاتيّة و عن رغبة قويّة في التّعبير عن كل ما هو ذو قيمة جمعيّة، فما التّكرار في خطبه إلاّ انصياع لغوي لسلطة فكريّة و روحيّة يسلّم بها و يستسلم لها و مثال ذلك:

أ_ تكرار المعنى بلفظ بعينه أو بلفظ غيره:

كان لسطوة فكرة تهميش الذّات و نكران استعلائها إلحاح على مستوى المعنى فعبّر عبد الحميد بن باديس في خطبه عن هذا الإلحاح بلفظ بعينه أو بلفظ آخر يحمل نفس المعنى العام؛ إذ كان في المواقف التي يتحدّث فيها باسمه أو يبرز فيها آراءه الشّخصيّة يردّد ألفاظا تحمل معاني نبذ القيم الذّاتيّة (من حبّ للقوّة و السّلطة و التّجبّر) فاتحا المجال أمام سيطرة القيّم الجماعيّة على فكره و وجدانه من قبيل (حبّ التّواضع في المعاملات و التّشاوّر في أخذ القرارات).

ففي الخطاب الذي ألقاه في اجتماع جمعية العلماء المسلمين بالعاصمة بعنوان "**خطبتان لصاحب المجلة**" وردت كلمة "**الضّعيف**" في قوله: "**لم تنتخبوني لشخصي**

[1] _ علي السّيّد عز الدّين: التّكرير بين المثير و التّأثير. عالم الكتب، الطّبعة الثّانية، 1407هـ/ 1986م، ص84.

و إنّما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضّعيف هذا»[1]، كما وردت هذه الكلمة «**الضّعيف**» في "**خطبته التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة**" في قوله: «**ثمّ إنّ هذا العبد الضّعيف يقدم بلسان العجز الشّكر لأعضاء الإدارة**»[2]، و كذلك وردت في قوله في نفس الخطبة «**و أنّ هذا العبد الضّعيف لثقته في الله، و قوته بالله، و اعتزازه بقومه لمستعد لهذه الصّعداء**»[3]، و أيضا كرّر ابن باديس هذه الكلمة في خطبته "**كلمة المحتفل به**" في قوله: «**و أنّ الإنصاف...ليدعوني أن أذكر...كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتّى تأخذ حقّها مستوفى من كلّ ما أفرغتم على شخصي الضّعيف من ثناء و مدح**»[4].

و إلحاح نكران التّحدّث باسم الذّات عند عبد الحميد بن باديس، و تقزيم شأنها ورد من خلال استعمال لفظ آخر يحمل نفس المعنى العام لكلمة «**الضّعيف**» و هو لفظ «**الضئيل**» في قوله في الخطبة التي ألقاها في "**ذكرى الشّاعرين شوقي و حافظ**": «**أيّها الإخوان: باسمي الضّئيل و باسم الجزائر الكبير، و باسم جمعكم الكريم أرفع التّحيّات**

---

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الرّابع، ص159.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "خطبة رئيس الجمعية التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة". مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، ص360.

[3] _ المرجع نفسه، ص360.

[4] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 288.

الزكيّة للفقيدين الخالدين في مرقدهما»[1].

فهذه الألفاظ _ «**الضّعيف**» على اعتبار وّرودها أكثر من مرّة، «**الضّئيل**» _ على توافقها في اللّفظ أو اختلافها قد حملها عبد الحميد بن باديس زخما روحيّا و إنسانيّا و فكريّا و نفسيّا، يسلّم بمبدأ واحد، و يصبّ في معنى واحد، و هو أنّه لا مكان لتزكيّة الذّات و عبد الحميد بن باديس في معرض إبداء رأي أو تقديم شكر، و أنّه و إن كان بدّ من تزكيتها فهو أن تفتخر بأنّها ذات ضعيفة أمام ذات أعظم منها و أسمى منها و هي الذّات الجماعيّة.

ب_ تكرار المعنى بعبارات مختلفة:

لعلّه من المتّفق عليه أنّ المخاطِب يتوسّل بالتّكرار إلى استثارة المتلقي و لفت انتباهه لما يحاول أن يبثّه له لأنّ للتّكرار تلك «القابليّة على إنتاج الإيقاع الصّوتي الذي يجذب المتلقّي»[2] و يجعله واقعا تحت تأثير سلطته، لكنّ هذا لا يعني أنّ الخدمات التي يقدّمها التّكرار تقف عند حدّ إحداث إيقاع صوتي بالحروف أو الكلمات أو حتّى الجمل، بل يتعدّاها إلى أنّ التّكرار يضمن للمخاطِب مساحة واسعة حتّى يفصح عمّا بداخله، خاصّة إذا لازم هذا التّكرار تكرار المعاني فإنّ المساحة تكون أوسع و أفسح.

---

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر،، (د.ن)، (د.ط)، 2007م، الجزء الثّالث، ص80.

[2] _ طلال خليفة سلمان: «مستويات السّرد الوصفي القرآني _دراسة أسلوبيّة_». مجلّة تراث النّجف، العدد الثّاني، ذو القعدة 1434هـ، ص322.

و على هذا فإنّ التّكرار لا يكون دائما ناجما عن إشباع رغبة المخاطِب الفنيّة أو "النّكوص عن الحالة الإبداعيّة، أو نضوب قدراته الإبداعيّة بقدر ما يعنيه التّكرار من دخول عوالم رحبة تتّسع للرّؤى التي تكابد الرّوح الشّاعرة حملها و البوح بها"[1]، و بذلك يكون تكرار المعاني ملاذ من فضّل التّعبير عن حالته الفكريّة و الشّعوريّة من خلال تجاوّز الملفوظ الظّاهر إلى تكرار المضمون الباطن.

و تكرار المعاني على حساب إحداث الإيقاع الصّوتي حضر في خطب ابن باديس، و قدّم له مساحة رحبة للتّعبير عن قمعه لذاته، و قمع حبّها للظّهور و الاستعلاء من خلال تكرار عبارات و إن اختلف ملفوظها شكلا لكنّها اتّفقت في مضمونها؛ بأن تكشف لنا رفض ابن باديس تمجيد الإنجاز الفردي الذي ليس له أيّ حسّبة عنده أمام الإنجاز الجماعي الذي يحقّقه مع الآخر و بالآخر و للآخر.

و من العبارات التي أبرزت هذه الخاصيّة الأسلوبيّة في خطب ابن باديس عبارتان وردتا في خطبته "**كلمة المحتفل به**"؛ إذ يقول في إحداهما: "**فهل علمتم أنّكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي**"[2]، و قوله في

[1] _ عائشة أنور عمر: "فاعليّة التّكرار في النّص الشّعري الرّثائي _شعر الخنساء أنموذجا_". مجلّة آداب الفراهيدي، العدد الثّامن عشر، كانون الثّاني، 2014، ص131.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 288.

الأخرى: «**و كلّ ما لي من فضل في هذا فهو أنّني كنت السّبب فيه**»[1]، فعبد الحميد بن باديس بهاتين العبارتين يذكّر نفسه قبل الحاضرين أنّه لا يستحقّ كلّ هذا الاهتمام بشخصه بل الاهتمام كلّ الاهتمام و الفضل كلّ الفضل بالذي جعلهم يحتفلون به ألا و هو احتفاؤهم بالقرآن الكريم و بما يدعو إليه، و كأنّ ابن باديس بتكراره للمعنى ذاته **(أي عدم الاستحقاق)** يقول أنّه لا مجال لعبد الحميد و الإعجاب بالذّات و إنجازها الفردي و لا مجال للاعتداد بالنّفس و حبّها للتّفاخر و التّباهي.

و المضمون نفسه يتكرّر أيضا في خطبة أخرى لعبد الحميد بن باديس تحت عنوان "**خطبتان لصاحب المجلّة في اجتماع جمعيّة العلماء المسلمين بالعاصمة**"، لكنّه عبّر عنه بتوليفتين مختلفتين من الكلمات؛ إذ يقول في العبارة الأولى: «**أنّني ما كنت أعد نفسي أهلاً للرئاسة**»[2]، و يقول في الثّانية: «**لم تنتخبوني لشخصي**»[3]، فالرّجل ما يفتأ يذكّر نفسه على الرّغم من مكانته الفكريّة و الاجتماعيّة أنّ هذا الاعتبار الذي مني به ليس لابن باديس الحسب و النّسب بل لعبد الحميد الفكرة، خادم الجماعة لا عابد الذّات.

و بهذا يكون تكرار المعنى بأكثر من عبارة قد استوعب جزءا من إلحاح مبدأ نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس، و ضمن له مساحة معتبرة عمّا يخالجه.

---

[1] _ المرجع السّابق، ص288.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الرّابع، ص159.

[3] _ المرجع نفسه، ص159

ج_ تكرار جملة بعينها:

حبّ المبدع لذاته يوهمه أنّ كلّ نجاح هو من صنعه و إن حقّقه مع غيره، فهو مهووس بإرجاع الفضل لهذه الذّات في كلّ إنجاز فردي أو جماعي ما يفتأ يذكّر نفسه و غيره بما حقّقه، و هذا ما يجعله و يجعل إنجازه لا يحظى بأيّ تقدير من الآخرين لذلك لابدّ له من التّضحيّة بهذا الهوس، و أن يقبل بأن يكون «الضّريبة التي لابدّ من دفعها لكي يفتح الباب الذي يخرج الإنسان من العزلة إلى ائتلاف جديد مع النّاس»[1] يرفع من قيمته من خلال إنجازه و ليس العكس.

و التّضحيّة بهذا الهوس أمر مفروغ منه عند عبد الحميد بن باديس فحبّه لذاته منبوذ، و التّسليم لوهمها مرفوض، فهو ما يلبث يذكّر نفسه بجميل غيره عليه، و هذا ما نلمحه في بعض خطبه من خلال تكرار عبارة «**نعترف بالجميل**» التي وردت في "**خطابه الذي ألقاه في الاجتماع العام في مركز الجمعيّة بنادي التّرقي بالعاصمة**"؛ حيث قال: « **و إلى هذا فنحن نشكر و نعترف بالجميل لكل من يؤيّدنا**»[2]، و أيضا وردت هذه العبارة في "**التّقرير الأدبي الذي ألقاه في افتتاح اجتماع جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين**"؛ إذ قال: «**و كم كان يسرني _و أنا رجل مسلم طبعتني تربيتي الإسلاميّة على الاعتراف**

[1] _ إسماعيل عز الدّين: التّفسير النّفسي للأدب. مكتبة غريب، الطّبعة الرّابعة، (د.ت)، ص24.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: «خطاب رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعيّة بنادي التّرقي بالعاصمة». مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، ص357.

بالجميل_»[1].

و تكرّرت هذه العبارة كذلك في خطبته التي جاءت تحت عنوان "**خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس**" في قوله:«**و إلى هذا فنحن نشكر و نعترف بالجميل لكلّ من يؤيدنا في سيرنا نصرة للمظلوم و مقاومة و خدمة للإنسانيّة في جميع أجناسها**»[2]، و هذه الفقرة قد ذكرناها سلفا لكنّ ابن باديس جاء بها في هذا الخطاب أيضا و هذا ما يعزّز مقولة إنّما "يكرّر ما يثير اهتماما عنده، و هو في الوقت نفسه يحبّ أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه»[3]، و هذا ما وصلنا فعلا من خلال تكرار هذه العبارة؛ فموضوع عدم نكران الجميل قار في فكر ابن باديس و وجدانه.

و لإلحاح مبدأ الاعتراف بالجميل و عدم جحود فضل من كان لهم الفضل لما وصل إليه ابن باديس من مكانة اجتماعيّة و رجاحة فكريّة ألقى خطبة "**كلمة المحتفل به**"[4] و التي موضوعها الأوحد الاعتراف بالجميل.

و الخطبة و إن لم ترد فيها عبارة «**الاعتراف بالجميل**» لفظا إلاّ أنّها وردت في صياغة غاية في القوّة و حسن التّعبير في قوله مجملا: «**أنا رجل أشعر بكل ما له أثر**

---

[1]_ نوار جدواني: سجل جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، ص79.

[2]_ عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس". مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلدّ الثّالث عشر، ص360.

[3]_ علي السّيّد عز الدّين: التّكرير بين المثير و التّأثير، ص136.

[4]_ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص (288_291).

في حياتي، و بكل من له يد في تكويني، و أنّ الإنصاف الذي هو خير ما ربى امرؤ نفسه ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التّاريخي العظيم بالتّمجيد و التّكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني»[1]، ثمّ ورد هذا الاعتراف مفصّلا فيما تبقّى من الخطبة في قوله: «**إنّ الفضل يرجع أولا إلى والدي...**»[2]، «**ثم لمشايّخي...**»[3]، «**ثمّ لإخواني...**»[4]، «**ثم لهذه الأمّة الكريمة...**»[5]، «**ثم الفضل أولا و أخيرا لله و لكتابه...**»[6].

فابن باديس في هذه الخطبة من خلال التّكرار لم يتوان عن قمع حبّ النّفس للتّعظيم، و لم ينساق وراء شغفها للتّمدّح و الثّناء «فهو لا تقوده رغبة تمجيد ذاته»[7]، و إنّما تعتريه نشوة تمجيد غيره، و هذا ما نلمسه في هذه الخطبة من خلال قوله:«**فلعليّ إذا ذكرت هذه العناصر و وفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التّنويه، و تقاضت حقوقها من الثّناء الذي أثقلتم به على كاهلي. فأكون بذلك قد أرضيت ضميري و خفّفت عن نفسي**»[8].

---

[1] _ المرجع السّابق، ص288.

[2] _ المرجع نفسه، ص289.

[3] _ المرجع نفسه، ص289.

[4] _ المرجع نفسه، ص290.

[5] _ المرجع نفسه، ص290.

[6] _ المرجع نفسه، ص290.

[7] _ إسماعيل عز الدّين: التّفسير النّفسي للأدب، ص24.

[8] _ عبد الحميد بن باديس: «كلمة المحتفل به». مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص288، 289.

و بالتّالي فالاعتراف بالجميل في نظر ابن باديس من الواجبات الأخلاقيّة و المقتضيات النّفسيّة التي تشعر المرء بالرّاحة و الاطمئنان، لذلك كان تكرار هذه العبارة بمثابة التّنفيس عن هذا الواجب المبدأ الذي يسلّم به.

*_ مجمل القول ما يأتي:

_ تنوّع التّكرار في خطب ابن باديس فمنه ما كان باللّفظ، و منه ما كان بالمعنى، و منه ما كان بالجملة.

_ خدم التّكرار ابن باديس في التّنفيس عن إلحاح دلالة نكران الذّات.

ب_ المستوى الدّلالي:

من عوامل نجاح أيّ نصّ هو حسن اختيار مبدعه لألفاظ تظهر ما في نفسه من حقائق و أَخْيِلَة قادرة على أن توقظ في ذهن المتلقّي "صورة ما بهيجة أو حزينة رضيّة أو كريهة، كبيرة أو صغيرة، معجبة أو مضحكة"[1]، تستدعي بتوظيفها مستقلّة عن المعنى الذي تعبّر عنه أو داخل السّياق الذي ترد فيه الدّلالات الظّاهرة و الخفيّة؛ ذلك أنّ قيمة النّصّ تكمن "فيما تحدثه إشاراته من أثر في نفس المتلقّي، و ليس فيما تحمله الكلمات من معان مجتلبة من تجارب سابقة أو دلالات مستعارة من المعاجم"[2]، لذلك كانت وظيفة

[1]_ إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ. مصر، مكتبة الأنجلو مصرية، الطّبعة الخامسة، 1984م، ص78.

[2]_ عبد الله محمّد الغذّامي: تشريح النّص. بيروت لبنان، دار الطّليعة، الطّبعة الأولى، 1987م، ص12، 13.

وظيفة المبدع أن ينقل كلمات نصّه من "وسطها القاموسي الجامد إلى وسط حيوي"[1] أكثر إيحاء و أبعد أفقا.

و في خطب ابن باديس ألفاظ على بساطتها نجحت بوظيفتها في السّياق الذي وردت فيه بأن تعطي لمعناها المعجمي أبعادا دلاليّة ساعدت في فهم الظّاهر من موضوعات خطاباته و استظهار الخفيّ فيها لكنّنا سنختار منها ما يظهر نكران ابن باديس لذاته و ينمّي إحساسنا بذلك؛ ذلك أنّ الألفاظ المزمع دراستها لابدّ أن تكون منتقاة "من كلمات يرى الدّارس أنّها مفاتيح النّصّ أو محورها الذي يدور حولها"[2].

و على ذلك فقد صنّفنا الحقل اللّفظي الذي استنطق ميزة نكران الذّات في نصوص ابن باديس إلى حقلين، حقل نكران الذّات و ذمّها، و هو حقل كلمه قليل على اعتبار أنّ ابن باديس قليل الحديث عن نفسه، و حقل الإشادة بالآخر و مدحه و هو حقل غزير اللّفظ على اعتبار كثرة اهتمامات ابن باديس العامّة، و هذا الحقل الأخير حقل مهمّ خدم كثيرا نصوص ابن باديس الخطابيّة في بيان ميزة نكران الذّات لأنّ الشيء يعرف بضدّه.

---

[1] _ بكّاي أخداري: تحليل الخطاب الشّعري (قراءة أسلوبيّة في قصيدة قذى بعينك للخنساء). الجزائر، وزارة الثّقافة الجزائريّة، (د.ط)، 2007م، ص109.

[2] _ محمّد مفتاح: تحليل الخطاب الشّعري، استرتيجيّة التّناص. المغرب، المركز الثّقافي العربي، الطّبعة الثّانية، 1986م، ص58.

1_ الحقل الأوّل: حقل ذّم الذّات

هو حقل صرفي محض استطاع بطبيعته على التّلاعب في صناعة المعنى أن يضيء لنا ميزة نكران الذّات في نصوص ابن باديس الخطابيّة، و يقرّبنا إلى ما ارتسم في ذهنه و ذلك لما يمنحه هذا الحقل للألفاظ من مرونة في الدّلالة و الإيحاء بمجرّد التّغيير في تركيبها الأصلي أو الزّيادة عليه أو لما يحدثه وقعها في الأذن من تفاعل معها.

و قد لاحظنا أنّ صيغة الصّفة المشبّهة باسم الفاعل طغت على هذا المعجم الصّرفي كسمة أسلوبيّة بارزة في خطب ابن باديس، فلا بأس أن نقف عند الأبعاد الدّلاليّة التي تمنحها هذه الصّيغة للألفاظ مستقلّة عن المعنى أو داخل السّياق الذي وردت فيه.

_ صيغة الصّفة المشبّهة باسم الفاعل:

إنّ الصّفة المشبّهة باسم الفاعل هي «الصّفة المصوّغة لغير تفضيل لإفادة الثّبوت كحسن، ظريف، و طاهر، و ضامر»[1]، و قد وردت هذه الصّيغة مكرّرة بنفس اللّفظ «**الضّعيف**» عل وزن "**فَعِيْل**" في خطب مختلفة لابن باديس في العبارات التّاليّة في قوله في "**خطبتان لصاحب المجلة في اجتماع جمعيّة العلماء بالعاصمة**": «**لم تنتخبوني لشخصي و إنّما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضّعيف**

[1] _ جمال الدّين بن هشام الأنصاري: شرح قطر النّدى و بلّ الصّدى. تحقيق بركات يوسف هبّور، لبنان، الطّبعة الأولى، 1418هـ/1997م، ص370.

هذا»[1]، و كذلك في قوله في "**خطبة رئيس الجمعيّة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة**": «**ثمّ إنّ هذا العبد الضّعيف يقدم بلسان العجز الشّكر لأعضاء الإدارة إخوانه أن قدّموه للرّئاسة...**»[2]، و قوله أيضا في الخطبة نفسها : «**و أنّ هذا العبد الضّعيف لثقته في الله، و قوّته بالله، و اعتزازه بقومه و اعتماده بعد الله على إخوانه، لمستعد لهذه الصّعداء**»[3]، و جاءت هذه الصّيغة باللّفظ نفسه على الوزن نفسه في قوله في خطبته "**كلمة المحتفل به**": «**أنّ الإنصاف الذي هو خير ما ربي عليه امرؤ نفسه _ ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التّاريخي العظيم بالتّمجيد و التّكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتّى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضّعيف من ثناء و مدح بالقول و الفعل**»[4].

و وردت هذه الصّيغة على الوزن نفسه "**فَعِيْل**" لكن بلفظ مختلف ألا و هو «**الضّئيل**» في قوله في خطبته التي جاءت معنونة ب "**ذكرى الشّاعرين شوقي و حافظ**": «**باسمي الضّئيل، و باسم الجزائر الكبير، و باسم جمعكم الكريم، أرفع التّحيّات الزكيّة**

---

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الرّابع، ص159.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: «خطبة رئيس الجمعيّة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة». مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، ص360.

[3] _ المرجع نفسه، ص360.

[4] _ عبد الحميد بن باديس: «كلمة المحتفل به». مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 288.

للفقيدين الخالدين في مرقدهما»[1].

و بما أنّ الصّفة المشبّهة صفة لازمة و ثابتة و ليست صفة طارئة فقد أراد ابن باديس أن يؤكّد من خلال طبيعتها هذه على حقيقتين لا تقبلان الطّعن في صدق إحساسه و إحساسنا بهما؛ أمّا الحقيقة الأولى فقد ظهرت في الدّلالة التي أوحت بها كلمة «**الضّعيف**»، فالضّعف موجود في كلّ ذات، فإمّا يكون ضعفا جسديّا أو معنويّا و هو عيب في الأمرين، و غالبا لا يصرّح المرء به، لكنّ ابن باديس جهر بضعفه لأنّه في نظره ليس مدعاة للخجل بل هو منبع قوّته، فقوّة العبد في رأيّه تُستمدّ من رضوخه لربه و ليس ركوعا أمام أهواء ذاته.

و كأنّ ابن باديس أراد من خلال هذه الحقيقة أن يقول لذاته أنّك أمام كلّ هذا التّكليف الذي منيت به، و هذا المدح الذي حظيت به ستبقين نفسا ضعيفة أمام قدرة أعظم منك فلا الرّئاسة ترفعك، و لا التّكريم ينفعك، فاخضعي لذات أعظم منك و أعلى منك و هي الذّات الإلهيّة و ما تأمر به من ضعف و ذلّ أمامها، فتواضعي و لا تغتري، فالضّعف فيك مهما بلغت من القوّة عتيّا.

أمّا الحقيقة الثّانية فقد بانت من خلال الدّلالة التي أوحت بها كلمة «**الضّئيل**»، و هي أنّ المرء منفردا مهما بلغ من المكانة الفكريّة أو الاجتماعيّة أو السّياسيّة فإنّ ما

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الثّالث، ص80.

يقدّمه سواء كان خدمة أو معروفا أو حتّى تحيّة _ كما في خطبة ابن باديس التي يشتمل عليها الشّاهد_ سيبقى قليلا و صغيرا كمّا و كيفا أمام ما قدّم مجتمعا ضمن جمعيّة مثلا تشتهر ببلوغ صيت مفكّريها مداه من النّباهة و الوجاهة و العلم، أو كان هذا الذي يقدّم نيابة عن وطن بكامله فإنّ ذلك التّقديم سيضلّ ضئيلا، فأراد ابن باديس بهذه الصّفة أن يذكّر نفسه أنّه مهما فعل سيبقى اسمه صغيرا أمام اسم الجزائر و علماء الجزائر فلا داعي للتّباهى و التّفاخر.

*_ و بهذا نلاحظ كيف أنّ صفة الثّبات في صيغة الصّفة المشبّهة باسم الفاعل كرّست ولاء ابن باديس لميزة نكران الذّات في خطبه و حرصه على لزومها قولا و فعلا.

2_ الحقل الثّاني: حقل مدح الآخر

هو حقل برزت فيه دلالتان الدّلالة النّحويّة و الدّلالة المعجميّة؛ أما الدّلالة المعجميّة فهي الدّلالة التي تسيطر فيها الألفاظ بدلالتها الاجتماعيّة أو المتعارف عليها في النّصوص محتلّة "بؤرة الشّعور لأنّها الهدف الأساسي في كلّ الكلام"[1]، و متلقيها لا يلقى صعوبة في فهمها لأنّ دلالتها أصبحت بمثابة العادات الكلاميّة، و هنا يكمن السّر وراء توظيف ابن باديس لهذا النّوع من الألفاظ لأنّه ينشد الوّضوح و القصد سبيلا في كتاباته، و حتّى نبرز سطوة هذا المعجم على نصوص ابن باديس الخطابيّة لا بأس أن

[1] _ إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص49.

نقف فيما يأتي على الألفاظ التي شكّلت في نظرنا زخما دلاليّا صريحا يشيد بالآخر و يمدحه.

و قبل أن نشرع في بيان هذه الألفاظ لا بدّ أن ننوّه أنّ هذه الألفاظ موجودة في الكثير من خطب ابن باديس لذلك سنذكر مواضع تواجد بعضها على سبيل التّمثيل لا الحصر، و قد صنّفنا دلالتها في الجدول التّالي كما يلي:

اللّفظ	دلالة صريحة أولى	دلالة صريحة ثانيّة
_ الشّكر _ الفضل _ الجميل _ التّحيّة	_ لا يكْفُر معروف من قدّم خدمة و أحسن صنعا.	_ الاعتراف للذين يُقدّم لهم الشّكر أو التّحيّة، أو يعود لهم الفضل و الجميل بأنّ ما يُنجز ليس من صنع ابن باديس و إنّما هو في الحقيقة من تضافر جهودهم و تفانيهم في خدمة وطنهم و أبناء شعبهم، و هنا تكمن دلالة المدح و الإشادة في هذا المعجم.

و حتّى نستشفّ هاتين الدّلالتين أكثر في خطب ابن باديس لا بأس أن نقف عند بعض الشّواهد، و من ذلك قوله في "**الخطاب الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز**

الجمعيّة بنادي التّرقي بالعاصمة": «**و إلى هذا فنحن نشكر و نعترف بالجميل لكلّ من يؤيدنا في سيرنا نصرة للمظلوم و مقاومة للجبروت، و خدمة للإنسانيّة في جميع أجناسها**»[1]، ففي هذا الشّاهد نلاحظ أنّ ابن باديس يشكر بوضوح و يعترف صراحة بجميل كلّ من يسانده في جهاده، و هذه دلالة صريحة أولى، أمّا الدّلالة الصّريحة الثّانية أنّه لو لم يكن هذا الذي يتبعه في الطّريق نفسه ناصرا للمظلوم و مقاوما للجبروت و خادما للإنسانيّة لما أيّد ابن باديس و الجمعيّة فيما تدعو إليه و في هذا الشّكر و الاعتراف إشادة واضحة للآخر.

و نلمس مدح الآخر أيضا في الدّلالة التي أوحت بها التّحيّة و الشّكر اللّذان توجّه بهما ابن باديس للملبين لدعوة الجمعيّة في "**الخطاب الذي ألقي في صباح اليوم الأوّل من أيام اجتماع الجمعيّة**": «**أرحب بكم أيّها الإخوان و أحيّ وفودكم الكريمة، و أشكر لكم ما تحمّلتم من تعب و أنفقتم من مال حتّى حضرتم هذا الاجتماع**»[2]، فدلالة عدم نكران معروف حضور المدعوّين ظاهرة لا يختلف اثنان في استيعابها، أمّا دلالة المدح التي بانت من خلال دلالة عدم نكران المعروف فمفادها أنّه لو لم يكن هؤلاء

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «خطاب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي ألقاه في الاجتماع العام بمركز الجمعية بنادي الترقي بالعاصمة». مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، ص357.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الرّابع، ص175.

الحضور من ذوي الأفكار السّاميّة و الأنظار البعيدة لما كلّفوا أنفسهم عناء التّعب و عبء إنفاق المال لحضور اجتماع الجمعيّة.

و ليس من العسير أن نقف على ثناء ابن باديس على الآخر في خطابه "**خطبتان لصاحب المجلة في اجتماع جمعيّة العلماء المسلمين بالعاصمة**"، حيث قال في جزء من إحداهما: «...**و أقدم الشّكر إلى أهل العاصمة أجمعين الذين أحسنوا وفادة الجمعيّة و أكرموا ضيافتها، فبرهنوا على أنّهم أهل لأن تكون العاصمة بهم رأس القطر و قلبه...**»[1]، فنلاحظ هنا أنّه حمّل شكره المباشر لأهل الجزائر ثناء على حسن وفادتهم و كرم ضيافتهم و هذا الثّناء ليس لأنّ معروفهم مقدّم للجمعيّة بل لأنّه طبع من طباعهم و خصلة من خصالهم.

و لعل من أبرز الشّواهد التي تزكّي حقل الإشادة بالآخر و مدحه هو ما صرّح به ابن باديس في حقّ والده في قوله في الخطبة التي جاءت تحت عنوان "**كلمة المحتفل به**": «**إنّ الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة و وجهني وجّهة صالحة، و رضي لي العلم طريقة أتّبعها و مشربا أرده...**»[2]؛ ففي هذا الجزء من هذه الخطبة يعترف ابن باديس بفضل والده في تربيته الصّالحة و توجيهه السّليم، و هذا

[1] _ المرجع السّابق، ص155.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 289.

الاعتراف الصّريح بالفضل يحيلنا مباشرة للقول أنّه لو لم يكن والد ابن باديس صالحا و محبّا للعلم لما وصل ابن باديس بفضل الله إلى ما وصل إليه، و في هذا إشادة و مدح صريح لوالده.

أمّا الدّلالة النّحويّة فهي التي تتّضح فيها المعاني من خلال العلاقات النّحويّة في التّركيب "فهنا إذن جانبان أحدهما مادّي مسموع أو مرئي، و الآخر إدراكي معنوي، و كلا الجانبين يؤثّر في الآخر و يتأثّر به"[1]، و يعملان معا على إيصال الكلام منطوقه أو مكتوبه في أدقّ و أحسن صورة.

و قد مكّنت هذه الدّلالة عبد الحميد بن باديس من إيصال ما يخالجه إلى سامعي خطبه أو قارئيها من خلال توظيف أدواتها اللّغويّة و ما ترمي إليه في ذهن متلقيها و من ذلك استعماله ضمير جمع المخاطب الذي أضفى على بعض خطبه هالة إنسانيّة تعجز أيّ إنيّة مزاحمتها أو الطّغيان عليها؛ لذلك لا ضير أن نعرّج على ماهيّة الضّمير؟ و ما الدّلالة التي أوحى بها توظيف ابن باديس لضمير جمع المخاطب في خطبه؟

_ الضّمير:

"هو اسم جامد يدلّ على غائب و غائبة، و مخاطب و مخاطبة و متكلّم"[2]،

---

[1] _ محمّد عبد اللّطيف حماسة: النّحو و الدّلالة (مدخل لدراسة المعنى النّحوي _ الدّلالي). مصر، لبنان، دار الشّروق، الطّبعة الأولى، 1420هـ/2000م، ص39.

[2] _ عزيزة فوّال بابتي: المعجم المفصّل في النّحو العربي. بيروت لبنان ، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، 1413هـ/1992م، ص584.

و الضّمير بمعنى مضمر"من أضمرته إذا أخفيته و سترته"[1]، يصرّح توظيفه بدلالات ظاهرة و خفيّة تثري النّصوص الأدبيّة، و تنمّ عن وعيّ موظّفه بإيحاءات توظيفه.

و قد شكّل ضمير جمع المخاطب في خطب ابن باديس زخما دلاليّا صريحا يشيد بالآخر و يمدحه، و يستثني ابن باديس من أيّ إطراء أو ثناء قد يخالج ذاته، و هذا ما بدا واضحا في جزء من خطابه المعنون تحت اسم "**خطاب الرّئيس في الاجتماع العام لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي التّرقي صبيحة يوم السّبت 29 رجب**" حيث قال: "...**أما بعد، فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين، و سلام على مساجينكم في المساجين، و سلام على متهميكم في المتّهمين، و سلام على منكوبيكم في المنكوبين...**"[2].

فقد أوحى ضمير جمع المخاطب (**أنتم**) بعدم أحقيّة ابن باديس للاعتزاز و التّشرّف بالمساجين و المتّهمين و المنكوبين و أحقّيتها لأعضاء الجمعيّة، ليس انتقاصا من أولائك أو هؤلاء، و إنّما افتخارا و اعتزازا بهم و بتضحياتهم، و استصغارا و احتقارا لتضحياته أو لذاته أن تنسب نفسها لهذا الشّرف؛ و إلاّ لما لم يأت كلامه بضمير جمع

---

[1] _ حسين منصور الشّيخ: الإعراب المحلّي للمفردات النّحويّة. بيروت لبنان، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، الطّبعة الأولى، 2009م، ص115.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس في الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي التّرقي صبيحة يوم السبت 29 رجب". مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الرّابع عشر، ص100.

المتكلّم (نحن)؟، فيقول: «**سلام على مساجيننا...، سلام على متّهمينا...، سلام على منكوبينا..**»، أ ليس هو رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين و أحد أعضائها؟ أ ليس ما يجلب الشّرف و الافتخار لهم يجلبه له هو أيضا؟، لكنّ ابن باديس لا يصغي لتطلّعات شخصيّة ترضي ذاته بقدر ما يصغي لتطلّعات ترضي غيره.

و يزداد رسوخ دلالة الإشادة بالآخر و مدحه التي أوحى بها توظيف ضمير جمع المخاطب (**أنتم**) في خطب ابن باديس في: "**خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس**" الذي يقول في بعض من أجزائه: «**حوربت فيكم العربيّة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها و مسخ منكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها...**»[1]، و يضيف قائلا: «**حورب فيكم الإسلام حتّى ظنّ أنّ قد طمست أمامكم معالمه، و انتزعت منكم عقائده و مكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التّوحيد...**»[2]، و يقول أيضا: «**و حورب فيكم العلم حتّى ظنّ أن قد رضيتم بالجهالة و أخلدتم للنذالة...فجئت بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا و تشيدون له صرحا سامقا...**»[3]، و أيضا يقول في نفس الخطبة: «**و حوربت فيكم الفضيلة فسئتم الخسف و ديثتم بالصّغار، حتّى ظنّ أنّ قد زالت منكم المروءة و النّجدة...فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذلّ، و تهزهزون أسس**

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس». مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلدّ الثّالث عشر، ص357.

[2] _ المرجع نفسه، ص357.

[3] _ المرجع نفسه، ص357، 358.

الظلم...»[1].

فعبد الحميد بن باديس من خلال التّحدّث بضمير جمع المخاطب **(أنتم)** يستثني نفسه من المحاربة من أجل إحياء العربيّة و الإسلام و من أجل إعلاء راية العلم و الفضيلة اعترافا بجهود أعضاء الجمعيّة و ثناء عليهم، و في الوقت نفسه تذكير لنفسه بجهود غيره حتّى يتواضع و لا يتعالى.

*_ مجمل ما سبق أنّ الدّلالة المعجميّة لبعض الألفاظ (الشّكر، الفضل...) و الدّلالة النّحويّة لضمير جمع المخاطب (أنتم) استطاعتا أن تشكّلا زخما دلاليّا صريحا يشيد بالآخر و يمدحه.

ج_ المستوى التّركيبي:

إنّ تأليف المعاني و تناسق الدّلالات مرهون بتأليف "الحروف بأصواتها و حركاتها و انضمامها لحروف أخرى و انضمام الحروف في الكلمات و الكلمات في أنساق»[2]، فلا يمكن أن تستقيم المعاني ما لم يستقم تركيبها اللّغوي لذلك فإنّ نظم الكلام و تأليفه تأليفا متماسكا باب مهمّ للوّلوج إلى عالم النص و فتح مكنوناته.

---

[1] _ المرجع السّابق، ص358.

[2] _ صالح بلعيد: التّراكيب النّحويّة و سياقاتها المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني. ديوان المطبوعات الجامعيّة، (د.ط)، 1994م، ص102.

و قد أضاءت تآليف لغويّة في بعض خطب ابن باديس دلالة نكران الذّات عنده، و عكست مدى طغيان هذه الدّلالة على فكره و وجدانه، حتّى نطقت بها خطاباته نظما ظاهرا و معنى متخفّيّا، و من تلك التّراكيب اللّغويّة نجد:

1_ الجمل الاسميّة و الفعليّة:

ذهب ابن جنّي في تعريفه للكلام (الجملة) قائلا: «أمّا الكلام فكلّ لفظ مستقلّ بنفسه، مفيد لمعناه، و هو الذي يسمّيه النّحويّون الجمل نحو زيد أخوك و قام زيد و صه و مه»[1]، و تتعدّد طرائق صياغة الجمل و التّلاعب بعناصرها بحسب البنية الدّلاليّة و البنية النّحويّة المتحكّمة فيها.

و الجمل في أجزاء خطب ابن باديس التي سننكبّ عليها بالدّراسة و التّحليل قد تنوّعت بين الجمل الفعليّة و الاسميّة و إن طغت الجمل الاسميّة على مجملها، و حتّى يتسنّى لنا الوّقوف على هذا التّنوّع، و دلالات تفوّق جمل على أخرى، لا بأس أن نستحضر أجزاء الخطب الثّلاث المراد العمل عليها؛ حيث يقول ابن باديس في جزء الخطبة الأولى و التي جاءت تحت عنوان "**خطبتان لصاحب المجلة في اجتماع جمعيّة العلماء المسلمين بالعاصمة**": «...**إخواني أنّني ما كنت أعدّ نفسي أهلاً للرّئاسة لو كنت حاضرا يوم الاجتماع الأوّل فكيف تخطر لي بالبال و أنا غائب، لكنّكم بتواضعكم**

[1] _ عثمان أبو الفتح بن جنّي: الخصائص. تحقيق محمّد علي النّجار، مصر، مطبعة الهلال، الطّبعة الثّانية، 1331هـ/1913م، الجزء الأوّل، ص17.

و سلامة صدوركم و سمو أنظاركم جئتم بخلاف اعتقادي في الأمرين فانتخبتموني للرّئاسة و أنا غائب، إخواني إنّني كنت أعد نفسي ملكًا للجزائر، أما اليوم فقد زدتم في عنقي ملكيّة أخرى فالله أسأل أن يقدّرني على القيام بالحق الواجب، إخواني إنّني أراكم في عملكم و استقامة تفكيركم، لم تنتخبوني لشخصي و إنّما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضّعيف هذا...»[1].

و يقول في جزء الخطبة الثّانية و التي جاءت بعنوان "**كلمة المحتفل به**": «**...أيّها الإخوان: أنتم ضيوف القرآن، و هذا اليوم يوم القرآن، و ما أنا إلاّ خادم القرآن. فاجتماعكم على تنائي الديار و تباعد الأقطار هو في نفسه تنويه بفضل القرآن و دعوة جهيرة إلى القرآن في وقت نحن أحوج ما تكون إلى دعوة المسلمين إلى قرآنهم، فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهوانها ما سميتموه احتفالا بشخصي...»[2].**

أمّا في جزء الخطبة الثّالثة و التي هي"**خطبة رئيس الجمعيّة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة**" **يقول:** «**...ثمّ إنّ هذا العبد الضّعيف يقدم بلسان العجز الشّكر لأعضاء الإدارة إخوانه أنّ قدّموه للرّئاسة و جددوا له ثقتهم به هذا مع**

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الرّابع، ص159.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 288.

علمه بعبء الرّئاسة الثّقيل و ما يلزم لها من التّضحيّة التي هي أول شروط الرّئاسة.

و لقد قال الهذلي:

فَإِنَّ رِئَاسَةَ الأَقْوَامِ فَاعْلَم لَهَا صُعْدَاءُ مَطْلَعُهَا طَوِيلٌ

و أنّ هذا العبد الضّعيف لثقته في الله، و قوته بالله، و اعتزازه بقومه، و اعتماده بعد الله على إخوانه، لمستعد لهذه الصعداء و إن طال مطلعها و طال...»[1].

فما يلفت انتباهك و أنت تقرأ هذه الأجزاء الثّلاثة من هذه الخطب أنّ باديس استعمل فيها الجمل الاسميّة لإقرار ما هو ثابت عنده؛ ذلك أنّ الإخبار بالجمل الاسميّة أو الاسم «يقتضي ثبوت الصّفة و حصولها من غير أن تكون هناك مزاولة»[2]، فكان توظيفها إمّا حتّى لا يزكّي نفسه و لا يغدقها بالإطراء (نكران الذّات) كما في قوله في جزء الخطبة الأولى: «**إخواني إنّني ما كنت أعدّ نفسي أهلاً للرّئاسة**»، «**فكيف تخطر لي بالبال و أنا غائب**»، و قوله في جزء الخطبة الثّانية: «**و ما إنّا إلاّ خادم القرآن**»، «**و كلّ ما لي من فضل في هذا فهو أنّني كنت السّبب فيه**»، و قوله في جزء الخطبة الثّالثة: «**إنّ هذا العبد الضّعيف**».

و إمّا استعمل الجمل الاسميّة للثّناء على رفقائه و على ما قدّموه (إشادة

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «خطبة رئيس الجمعيّة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة». مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، ص360.

[2] _ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني. تقديم ياسين الأيّوبي، صيدا لبنان، المكتبة العصريّة، الطّبعة الأولى، 1421هـ/2000م، ص201.

بالآخر)، كما في قوله في الخطبة الأولى: «**لكنّكم بتواضعكم و سلامة صدوركم و سمو أنظاركم**»، «**إخواني إنّني أراكم في عملكم و استقامة تفكيركم لم تنتخبوني لشخصي**»، و قوله في الخطبة الثّانية: «**أنتم ضيوف القرآن**»، «**فاجتماعكم على تنائي الدّيار و تباعد الأقطار هو تنويه بفضل القرآن**»، و قوله في الخطبة الثّالثة: «**و اعتزازه بقومه**»، «**و أنّ لحصول الثّقة منكم للذّة أعظم من كلّ لذّة**».

بينما استعمل الجمل الفعليّة ليعبّر عن آرائه الشّخصيّة المتغيّرة؛ ذلك أنّ الإخبار بالفعل «يقتضي مزاولة و تجدّد الصّفة في الوقت»[1]، ففي الخطبة الأولى مثلا قال: «**كنت أعدّ نفسي ملكًا للجزائر**»، «**أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضّعيف هذا**»، و قال في الخطبة الثّانية: «**قمتم بواجبات أهونها ما سمّيتموه احتفالا بشخصي**»، «**كنت السّبب فيه**»، أمّا في الخطبة الثّالثة فقال: «**يقدم بلسان العجز الشّكر**»، «**أن قدموه للرّئاسة**»، و قد جاءت هذه الجمل قليلة كما قلنا سابقا مقارنة بالجمل الاسميّة لأنّ ابن باديس لا تهمّه مواقفه الذّاتيّة المتغيّرة بقدر ما تهمّه مواقفه الإنسانيّة الثّابتة.

فالمواقف و الآراء التي تحتمل اليوم التّصريح بها و غدا أو بعد غد الرّجوع عنها؛ كرأيّه في نفسه أو رأيّ غيره فيه فقد أخبر عنها بالجمل الفعليّة، لأنّها قد تتغيّر في أيّ وقت أو عند أيّ مستجدّ، لذلك فهو لا يبالي بها بقدر مبالاته بتلك المواقف الثّابتة.

[1] _ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص201.

و كما هو ظاهر هذه الأجزاء من الخطب شواهد إخباريّة صريحة على مواقف ابن باديس الثّابتة، حضر الإثبات فيها بقوّة من خلال استعماله: **(إنّ، لام التّوكيد، لكنّ، القصر....)**، التّكرار، و كثرة الأسماء و قلّة الأفعال.

*_ خلاصة القول:

_ توظيف الجمل الاسميّة في خطب ابن باديس عبّر عمّا هو قار عنده، نكرانا لذاته و استصغارا لها، أو إثراء لرفقائه و إشادة بإنجازاتهم.

_ أمّا الجمل الفعليّة فقد عبّر توظيفها عن الآراء الشّخصيّة المتغيّرة عند ابن باديس.

2_ التّوكيد:

"إنّ التّوكيد تابع يقرّر أمر المتبوع في النّسبة أو الشّمول و هو لفظيّ و معنويّ: فاللّفظيّ تكرير اللّفظ الأوّل مثل "جاءني زيدٌ زيدٌ" و يجري في الألفاظ كلّها و المعنوي بألفاظ محصورة و هي: نفسه و عينه و كلاهما و كلّه، و أجمع و أكتع و أبتع و أبصع"[1]، و قد يأتي بأداة و يعمد إليه المتكلّم قصد "إزالة ما علق في نفس المخاطب من شكوك، و إماطة ما خالجه من شبهات"[2]، و قد ظهرت كسمة أسلوبيّة بارزة في

[1] _ بدر الدّين بن جماعة: شرح كافيّة بن الحاجب. تحقيق و تعليق محمّد محمّد داوود، مصر، دار المنار للنّشر و التّوزيع، (د.ط)، (د.ت)، ص186.

[2] _ مهدي المخزومي: في النّحو العربي (نقد و توجيه). بيروت لبنان، منشورات المكتبة العصريّة، الطّبعة الأولى، 1964م، ص234.

خطب عبد الحميد بن باديس، و كان أداة طيّعة في يده؛ إذ استطاع أن يستعمله في تراكيب مختلفة ليؤكدّ لذاته أنّها مقصاة و خارج دائرة حساباته فلا بأس أن نعرض الجمل التي تضمّنت التّوكيد في خطبه، و التي نطقت بحالته الشّعوريّة هذه من خلال الجدول الآتي:

الخطب	الجمل التي تضمّنت التوكيد
_ خطبتان لصاحب المجلة في اجتماع جمعيّة العلماء المسلمين بالعاصمة.	_ **إنّني** ما كنت أعدّ نفسي أهلاً للرّئاسة. _ **إنّني** كنت أعد نفسي ملكًا للجزائر. _ لم تنتخبوني لشخصي و **إنّما** أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى و صفين عرف بهما أخوكم الضّعيف هذا. _ **إنّني** قصّرت وقتي للتّعلم فلا شغل لي سواه. _ **إنّ** هذا العبد الضّعيف له فكرة.
_ كلمة المحتفل به.	_ و **ما** أنا **إلاّ** خادم القرآن. _ و **كلّ** ما لي فضل في هذا فهو **أنّني** كنت السّبب فيه.

	_ أنا رجل أشعر **بكلّ** ما له أثر في حياتي. _ **إنّ** الإنصاف الذي هو خير ما ربي عليه امرؤ نفسه **ل**يدعوني أن أذكر... **كلّ** العناصر التي كان لها الأثر في تكويني.
_ خطبة رئيس الجمعيّة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة.	_ **إنّ** هذا العبد الضّعيف يقدم بلسان العجز الشّكر. _ و **أنّ** هذا العبد الضّعيف لثقته في الله. _ **إنّ** أعظم لذّ يشعر بها ذو الضّمير الحي أن تكون له قيمة عند قومه. _ و **أنّ** لحصول الثّقة منكم **ل**للذّة أعظم من كلّ لذّة. – و **إنّ**ها **ل**تقع بعد لذة الإسلام و الإيمان.

_ خطاب رئيس الجمعيّة الذي ألقي في صباح اليوم الأوّل من أيام اجتماعها العام.	_ و **و الله إنّي** لا أعتقد **أنّ** هذا ليس من صنعنا.

لعلّ أوّل ما نلاحظه في هذه الجمل أنّ أدوات التّوكيد وردت فيها بكثرة و هي: **(إنّ)** التّوكيديّة، **(ما و إلاّ)** و **(إنّما)** اللّواتي يفدن القصر، **(اللاّم)** المزحلقة، **(من)** التي تفيد التّقليل، كما ورد التّوكيد بغير أداة حيث جاء معنويّا في استعماله لفظ **(كلّ)** و القسم.

فكشف التّوكيد في هذه الخطب عن مدى نكران ابن باديس لكلّ ما يزكّي نفسه أو ما قد يُزكى به من طرف مخاطبيه فكان يستعمله إمّا ليخضع ذاته للتّواضع كما في قوله: «**إنّني ما كنت أعدّ نفسي أهلاً للرّئاسة**» أو في قوله: «**و ما أنا إلاّ خادم القرآن**»، و إمّا حتّى لا يحكم من يخاطبهم بخلاف ما في نفسه كما في قوله: «**و و الله إنّني لا أعتقد أنّ هذا من صنعنا**».

*_ ممّا سبق نستخلص:

_ أنّ التوكيد حضر بقوّة في خطب ابن باديس و بأدوات مختلفة.

_ مكّنه التّوكيد من إخضاع ذاته للتّواضع، و من تأكيد ما في نفسه لمخاطبيه.

3_ التّنكير والتّعريف:

يعدّ أسلوبا التّنكير و التّعريف من الظّواهر الأسلوبيّة المميّزة التي تضفي جماليّة فنيّة على الخطاب لما لتوظيفها من مقاصد تساعد المخاطِب على إظهار ما في نفسه

من مشاعر و أفكار، و تمكّنه من توجيه متلقّيها نحوها، و قد أبان توظيفها في خطب ابن باديس عن دلالات خدمته في إنكار ذاته.

أ_ التّنكير:

إنّ الاسم المنكر «هو الواقع على كلّ شيء من أمّته لا يخصّ واحدا من الجنس دون سائره»[1]، و هو بهذا التّعريف يفيد الإطلاق و الإبهام، و هي مظاهر تأتي استجابة لدواع جماليّة و دلاليّة لا يمكن أن تقع و الكلمة معيّنة.

و قد جاء تنكير بعض الكلمات في خطب عبد الحميد بن باديس ليكرّس نكرانه لكلّ ما قد تظنّ نفسه أنّه تزكيّة لها، أو ما قد يعتبره غيره تعظيما لإنجازاته، و هذا ما ظهر من خلال ما أوحت به كلمات مثل: **(أهلا، حاضرا، ملكا، اعتقادي، فكرة)** في "**خطبتان لصاحب المجلة في اجتماع جمعيّة العلماء المسلمين بالعاصمة**"[2]، و كذلك ما أومأت به ألفاظ مثل: **(احتفالا، ثناء، مدح، عسير، ثقيل)** في **خطبته "كلمة المحتفل به"**[3].

---

[1] _ محمّد أبو العبّاس بن يزيد المبرّد: المقتضب. تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، القاهرة مصر، الطّبعة الثّانية، 1399هـ/1979م، الجزء الرّابع، ص276.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الرّابع، ص155.

[3] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 288.

فجاءت كلمات: **(أهلا، حاضرا، ملكا، اعتقادي، فكرة، عسير، ثقيل)** لتفيد معنى تقليل ابن باديس من شأن نفسه و كلّ ما يصدر عنها؛ فمثلا ورد لفظ **(أهل)** نكرة في قوله: «**إنّني ما كنت أعدّ نفسي أهلاً للرّئاسة**»[1] لتحيلنا إلى عدم يقينه باستحقاق الرّئاسة؛ و كأنّه يريد أن يقول من خلال هذا التّنكير بأنّ هناك من أعضاء الجمعيّة من هو أهل لرئاستها، و في هذا تسويّة أو بالأحرى تقليل لمكانة ابن باديس أمام أعضاء الجمعيّة و تواضع منه و تعظيم لرفقائه.

و جاءت كلمة **(فكرة)** في قوله: «**إنّ هذا العبد له فكرة معروفة و هو لن يحيد عنها**»[2]، لتحيلنا إلى استصغار ابن باديس و حيائه من أن ينسب شيئا لنفسه أو يصدر عنه، و ورود كلمة **(فكرة)** بصيغة المفرد زاد من تحميل هذه الدّلالة.

و قد أفاد تنكير مفردات **(احتفالا، ثناء، مدح)** ابن باديس في التّقليل من تزكيّة قد تطاله من خلال تعظيم الآخرين لإنجازاته، فوردت كلمة **(احتفالا)** نكرة في قوله: «**ما سميتموه احتفالا بشخصي**»[3] لتفيد تقليل قيمة الاحتفال عنده، و جاءت كلمتا **(ثناء، مدح)** نكرتين في قوله: «**إنّ الإنصاف... ليدعوني أن أذكر...كلّ العناصر التي كان لها**

---

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الرّابع، ص159.

[2] _ المرجع نفسه، ص159.

[3] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 288.

الأثر في تكويني حتّى تأخذ حقها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضّعيف من ثناء و مدح»[1] لتفيد عدم أحقّيته ابن باديس للثّناء و المدح، فما يظنّ النّاس أنّه من صنعه و يستحقّ عليه الثّناء و المدح هو من صنع عناصر أخرى لها الحقّ أكثر منه في ذلك، و في هذا تقليل لتعظيم قد ينال جهوده.

ب_ التّعريف:

إنّ المعرفة «ما وّضع لشيء بعينه و هي المضمرات، و الأعلام، و المبهمات، و ما عرّف باللّام و بالنّداء، و المضاف إلى أحدهما معنى»[2]، و قد وردت الأسماء المعرّفة بأنواعها في خطب عبد الحميد بن باديس، و حضرت كظاهرة أسلوبيّة بارزة ألقت بدلالتها على ما يريد إيصاله على اعتبار أنّ التّعريف في عمومه يفيد تأكيد الدّلالة و زيادة تحميلها سواء بالمدح أو بالذّم.

لكنّنا سنلقي الضّوء على بعض الأسماء المعرّفة في ثلاث خطب، و التي أفاد تعريفها _ في نظرنا _ عبد الحميد بن باديس في نفيّ ذاته و ذمّها و استحضار الآخر و مدحه.

و قد وردت الأسماء المعرّفة بكثرة قيّاسا بالأسماء النّكرة في خطبته "**كلمة**

[1] _ المرجع السّابق، ص288.

[2] _ بدر الدّين بن جماعة: شرح كافيّة بن الحاجب، ص234.

المحتفل به" لتعبّر عن إقصائه لذاته، و تنفي كلّ مدح أو شكر قد يطالها، و على سبيل المثال لا الحصر جاءت كلمة **(خادم)** معرّفة بالإضافة في قوله: «**ما أنا إلاّ خادم القرآن**»[1] لتفيد إمعان ابن باديس في التّقليل من شأن نفسه، فعلى الرّغم من أنّ الاستثناء أفاد هذا المعنى إلاّ أنّ ابن باديس لم يكتف بذلك فجاءت مفردة **(خادم)** معرّفة بالإضافة لتزيد من تحميله.

أمّا في قوله في الخطبة نفسها: «**فكلّ ما لي من فضل في هذا فهو أنّني كنت السّبب فيه**»[2]، فوردت كلمة **(السّبب)** معرّفة بال؛ حيث أحالت إلى نفيّ ابن باديس لكلّ إشادة و مدح له في هذا الحفل، فهو لا يمثّل إلاّ المناسبة التي أقيم من أجلها الاحتفال.

و طغت الأسماء المعرّفة في خطبة بعنوان "**خطبتان لصاحب المجلة في اجتماع جمعيّة العلماء المسلمين بالعاصمة**" و التي يقول في مقطع منها: «**إخواني إنّني ما كنت أعدّ نفسي أهلاً للرّئاسة**»[3]، فعبّرت كلمة **(نفسي)** المعرّفة بالإضافة عن إنكاره لذاته في أهليتها للرّئاسة.

و وردت في الخطبة نفسها كلمة **(تكريم)** معرّفة بالإضافة في قوله: «...**فأردتم**

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، الجزء الرّابع، المجلّد الرّابع عشر، ص 288.

[2] _ المرجع نفسه، ص288.

[3] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الرّابع، ص159.

أن ترمزوا بانتخابي إلى تكريم التّعليم...»[1]، مساعدة ابن باديس في نكران التّكريم لشخصه و توجيهه إلى التّعليم.

و نجد الأسماء المعرّفة التي تقلّل من تزكيّة ابن باديس لذاته حاضرة في خطبة بعنوان: "**خطبة رئيس الجمعية التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة**"، حيث قال في جزء منها: «...**إنّ هذا العبد الضّعيف يقدم بلسان العجز الشّكر لأعضاء الإدارة أن قدّموه للرّئاسة...**»[2]، فجاءت المعارف على التّرتيب: اسم الإشارة **(هذا)**، **(العبد، الضّعيف)** المعرّفتان بال حتّى تنفّس عن إلحاح فكرة التّقليل من النّفس و تشحذ دلالة الذّمّ و الإقصاء، فابن باديس لا يرى نفسه أعظم شأنا من رفقائه، و إنّما هم تفضّلوا عليه بهذا التّرشيح.

*_ و بالتّالي نستنتج أنّ تنكير بعض الألفاظ و تعريف بعضها الآخر في الخطب المدروسة شحذ دلالة الذّم و الإقصاء و التّقليل لكلّ ما هو من صنع ابن باديس قولا و فعلا.

3_ أدبيّة المقال و موضوعيّته:

يتطلّع كاتب المقال إلى استمالة الجماهير و إقناعهم بأفكاره متوخيّا في ذلك

---

[1] _ المرجع السّابق، ص159.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "خطبة رئيس الجمعيّة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة". مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، ص360.

الفكرة الواضحة و الأسلوب البسيط، و عدّته في ذلك "اللّغة السّائدة في مجتمعه"[1]، و ملتزما الموضوعيّة في طرحه غير سامح "لشخصيّته و أحلامه و عواطفه أن تطغى على الموضوع"[2]؛ ذلك أنّ الكاتب كلّما ابتعد عن الذّاتيّة في بثّ بنيّات أفكاره كلّما كان موضوع مقالته أكثر إقناعا و لمتلقيه أكثر استمالة.

و مقالات ابن باديس كان لها حضور قويّ بين الجماهير الجزائريّة و حتّى العربيّة لأنّها استطاعت و بموضوعيّة أن تعبّر عن انشغالات هذه الجماهير و مشاركتها آمالها و آلامها و السّؤال الذي يطرح نفسه هنا ما هي الظّواهر الأسلوبيّة التي مهّدت الطّريق لهذه الموضوعيّة حتّى تطغى على مقالات ابن باديس؟ و كيّف جنّبته هذه الظّواهر الأسلوبيّة السّقوط في فخ إظهار المَلكة اللّغوية على حساب مراعاة المقدرة اللّغويّة البسيطة لمخاطَبيه؟

و لأنّ تحرّي الموضوعيّة في كتابة المقال يستلزم "الوضوح و الدّقة و تسمية الأشياء بأسمائها"[3] كان واجبا على المبدع أن يمتلك هذه الصّفات حتّى تجد رسالته صداها بين النّاس، و الوضوح لا يتحقّق إلاّ باختيار الكلمات المناسبة للمعنى و "الاستعانة بالعناصر الشّارحة أو المقيّدة أو المخيّلة، و استعمال الكلمات المتقابلة

[1] _ إسماعيل عز الدّين: الأدب و فنونه دراسة و نقد. القاهرة مصر، دار الفكر العربي، (د.ط)، 1434هـ/2013م، ص24.

[2] _ محمّد يوسف نجم: فن المقالة. بيروت لبنان، دار الثّقافة، الطّبعة الرّابعة، 1966م، ص96.

[3] _ محمّد يوسف نجم: فن المقالة، ص96.

المتضادّة، إذا كان ذلك يخدم المعنى و الفكرة و البعد عن الغريب الوحشيّ و العمد إلى لغة النّاس و ما يستطيعون إدراكه»[1].

و ابن باديس من كتّاب المقال الذين تحقّقت في مقالاتهم تلك الصّفات التي جعلت الجماهير الجزائريّة تتلقّفها و تتفاعل معها، لذلك سنحاول تتبّع السّمات الأسلوبيّة التي مكّنت عبد الحميد بن باديس من الالتزام بهذه الأطر الموضوعيّة، و حجبت في الوقت نفسه مقدرة لغويّة يتحيّن كلّ من يمتلكها الفرصة لإظهارها.

أ_ الوضوح:

يعد الوضوح وجها من أوجه البلاغة و صفة من صفات الأسلوب لأنّه من واجب «البليغ أن يكون واضحا مفهوما يرمي إلى إفادة قرّائه و رفع مستواهم الثّقافي»[2] فلا تكون عنده القيّم التّعبيريّة هدفا و إنّما وسيلة لتنوير متلقي خطاباته.

و عبد الحميد بن باديس أوضح من بثّ فكرة و عبّر عنها بلغة تتلاءم و طريقة تفكيره، و تستوعب مقدرة مخاطبيه الفكريّة و اللّغويّة، فكان بذلك من أبرز من أبدعوا «و ساهموا بفاعليّة في كتابة فنّ المقال»[3]، و قد كانت عدّته في تحقيق هذا الوّضوح أدوات تعبيريّة أهمّها:

---

[1] _ أحمد الشّايب: الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، ص188.

[2] _ المرجع نفسه، ص186.

[3] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر (الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص76.

1_ التّرادف:

يعدّ التّرادف ظاهرة لغويّة تتفضّل بها العربيّة عن اللّغات الحيّة الأخرى باعتبارها مظهر نماء و زيادة على مستوى الألفاظ فهو "توالي الألفاظ المفردة الدّالة على مسمى واحد باعتبار معنى واحد"[1] لذلك فهو يعدّ من أدوات الإيضاح التي يعتمدها "البلغاء في تنوّع العبارات و تلوين الأساليب و الحريّة في الاختيار و الانتقاء"[2] حتّى يتمكّنوا من التّوسيع في طرائق تعبيرهم و يتجنّبوا الصّعب و الغامض من الكلام، و كذا التّفنّن في أساليب البديع كالجناس و السّجع.

و لأنّ الشّعب الجزائري كان يكابد الجهل بسبب السّياسات الاستعماريّة التي مورست عليه لطمس لغته العربيّة؛ حيث كان عاجزا عن فهم مفرداتها الجزلة، و تراكيبها الصّعبة، و صورها التّعبيريّة القويّة، فإنّ ابن باديس حاول تدارك هذا العجز من خلال توظيف ظاهرة التّرادف في مقالاته على اعتبار دورها في "تكثير وسائل التّفاهم حتّى لا تأخذ المتكلّم حسبة أثناء الخطاب"[3] بغية إزالة أيّ لبس قد يقع فيه متلقّي مقالاته.

---

[1] _ محمّد بن علي الشّوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول. تحقيق و تعليق سامي بن العربي الأثري، الرّياض السّعوديّة، دار الفضيلة، الطّبعة الأولى، 1421هـ/2000م، الجزء الأوّل، ص123.

[2] _ علي التّميمي وروير: أسرار التّرادف في القرآن الكريم. دار بن حنظل، (د.ط)، 1405هـ/1985م، ص12.

[3] _ محمّد نور الدّين المنجد: التّرادف في القرآن الكريم (بين النّظريّة و التّطبيق). دمشق سوريا، دار الفكر، الطّبعة الأولى، 1417هـ/1997م، ص91.

لقد كان ابن باديس كثيرا ما يعين قرّاء مقالاته من قليلي مثقّفي العربيّة الفصحى على فهم بعض مفرداتها، إذ كان يضع في كثير من الأحيان المفردة و يتبعها بمرادفتها قصد إزالة غموض قد يعتريها، لذلك فإنّ المتصفح لمقالاته سيجد أنّها تعجّ بالمترادفات.

و من ذلك ما ورد في مقال بعنوان "**ماذا خير من المال**" في قوله: «**كلّ النّاس يسعى لتحصيل ما له في هذه الحياة من شهوات و رغبات، لتحصيل الراحة و الهناء و السّعادة**»[1]؛ فاللّفظتان (**شهوات، رغبات**) تتقاربان في المعنى العام، إذ تدلاّن على كلّ ما تطلبه النّفس و تسعى إلى تحقيقه، لكن في المعنى الخاص فمفردة (**شهوات**) تدلّ على الرّغبة الشّديدة في تحقيق ملذّات الحياة الماديّة.

و بما أنّ درجة الفهم و الاستيعاب تتفاوت بين النّاس، و بالتّالي يصعب فهم القصد من مفردة (**شهوات**) لغير المتخصّصين، لأنّها تفسّر عند الغالبيّة على أنّها تعني كل ما يتلذّذ المرء به كلذّة الشّهوة الجنسية أو لذة الأكل، و حتّى يزيل ابن باديس هذا التّشويش الذي قد يحصل على مستوى ذهن هؤلاء أردف مفردة (**شهوات**) بلفظة (**رغبات**) لأنّها أوضح و مناسبة للتّعبير عمّا يراد تحصيله من راحة و هناء و سعادة، «فقد يكون أحد المترادفين أجلى من الآخر، فيكون شرحا للآخر الخفيّ»[2].

---

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص420. نقلا عن الشّهاب العدد الخامس عشر، 22 صفر 1345هـ/ 30 أوت 1926م.

[2] _ عبد الرّحمان جلال الدّين السّيوطي: المزهر في علوم اللّغة بأنواعها. ضبط و تعليق محمّد أحمد

و ابن باديس إنّما يعمد إلى توظيف التّرادف حتّى يوسّع دائرة ما يرمي إليه، و يصيب أكبر شريحة من الجماهير بغية تحقيق الوظيفة التّبليغيّة و لو على حساب ذلك الشّعور الذّاتي الذي ينشده كلّ كاتب باستعراض مقدرته البلاغيّة، لأنّه كان يعبّر بكلّ موضوعيّة يغلب عليها العامل الغيري عن سواه و يبرز "فيها الوجدان الجمعي أكثر ممّا يتّضح فيها الشّعور الذّاتي"[1].

و قد حضر التّرادف بكثرة في المقال السّابق "**ماذا خير من المال**"؛ إذ يذكر مجموعة من المفردات المتقاربة في المعنى مثلا: **(البهجة و السّرور/ غبطة و فرح)** و ذلك بغية "التّوسيع بالألفاظ و التّوكيد و المبالغة"[2]، فعلى الرّغم أنّ المفردات جميعها تعبّر عن الانفعال الذي يظهره الإنسان إذا ما أصابه أمر يدخل السّرور إلى نفسه إلاّ أنّ ابن باديس لم يقتصر على مفردة واحدة تدلّ على المعنى السّابق بل أردفه بمفردات قريبة المعنى من المفردة الأولى، حتّى يزداد الخطاب وضوحا و المتلقّي فهما و استيعابا و حتّى "يحقّق من السّهولة أبعد درجاتها، و يكسب تراكيبه صفة الشّفافيّة"[3] التي ينشدها منهجا في كتاباته.

= جاد المولى بك، محمّد أبو الفضل إبراهيم، علي محمّد البجاوي، بيروت لبنان، منشورات المكتبة العصريّة، (د.ط)، 1986م، الجزء الأوّل، ص406.

[1] _ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر (الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس)، ص77.

[2] _ محمّد نور الدّين المنجد: التّرادف في القرآن الكريم، ص91.

[3] _ أحمد الشّايب: الأسلوب دراسة بلاغيّة تحليلية لأصول الأساليب الأدبيّة، ص127.

و يقول في مقال آخر بعنوان "**حول كلمتنا الصّريحة**": «**إذ بينا في جلاء و وضوح أنّنا مع احترامنا للسّلطة الفرنسيّة**»[1]، فكلمة **(جلاء)** يصعب على الكثير من الجزائريين فهمها فأردفها بكلمة **(وضوح)** بغية توضيح المعنى أكثر.

كما ورد التّرادف في مقال بعنوان "**لا فضل بالمال لمن كان ذا فضل فيه**"، حيث يقول: «**و الرّجل فضل على المرأة في قوّة العقل و قوّة البدن، و كانت قوتاه هاتان سببين في فضله في القدر و المنزلة و التّقديم عليها في هذه الدّنيا**»[2]، فكلمة **(المنزلة)** جاءت لتوجيه و تركيز متلقي هذا الخطاب إلى ما يريد ابن باديس إيصاله بوّرود كلمة **(القدر)** و هو معنى المكانة، و أيضا لتزيل اللّبس الذي قد يعتري المتلقي في استيعاب معناها.

و بهذا أسهم التّرادف في مقالات ابن باديس على وّضوح المقاصد و بلوغ المعاني إلى المتلقّي و أضفى صبغة جماليّة عليها دون الحاجة إلى إظهار الإمكانات اللّغويّة التي يسعى كثير من الكتّاب إلى إظهارها و التي قد تكون على حساب الوظيفة التّبليغيّة لهذه الإمكانات.

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «حول كلمتنا الصّريحة». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّالث، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الأوّل 1355هـ/ جوان 1936م، ص141.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص412. نقلا عن الشّهاب الجزء الحادي عشر، المجلّد الخامس، غرّة رجب 1348هـ/ ديسمبر 1929م.

2_ التّضاد:

يقاس نجاح أيّ خطاب بمدى تلقّف المتلقّي له، و فهمه و تأثّره به؛ لذلك يتحرى الكاتب الوضوح الذي يتحقّق باختيار «الكلمات المتقابلة المتضادّة إذا كان ذلك يخدم المعنى و الفكرة»[1].

فالتّضاد من الأدوات التي يتّكئ عليها الكاتب في نسج أفكاره و ملامسة ذهن المتلقّي، يعرّفه أبو الطّيّب اللّغوي بقوله: «و الأضداد جمع ضدّ، و ضدّ كلّ شيء ما نافاه، نحو البياض و السّواد، و السّخاء و البخل، و الشّجاعة و الجبن»[2]، فهذا الاختلاف في الدّلالة أدّى إلى ثراء اللّغة، و تنوّع أساليب الكلام، لذلك يعتبر التّضاد من فنون البديع و وسائل الإفصاح التي يعوّل عليها الكاتب حتّى «يزيل اللّبس عن السّامعين»[3].

و الدّارس لنتاج عبد الحميد بن باديس النّثري و بخاصّة المقالي يدرك أنّه كان واضحا مفهوما، يتوخّى الوضوح و بساطة الأسلوب في«إيصال المعنى بأوضح السّبل

---

[1] _ محمّد عبد المطّلب: البلاغة و الأسلوبيّة. القاهرة، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، الطّبعة الأولى، 1994م، ص116.

[2] _ عبد الواحد أبو الطّيّب بن علي اللّغوي الحلبي: الأضداد في كلام العرب. تحقيق عزة حسن، دمشق سوريا، الطّبعة الأولى، 1973م، ص33.

[3] _ محمّد الأنباري: الأضداد في اللّغة. ضبط و تصحيح محمّد عبد القادر سعيد الرّافعي، مصر،المطبعة الحسينيّة، المصريّة، (د.ط)، (د.ت)، ص04.

و أحسنها و أجملهما»[1] حتّى يلامس الخطاب أذن المتلقّي و عقله، كيف لا و قد امتلك ناصيّة اللّغة، و حاز ثروة لغويّة منحته «قدرة على التّصرّف في التّراكيب و العبارات لتلائم أفكاره و طريقة تفكيره»[2].

و يرد التّضاد في مقال بعنوان "**حقوق الأمّة الجزائريّة التي تطلبها من الأمّة الفرنسويّة**" يقول فيه: «...**إنّ الحياة تشتري بالأرواح و الأبدان، و الأمّة الجزائريّة قد بذلت أرواحها و أبدانها مع الأمّة الفرنسويّة و مثلها، و من دفع الثّمن فمن الحق و العدل أن يأخذ الثّمن**»[3]، فقد أورد ابن باديس صورة فنيّة في هذا الشّاهد و هي «**إن الحياة تشتري بالأرواح و الأبدان**» فهذه الصّورة قد تكون غامضة لبعض متلقيها؛ لذلك جاء بالتّضاد الفعلي **(دفع≠ يأخذ)** حتّى يجلي الغموض الذي قد يحصل عند البعض، و يوضح من خلال هذا التّضاد عن حقيقة و هي أنّ أخذ الحريّة غالي، يحتاج إلى تضحيّات جسام، فلا ينال الحياة إلاّ من دفع روحه ثمنا لها.

و في مقال آخر بعنوان "**المؤتمر الجزائري الإسلامي العام**" يقول عبد الحميد بن باديس في آخره: «**فنحمد الله الذي وفق الأمّة إلى ما فيه خيرها و شرفها، و نسأله**

[1] _ عبد السّلام المسدّي: الأسلوب والأسلوبيّة، ص85.

[2] _ أحمد الشّايب: الأسلوب دراسة بلاغيّة تحليلية لأصول الأساليب الأدبيّة، ص186.

[3] _ عبد الحميد بن باديس: "حقوق الأمّة الجزائريّة التي تطلبها من الأمّة الفرنسوية". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الخامس، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الثّاني 1355هـ/ جوليت 1936م، ص210.

تعالى أن يحيينا و يميتنا في خدمتها...»[1]، فالفقرة تتضمّن تضادا بين **(يحيينا≠ يميتنا)**، أراد ابن باديس من خلاله تعزيز معنى التّضحيّة من أجل خير الجزائر و شرفها لدى المتلقي و تقويته.

حضر التّضاد أيضا في مقال "**ماذا خير من المال**"، إذ يقول ابن باديس في جزء منه: «**الأمل الذي يصبو إليه العامل من وراء عمله هو الذي يجعل له ذلك العمل مهما كان شاقا عملا لذيذا فيكون في راحة و هو في نصب، و في نعيم و هو في ألم...**»[2]، فالتّضاد الوارد بين **(راحة ≠ نصب)** و بين **(نعيم ≠ ألم)** أسهم في وضوح الفكرة و تقريب المعنى عند المتلقّي فالذي يريد أن يحقق هدفا يكون طريقه محفوفا بالمتاعب و العثرات، لكّن أمله الذي يريد أن يصل إليه يعبّد له ذلك الطّريق و يهوّن عليه مشاقه و يكون مصدر سعادته، فالطّالب مثلا رغم متاعب السّهر و ضغط الاجتهاد إلاّ أنّ أمله في التّفوّق و النّجاح يذلّل صعابه.

و بهذا فقد أبان التّضاد عن قيمة جماليّة و مسحة فنيّة، ناهيك عن وضوح الدّلالة و زيادة الفهم.

---

[1] _ عبد الحميد بن باديس: «المؤتمر الجزائري الإسلامي العام». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الخامس، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الثّاني 1355هـ/ جوليت 1936م، ص215.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص421.

3_ العناصر الشّارحة:

إنّ من الأدوات التّعبيريّة التي يعتمدها أديب يتوخّى الوّضوح وسيلة للتّأثير في متلقّي خطاباته «العناصر الشّارحة، أو المفيدة، أو المتخيّلة، كالنّعت، و المضاف إليه، و الحال، و التّمييز و الاستثناء»[1]، فتوظيفها سبيل لجلاء المعاني و تحديدها.

و لأنّ ابن باديس كان يجنح للقصد و الوّضوح في مقالاته فقد حضرت بعض هذه العناصر الشّارحة فيها بقوّة كالنّعت و المضاف إليه عن غيرها من العناصر؛ لذلك سنتقصّى توظيفهما و نقف على أثرهما التّوضيحي في بعض مقالاته التي عجّت بتوظيفهما.

ففي مقال بعنوان "**حول مساجين العلماء**" أحصينا سبع عشرة (17) صفة، و أربعة و أربعين مضافا إليه (44)، و هذا مقطع من المقال نورده لنبيّن أثر المضاف إليه في توضيح المعنى و جلاء غموضه يقول فيه: «**الباستيل و ما أدراك ما الباستيل! و ما أحوج الشّعوب المستضعفة أن تعرف تاريخ الباستيل و نهاية الباستيل! هو حصن منيع اتخذه ملوك فرنسا المستبدّون سجنا يلقون فيه الأحرار المفكرين، فيقضون أيّامهم في ظلمات أقبائه حتّى يأتي عليهم الموت، يلقونهم في غيابات هذا السّجن الرّهيب دون محاكمة و لا جرم معلوم**»[2].

---

[1] _ أحمد الشّايب: الأسلوب دراسة بلاغيّة تحليلية لأصول الأساليب الأدبيّة، ص188.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين =

ففي حديثه عن قهر الشّعوب و ظلمها وظّف الصّفة **(المستضعفة)** ليميّز نوع الشّعوب التي يطالها الظّلم و القهر.

و لمّا أراد التّعريف بسجن الباستيل و تاريخه المؤلم استعمل الصّفتين **(منيع، الرّهيب)** بعد الموصوفين **(حصن، السجن)**، للإفصاح عن بشاعة هذا السّجن الذي يرعب نزلاءه من المفكّرين الأحرار الذين يلاقون فيه ألوان التّعذيب و التّنكيل.

بينما وصف نزلاء السّجن من الأحرار بالمفكّرين ليبيّن صنف الأحرار الذين زجّ بهم في هذا السّجن لا لجرم ارتكبوه، و إنّما لسعيّهم في توعيّة الشّعوب و إيقاظها من غفلتها.

و ورد المضاف إليه **(أقبائه)** بعد المضاف **(ظلمات)** ليبيّن مكان تعذيب المساجين من الأحرار المفكّرين، و دلّ المضاف إليه **(محاكمة)** بعد المضاف **(دون)** عن طبيعة هذه المحاكمة القائمة على الظّلم و القهر و اللاّ عدل في تعامل ملوك فرنسا مع قضايا الأحرار المفكّرين؛ حيث يزجّ بهم في هذا السّجن دون جرم اقترفوه و بلا محاكمة.

و نجد المضاف إليه و الصّفة في مقال بعنوان "**الوطن و الوطنيّة**"، حيث أحصينا مئة و سبعة و أربعين (147) مضافا إليه و ثمان و عشرين (28) صفة؛ إذ يقول في مقطع منه: "**من نواميس الخلقة حبّ الذّات للمحافظة على البقاء، عمارة الكون، فكلّ ما**

الجزائريين. الجزء الخامس، ص395. نقلا عن البصائر العدد 178، الجمعة 24 جمادى الثّانيّة 1358هـ/ 11 أوت 1938م.

تشعر النّفس بالحاجة إليه في بقائها فهو حبيب إليها، فالإنسان من طفولته يحب بيته و أهل بيته لما يرى من حاجته إليهم و استمداد بقائه منهم، و ما البيت إلاّ الوطن الصّغير...»[1].

فالمضاف إليه **(خلقة)** بعد المضاف **(نواميس)** جاء ليبيّن من هم الذين يعتمدون هذه النّواميس، بينما المضاف إليه **(الذّات)** بيّن لنا نوع الحبّ الذي هو من نواميس الخلقة.

و قد استعان ابن باديس بالمضاف إليه و الصّفة أيضا في مقال بعنوان "**الإسلام الذّاتي و الإسلام الوراثي**"؛ إذ يقول في مقطع منه: «**هذا الإسلام الوراثي هو الإسلام التّقليدي الذي يؤخذ بدون نظر و لا تفكير و إنّما يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء، و محبة أهله للإسلام إنّما هي محبة عاطفيّة بحكم الشّعور و الوجدان**»[2].

فالصّفتان **(الوراثي، التّقليدي)** بعد الموصوف **(الإسلام)** دلّتا على طبيعة الإسلام عند بعض النّاس، فهو إسلام لم يجتهدوا في فهم تعاليمه و إنّما هم يقلّدون آباءهم و أجدادهم في ذلك.

---

[1]_ عبد الحميد بن باديس: «الوطن و الوطنيّة الحق فوق كلّ أحد، و الوطن قبل كلّ شيء ». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء السّابع، المجلّد الثّالث عشر، ص305.

[2]_ عبد الحميد بن باديس: «الإسلام الذّاتي و الإسلام الوراثي». مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّالث، المجلّد الرّابع عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة ، ربيع الثّاني1357هـ/ جوان 1938م، ص106.

بينما المضاف إليه **(عاطفيّة)** بعد المضاف **(محبة)** أوضح نوع المحبّة التي يكنّها هذا الصّنف من النّاس لهذا النوع من الإسلام؛ فهي محبّة عاطفيّة نابعة من القلب لا عقليّة نتيجة البحث و إعمال العقل في قواعد هذا الدّين.

و من أمثلة المضاف إليه و الصّفة في مقالات ابن باديس ما جاء في مقال بعنوان "**دعوة إلى الحسنى**"، و الذي أحصينا فيه واحد و ثمانين **(81)** مضافا إليه و تسع عشرة **(19)** صفة، و الذي يقول في مقطع منه: "**حق علينا _ معشر الجزائريين _ اليوم أن نتدبّر تلك العبر، و أن نزدجر عما في مصائب الفرقة من خطر، فقد قامت بين كتابنا خلافات في مسائل دينيّة؛ أدّت إلى افتراقات حزبيّة حتى خرجت ببعض الكّتاب من الجانبين إلى مراعاة بسهام التّشاؤم و قذائف السّباب مما لا ترضيه مروءة، و لا يسيغه عقل و لا دين**"[1].

فالموصوف **(معشر)** مبهم مفرّدا لذلك أردفه ابن باديس بالصّفة **(الجزائريين)** لتخصيص و تعيين نوع الجمهور المخاطب، و كذلك الموصوف **(مسائل)**، و حتّى لا يَشكل على المتلقّي معرفة نوع المسائل، جاءت الصّفة **(دينيّة)** فأزالت هذا الغموض و بيّنت نوع الخلاف الرّاجع إلى الدّين من مسائل فقهيّة و عقائديّة و ما إلى ذلك.

---

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص81. نقلا عن الشّهاب العدد102، 23 ذي الحجّة 1345هـ/ 23 جوان 1927م.

و في حديثه عن الخطر الذي يواجهه الجزائريين ذكر الموصوف **(مصائب)** و هي مفردة نكرة تفيد العموم لكنّه أتبعها بالصّفة **(الفرقة)** لتخصيص و تعيين أكبر خطر يواجه الوحدة بين الجزائريين.

و قد أفصح المضاف إليه **(حزبيّة)** بعد المضاف **(اقتراحات)**عن نتيجة الخلافات التي أدّت إلى الفرقة و النّزاع بين رؤساء الأحزاب في وقت تحتاج فيه الجزائر إلى توحّد أبنائها شعبا و سياسيين لمواجهة خطر الاستعمار.

و بيّن المضاف إليه **(التّشاؤم)** بعد المضاف **(سهام)** الحالة النّفسيّة التي وصل إليها الكتّاب من يأس و تدمّر نتيجة هذا الخلاف، و صوّر المضاف إليه **(السّباب)** نوع القذائف التي تبادلها الكتّاب فيما بينهم، و المتمثّلة في الشّتائم.

و بهذا يمكن القول إنّ الصّفة و المضاف إليه كعناصر شارحة يقصد من وراء توظيفها القصد و الوّضوح ساعدت ابن باديس في تجاوز كلّ حبّ للذّات في إظهار مقدرتها اللّغويّة في سبيل تحقيق رسالته التّبليغيّة.

*_ مجمل ما سبق ما يأتي:

_ اعتمد ابن باديس على الوضوح بأدواته (التّرادف التّضاد، العناصر الشّارحة) كوسيلة أسلوبيّة لتحقيق غاية تبليغيّة.

_ كثرة المترادفات و المتضادّات و العناصر الشّارحة دليل على أنّ همّه كان

يتجاوز إظهار مقدرته اللّغويّة.

_ الوضوح على بساطة أدواته أضفى على مقالات ابن باديس مسحة فنيّة.

ب_ التّصوير الفنّي الواقعي:

البيان صنف من صنوف البلاغة و أداة من أدوات الإفصاح، استعان به الكتّاب لتزيين الكلام و تقريب المعاني و زيادة الإفهام من الأذهان؛ ذلك أنّ البيان هو "إظهار المقصود بأبلغ اللّفظ، و هو من الفهم و ذّكاء القلب مع اللّسن، و أصله الكشف و الظّهور"[1]، و تعود قوّة الإفصاح به إلى تنوّع صوره من تشبيه و استعارة و كناية و مجاز لأنّها تمنح المفصح بها حسن اختيار الصّورة التي تتلاءم مع ما يريد إيصاله لغيره.

و لمّا كان ابن باديس يسعى لتقريب المعاني لمتلقّي خطاباته فقد جعل من الصّور البيانيّة مطيّة لتذليل بنيّات أفكار مقالاته و المساهمة في "حسن البيان و تحريك المشاعر، و تنبيه العقول، و تنشيط الأذهان"[2]، دون أن تكون هذه الصّور بعيدة عن واقع متلقيها فالوضوح و القصد غايته لا التّنميق و التزويق؛ لذلك من يقف على نتاج ابن

---

[1] _ ابن منظور: لسان العرب. تحقيق عبد الله الكبير، محمّد أحمد حسب الله، هاشم محمّد الشّاذلي، القاهرة مصر، دار المعارف، الطّبعة الرّابعة، (د.ت)، المجلّد الأوّل، الجزء الأوّل، باب الهمزة، (مادّة بين)، ص407.

[2] _ عبد الفتّاح بسيوني فيّود: علم البيان (دراسة تحليليّة لمسائل البيان). القاهرة مصر، مؤسّسة المختار للنشر والتّوزيع، الطبعة الرّابعة، 1436هـ/2015م، ص214.

باديس المقالي سيلحظ كثرة توظيف الاستعارة و التّشبيه باعتبارهما يفيدان في "الكشف و الإبانة عن المعاني و الخواطر الكامنة في النّفس"[1] بأوضح صور و أبلغها.

1_ التّشبيه:

يعدّ التّشبيه من فنون البيان و وسائل الإيضاح و قد أجمع أكثر علماء البلاغة على تعريفه بقولهم هو "الدّلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى"[2]، و هو يعتبر من أكثر الصّور الفنيّة استعمالا في أساليب الكتّاب ذلك لأنّه من "أقدم صور البيان و وسائل الإيضاح، و أقربها إلى الإفهام و الأذهان"[3]؛ لذلك فكثرة توظيفه في الكلام ترجع إلى مكانته و فائدته في تصوير المعاني و تقريب الواقع من المتلقّي فهو "يزيد المعنى وضوحا و يكسبه تأكيدا، و لهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب و العجم عليه، و لم يستغن أحد منهم عنه"[4].

و ابن باديس من الكتّاب الذين حضر التّشبيه بقوّة في نثره بعامّة و في نتاجه

---

[1] _ بدوي طبانة: البيان العربي (دراسة في تطوّر الفكرة البلاغيّة عند العرب و مناهجها و مصادرها الكبرى). مطبعة الرّسالة، الطّبعة الثّانية، 1377هـ/1958م، ص11.

[2] _ جلال الدّين محمّد عبد الرّحمان القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني و البيان و البديع). لبنان، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، 1424هـ/ 2002م، ص164.

[3] _ أحمد مطلوب: فنون البلاغة (البيان _ البديع). الكويت، دار البحوث العلميّة، الطّبعة الأولى، 1390هـ/1985م، ص28.

[4] _ الحسن أبو هلال العسكري: تحقيق محمّد البجاوي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، كتاب الصّناعتين (الكتابة و الشّعر). دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الأولى، 1371هـ/1952م، ص243.

المقالي بخاصّة، فالمعنى يتحقّق به في ذهن المتلقّي بسرعة مقارنة بالكناية و المجاز و غيرهما، لذلك سنسلّط الضّوء عليه لأنّه أبان عن سمة الوّضوح و حقّق القصد الذي كان ينهجه ابن باديس من خلال توظيفه.

فمن التّشبيه البليغ ما ورد في مقال بعنوان "**ماذا خير من المال**" في قوله: «**فالوقت لنا كنز لا يماثله كنز...**»[1]، حيث شبّه ابن باديس الوقت بالكنز، فالمعنى المقصود من هذا التّشبيه أنّه بإدراك قيمة المشبّه به (الكنز) _ الذي لا يختلف اثنان في أهميته _ يدرك المتلقّي قيمة الوقت، و أنّه كما يحرص للحصول على المال و ادّخاره يجب عليه استغلال الوقت و استثماره.

و من روائع التّصوير الواقعي ما ورد في مقطع من مقال "**الوطن و الوطنيّة الحقّ فوق كل أحد، و الوطن قبل كل شيء**" إذ يقول فيه: «**...قسم لا يعرفون إلاّ أوطانهم الصّغيرة، و هؤلاء هم الأنانيون الذين يعيشون على أممهم كما تعيش الطفيليّات على دم غيرها من الحيوان...**»[2]، فهذا التّشبيه واضح المعنى حيث أبان عن غرض بلاغي و هو تقبيح المشبّه (**الأنانيون**) و تشويه صورته لدى المتلقّي، فالمشبّه و المشبّه به يشتركان في حبّ الذّات و عدم الاكتراث بالآخر؛ فالأنانيّ لا يشعر بهموم

[1] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزء الخامس، ص422.

[2] _ عبد الحميد بن باديس: "الوطن و الوطنيّة الحق فوق كل أحد، و الوطن قبل كلّ شيء". مجلّة الشّهاب، الجزء السّابع، المجلّد الثّالث عشر، ص305، 306.

أمّته كالطّفيلي الذي لا يهمّه إذا كان بقاؤه قد يتسبّب في موت غيره.

و يرد التّشبيه تامّا واضحا في مقطع من مقال بعنوان "**كلمة صريحة**"، إذ يقول فيه: «**و إذا تكلم الرّصاص و ارتقت السّيوف فوق منابر الرّقاب فالمسلم الجزائري يهب كالليث من عرينه**»[1]، فقد شبّه ابن باديس المسلم الجزائري باللّيث في إقدامه و شجاعته في الدّفاع عن أرضه، حتّى يظهر مدى غيرته و استبساله إذا ما مسّ وطنه سوء.

2_ الاستعارة:

استقرّ علماء البلاغة على تعريف الاستعارة بأنّها "اللّفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة و المعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليّ"[2].

و هذا التّعريف يؤكّد على أهمّيتها و فائدتها في توضيح المعنى و إبرازه ذلك أنّك "لترى بها الجماد حيّا ناطقا، و الأعجم فصيحا، و الأجسام الخرس مبيّنة و المعاني الخفيّة باديّة جليلة"[3].

و الدّارس لنتاج ابن باديس بعامّة و المقالي بخاصّة يجد أنّ الاستعارة أخذت

---

[1]_ عبد الحميد بن باديس: "كلمة صريحة". مجلة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الأوّل، المجلّد الثّاني عشر، ص44.

[2]_ عبد القادر حسين: القرآن و الصّورة البيانيّة. بيروت لبنان، عالم الكتب، الطّبعة الثّانية، 1405هـ/1985م، ص171.

[3]_ عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان. تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت لبنان، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، 1422هـ/2001م، ص40.

حقّها من التّوظيف في نتاجه لأنّها "تجعل القارئ يحسّ بالمعنى أكمل إحساس و أوفاه، و تصوّر المنظر للعين و تنقل الصّوت للأذن، و تجعل الأمر المعنويّ ملموسا محسّا"[1]، و ذلك حرصا منه على توكيد المعنى و تمثّله في ذهن القارئ، فيتلقّفه هذا الأخير واضحا مفهوما.

و من أمثلة الاستعارة ما جاء في مقال بعنوان "**أيتها الحريّة المحبوبة؟**"، حيث قال: "...**فتشت عنك في قصور الأغنياء فوجدت القوم قد استعبدهم الدّينار...فتشت عنك في أكواخ الفقراء فوجدت المساكين قد قيّدهم الفقر...**"[2]؛ إذ ورد في هذا الشّاهد استعارتان مكنيّتان، أمّا الأولى في قوله: "**استعبدهم الدينار**" حيث شبّه ابن باديس الدّينار بالسّيّد المستَعْبِد فحذف المشبّه به و ترك قرينة دالة عليه **(استعبدهم)**، أمّا الثّانية في قوله: "**قيّدهم الفقر**" فشبّه الفقر بالرّجل المتسلّط و حذف المشبّه به و ترك ما يدلّ عليه **(قيّدهم)**.

فأراد ابن باديس من خلال هاتين الاستعارتين القول أنّه ليس شرطا أن يسلب حريّتنا شخص ما بقهر أو استعباد، و إنّما هناك أشياء حولنا قد تسلب حرّيتنا لكنّنا لا

---

[1] _ أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن. مصر، نهضة مصر للطّباعة و النّشر، (د.ط)، 2005م، ص166.

[2] _ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، الجزء السّادس، ص352. نقلا عن البصائر، العدد 175، 03 جمادى الثّانية 1385هـ/21 جويليّة 1939م.

ندرك ذلك؛ فالدّينار كما ورد في هذا المقال يسلب الأغنيّاء حرّيتهم لأنّهم يكرّسون حياتهم لجمعه و عدم إنفاقه، كما يكرّس العبد حياته لخدمة سيّده، و الفقر يسلب المساكين حرّيتهم لأنّهم لا يستطيعون العيش بسلام و راحة لافتقارهم لأبسط متطلّبات الحياة، كما يسلب القيد حرّية المُقَيَدِ لأنّه لا يمكن أن يلبّي حاجاته اليوميّة بسهولة.

فالصّورتان هنا واضحتان جليّتا المعنى، لا يحتاج متلقّيهما لإعمال العقل في فهم ما توحيّان به، لأنّهما قريبتان من واقعه و يراهما مرأى العين خلال حياته.

و ما يؤكّد جنوح ابن باديس إلى توظيف الاستعارة باعتبارها من وسائل الإيضاح ما جاء في مقال بعنوان "**في سبيل التّعلم و التّقدم**" حيث قال: «**انتبه هذا الشّعب العربي المسلم على صدمات الحوادث و قوارع الزّمان، و مناخيس البلايا التي خرقت الجلد و اللّحم و العظم**»[1]، فوردت في هذا المقطع استعارة مكنيّة في قوله: «**خرقت الجلد و اللّحم و العظم**»، حيث شبّه البلايا بالآلة الحادّة و حذف المشبّه به و ترك قرينة دالة عليه (**خرقت**).

فالتّعبير بهذه الاستعارة قريب من الواقع، و صل به المعنى راقيّا واضحا؛ إذ ربط عِظم حوادث الزّمان و مصائبه على الشّعب العربي بعمليّة الطّعن، فالمتلقّي متى استحضر ألم الطّعن أدرك حجم البلايا التي ألمّت بهذا الشّعب.

[1] _ المرجع السّابق. الجزء الرّابع، ص140. نقلا عن البصائر، السّنة الثّالثة، العدد 136، الجمعة 27 شعبان 1357هـ/ 21 أكتوبر 1938م.

و يظهر أيضا وضوح التّعبير بالاستعارة في مقال بعنوان "**حقوق الأمّة الجزائريّة التي تطلبها من الأمّة الفرنسويّة**"، حيث قال: «**إنّ الحياة تشترى بالأرواح و الأبدان و الأمّة الجزائريّة قد بذلت أرواحها و أبدانها مع الأمّة الفرنسويّة...**»[1]، ففي هذا الشّاهد استعارتان مكنيّتان حيث شبّه الحياة بالسّلعة و حذف المشبّه به و ترك قرينة دالة عليه (**تشترى**)، و شبّه الأرواح بالمال فحذف المشبّه به و ترك ما يدلّ عليه (**تشترى**).

فأراد ابن باديس من خلال هاتين الاستعارتين أن يبيّن أنّ حياة الكرامة و الحريّة تُشترى بدفع الأنفس من أجلها، كما يحرص الإنسان على شراء متطلّبات الحياة من كماليّات و أساسيّات، فجسّدت هاتان الصّورتان المحسوس بالمادّي، و أبانتا عن معنى واضح عند المتلقّي لا يبدل جهدا فكريّا كبيرا في استيعابه.

*_ و بالتّالي نستنتج أنّ حضور التّشبيه و الاستعارة في كثير من مقالات ابن باديس قرّب المعنى لمتلقّي مقالاته و أضفى صبغة جماليّة عليها.

[1] _ عبد الحميد بن باديس: "حقوق الأمّة الجزائريّة التي تطلبها من الأمّة الفرنسوية". مجلّة الشّهاب، الجزء الخامس، المجلّد الثّاني عشر، ص210.

الخاتمة

ما قدّمه عبد الحميد بن باديس للجزائر بل للإنسانيّة جمعاء من دروس في التّضحيّة و الوفاء و الاستماتة في قهر الأعداء، و النّفس الطّويل للظفر بحقّ من حقوق الجزائريين حتّى يرويهم بنور العلم و يخلّصهم من عتمة الجهل لا يمكن أن تضمّها عبارات أو فقرات أو حتّى مجلّدات؛ لأنّ ما أفنى حياته عليه دين لا سداد له إلاّ الجزاء من الواحد الأحد.

لكنّ سنّة كلّ بحث تفرض علينا أن نضع القلم و نجمل ما توصّلنا إليه في النّقاط التّاليّة:

1_ نكران الذّات سمة برزت في شخصيّة علماء الإصلاح بعامّة، و عند عبد الحميد بن باديس بخاصّة منذ الصّغر و صُقلت بعوامل تاريخيّة و دينيّة و فكريّة تركت بصماتها فيه و أعلام الجمعية حتّى الكبر.

2_ ظلّ الأدب الجزائري و بخاصّة فنّ الرّسائل و الخطابة و المقالة خافتا بعد العهد العثماني، و يرسف في أغلال التّكلّف و الصّنعة إلى أن ظهرت الحركة الإصلاحيّة فأبرزته موضوعا و أسلوبا أثر في طلبة العلم وأثرى مدونة الجزائر أدبيا وثقافيا.

3_ تَطَرُّق علماء الإصلاح في نثرهم لقضايا تهمّ الشّعب الجزائري كالدّين و الوطن و اللّغة...، و اهتمامهم بالهدف الدّعوي التّبليغي أكثر من الهدف البلاغي؛ و يعود لإيثارهم تحقيق المنفعة العامّة على المنفعة الخاصّة.

4_ ظهرت قسمات نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس في تعاملاته الإنسانيّة و الاجتماعيّة لا قولا فقط، و كذا في أفكاره، و في التزامه بتعاليم دينه، و حتّى نفسيّته؛ كعفوه عن ذلك الشخص الذي حاول اغتياله.

5_ تشبع الشّخصيّة الباديسيّة بسمة نكران الذّات ظهر جليّا في كتاباته من خلال موضوعيّته في طرح أفكاره و إنسانيّته في معالجة موضوعات لا تهمّ الفرد الجزائري فقط، بل تعدته إلى الإنسانية؛ مثل مقاله: صلاة وصلاة، و كذلك في استشهاده بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة الشّريفة عند إقامة الحجّة والانتصار للحق، و ليس استغلالا لأنانيته و آرائه الشّخصيّة بحكم منصبه.

6_ تميّز الأدب النّثري عند ابن باديس بواقعيّة الطّرح و موضوعيّته، و وضوح الأفكار و بساطة أسلوبها الذي نسمه سهلا ممتنعا، تبعا لمستويات المتلقين.

7_ يكاد يخلو نثر الكاتب من الرّسائل الإخوانيّة الشّخصيّة، رغم أن الأستاذ سعد الله أثبت رسالة أرسلها عبد الحميد بن باديس للشّيخ الطّاهر لعبيدي؛ و في هذا بيان لرسوخ الإيثار لا الأثرة في أسلوب كاتبنا، كما لم يكن له باع في حقل المقالة الذّاتيّة.

8_ المقدرة اللّغويّة عند ابن باديس لم تكن هدفا، و إنّما كانت وسيلة يسخّرها خدمة لجماهيره، ومنهم جمهور الجزائريين حتّى يتجاوز جهله و قلّة وعيه؛ من أجل ذلك غلّب النّثر على الشّعر، و قدّم توجيه الإنسان و خدمته على التآليف و مقولته الشّهيرة: "شغلنا بتكوين الرّجال عن تأليف الكتب" خير دليل على ذلك.

9_ الدّراسة الوصفية شخّصت_ حسب رأيّنا_ ميزة نكران الذّات عند علماء الإصلاح بعامّة؛ و شخصيّة ابن باديس و نثره بخاصّة، ذلك لأنّ الوصف أميل إلى الحياد و الموضوعيّة.

10_ آليّات التّحليل الأسلوبي كانت السّبيل الأنجع للكشف عن الوجه الجمالي للعملة الإنسانيّة (نكران الذّات) في شخصيّة ابن باديس و كتاباته، و الأداة الملائمة للوّقوف على سرّ بساطة أسلوبه، و هذا بعلة فحواها أن صاحب الخطاب سيّد أسلوبه يروّضه كيفما شاء، و حسب ما يمتلك من قدرات لغويّة و فنيّة و ما يحمّله لها من إيحاءات مختلفة؛ ناهيك عن مراعاة المقام و مقتضى الحال، مما يخبرنا عن حالته الشّعوريّة لأنّ الأسلوب محكوم بتوجيه المرسل خطابَه إلى المرسل إليه.

ألا ترى هندسة البيان الباديسي في مواقف عدة و هو يخطب في جمهوره تتشكّل شاكلات متنوّعة مقتدرة؟؛ كتلك الهندسة الصوتيّة التي تتغير وتيرتها بين تصعّد و هدأة؛ حين يتوجّه مرّة إلى إخوانه بنبرة متلطّفة حماسيّة، و أخرى حامية الوطيس بشَرَرٍ صوتي لاذع في وجه المعتدين، دون إغفالنا نكتة بيانيّة صوتيّة تجري على لسانه و هي حيِّيَّة متواضعة لمّا يكون في معرض حديثه عن نفسه دون تعال أو خيلاء، و مثال ذلك خطبته "كلمة المحتفل به".

11_ التّحليل النّفسي ضرورة اعتمدناها لتحليل بعض المواقف الباديسيّة، و وصف بعض الومضات الفنيّة في نثره.

12_ التّصوير الفنّي الواقعي مزيّة تحسب لعبد الحميد بن باديس الأديب كأداة قرّبت المعنى لدى المتلقّي، و زادت من جماليّة النّصّ النّثري الباديسي.

لابدّ من توجّه الدّارسين و طلبة العلم إلى دراسة الموروث الأدبي الجزائري قديمه و حديثه، للوقوف على بنائه اللّغوي و ذخيرته الثّقافيّة التي تزخر بأسرار أخرى في البيان و الفكر.

واجهة المصادر

و المراجع

*_ القرآن الكريم: برواية ورش عن الإمام نافع.

[1]_ إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ. مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، الطّبعة الخامسة، 1984.

[2]_ إبراهيم الفقي: العمل الجماعي. دار أجيال للنّشر و التّوزيع، الطّبعة الأولى، 1430هـ/2009م.

[3]_ أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن. مصر، نهضة مصر للطّباعة و النّشر، (د.ط)، 2005م.

[4]_ أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر. المطبعة العربيّة، (د.ط)، (د.ت).

[5]_ أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر. القاهرة مصر، مكتبة النّهضة المصريّة، (د.ط)، (د.ت).

[6]_ أحمد حمّاني: صراع بين السّنّة و البدعة. الجزائر، دار البعث، (د.ط)، 1984م، الجزء الأوّل.

[7]_ أحمد الخطيب: جمعيّة العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، (د.ط)، 1985م.

[8]_ أحمد الشّايب: الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية). القاهرة مصر، مكتبة النهضة المصريّة، الطّبعة الثّامنة، 1411هـ/1991م.

[9]_ أحمد مطلوب: فنون البلاغة (البيان _ البديع). الكويت، دار البحوث العلميّة، الطّبعة الأولى، 1390هـ/1985م.

[10]_ أخداري بكّاي: تحليل الخطاب الشّعري (قراءة أسلوبيّة في قصيدة قذى بعينك للخنساء). الجزائر، وزارة الثّقافة الجزائريّة، (د.ط)، 2007م.

[11]_ إسماعيل عز الدّين: الأدب و فنونه دراسة و نقد. القاهرة، دار الفكر العربي، (د.ط)، 1434هـ/2013م.

[12]_ إسماعيل عز الدّين: التّفسير النّفسي للأدب. مكتبة غريب، الطّبعة الرّابعة، (د.ت).

[13]_ أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفيّة. تعريب خليل أحمد خليل، بيروت لبنان، منشورات عويدات، الطّبعة الثّانية، 2001م، مج2(HQ).

[14]_ باعزيز بن عمر: من ذكرياتي عن الإمامين الرّئيسين عبد الحميد بن باديس و محمّد البشير الإبراهيمي. الجزائر، منشورات الحبر، (د.ط)، (د.ت).

[15]_ بدر الدّين بن جماعة: شرح كافيّة بن الحاجب. تحقيق و تعليق محمّد محمّد داوود، مصر، دار المنار للنّشر و التّوزيع، (د.ط)، (د.ت).

[16]_ بدوي طبانة: البيان العربي دراسة في تطوّر الفكرة البلاغيّة عند العرب و مناهجها و مصادرها الكبرى. مطبعة الرّسالة الطّبعة الثّانية، 1377هـ/1958م.

[17]_ بسّام العسلي: عبد الحميد بن باديس و بناء قاعدة الثّورة الجزائريّة. الجزائر، دار النّفائس و دار الرّائد، طبعة خاصّة، 1431هـ/2010م.

[18]_ جلال الدّين بن محمّد القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني و البيان و البديع. لبنان، دار الكتب العلميّة ،الطّبعة الأولى، 1424هـ/ 2002م.

[19]_ جمال الدّين بن هشام الأنصاري: شرح قطر النّدى و بلّ الصّدى. تحقيق بركات يوسف هبّور، لبنان، الطّبعة الأولى، 1418هـ/1997م.

[20]_ حسان تمّام: اللّغة العربيّة معناها و مبناها. المغرب، دار الثّقافة، (د.ط)، (د.ت).

[21]_ الحسن أبو هلال العسكري: كتاب الصّناعتين (الكتابة و الشّعر). تحقيق محمّد البجاوي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الأولى، 1371هـ/1952مـ.

[22]_ حسين منصور الشّيخ: الإعراب المحلّي للمفردات النّحويّة. بيروت لبنان، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، الطّبعة الأولى، 2009م.

[23]_ ديل كارنيجي: التّأثير في الجماهير عن طريق الخطابة. ترجمة رمزي يسى عزّت فهيم صالح، دار الفكر العربي، (د.ط)، (د.ت).

[24]_ رابح تركي: الشّيخ عبد الحميد بن باديس (رائد الإصلاح الإسلامي و التّربوي في الجزائر). الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للنّشر و الإشهار، الطّبعة الخامسة، 1422هـ/2001م.

[25]_ سليمان بن صيام، أحمد ولد قادة، محمّد بن الشّيخ الفغّون القسنطيني: ثلاث رحلات جزائريّة إلى باريس (1852_ 1878_1902). حقّقها و قدّم لها خالد زيادة، لبنان، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، الطّبعة الأولى، 2005م.

[26]_ سليمان بن صيّام: كتاب رحلة السيّد سليمان بن صيام الى بلاد فرانسة، مطبعة

الدولة، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).

[27]_ سليمان عشراتي: ابن باديس مخاضات العبور إلى العدوة الأخرى قراءة في تفاصيل المسيرة نحو خطّ النّار، وهران الجزائر، دار الغرب للنّشر و التّوزيع، (د.ط)، 2010م، الجزء الأوّل.

[28]_ سليمان عشراتي، ابن باديس التّحوّل من برزخيّة القول إلى حضور الفعل ملامسة لفقه سياسة الإصلاح و إصلاح السّياسة. وهران الجزائر، دار الغرب للنّشر و التّوزيع، (د.ط)، 2010م، الجزء الثّاني.

[29]_ سليمان عشراتي: ابن باديس حواشي و هوامش من الصّميم استبصار في خطوط المرايا المضبّبة. وهران الجزائر، دار الغرب للنّشر و التّوزيع، (د.ط)، 2010م، الجزء الثّالث.

[30]_ سليم مزهود: الخطاب الإصلاحي عند مبارك الميلي. الجزائر، وزارة الثّقافة، (د.ط)، (د.ت).

[31]_ سيّد قطب: منهج الفن الإسلامي. لبنان، دار الشروق، الطّبعة السّادسة، 1403هـ/1983م.

[32]_ صالح بلعيد: التّراكيب النّحويّة و سياقاتها المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني. ديوان المطبوعات الجامعيّة، (د.ط)، 1994م.

[33]_ صلاح فضل: علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته. مصر، دار الشّروق، الطّبعة

الأولى، 1419هـ/1998م.

[34]_ عائشة عبد الرّحمان بنت الشّاطئ: قيم جديدة للأدب العربي القديم و المعاصر. مصر دار المعارف، الطّبعة الثّانية، (د.ت).

[35]_ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. بيروت لبنان، مؤسّسة نويهض الثّقافيّة، الطّبعة الثّانية، 1400هـ/1980م

[36]_ عبد الرّحمان جلال الدّين السّيوطي: المزهر في علوم اللّغة بأنواعها. بيروت لبنان، منشورات المكتبة العصريّة، (د.ط)، (د.ت)، الجزء الأوّل.

[37]_ عبد الرّشيد زرقة: جهاد ابن باديس ضدّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر. لبنان، دار الشّهاب، الطّبعة الأولى، 1340هـ/1999م.

[38]_ عبد السّلام المسدّي: الأسلوبيّة و الأسلوب. طرابلس ليبيا، الدّار العربيّة للكتاب، الطّبعة الثّالثة، (د.ت).

[39]_ عبد الفتّاح فيّود بسيوني: علم البيان دراسة تحليليّة لمسائل البيان. القاهرة مصر مؤسّسة المختار للنشر والتّوزيع، الطبعة الرّابعة، 1436هـ/2015م.

[40]_ عبد الفتّاح مصطفى غنيمه: نحو فلسفة العلوم الطّبيعيّة النّظريّات الذريّة و الكوانتم و النّسبيّة. مصر، (د.ن)، (د.ط)، (د.ت).

[41]_ عبد القادر حسين: القرآن و الصّورة البيانيّة. بيروت لبنان، عالم الكتب، الطّبعة الثّانيّة، 1405هـ/1985م.

[42]_ عبد القادر فضيل، محمّد الصّالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس. الجزائر، دار الأمّة، (د.ط)، 2010م.

[43]_ عبد القادر المجّاوي: "عقود الجواهر في حلول الوفد المغربي بالجزائر"، أعمال محمّد بن مصطفى بن خوجة (1223هـ_1333هـ/ 1865م_1915م). منشورات خمسينيّة جامعة الجزائر، (د.ط)، (د.ت).

[44]_ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني. تقديم ياسين الأيّوبي، صيدا لبنان، المكتبة العصريّة، الطّبعة الأولى، 1421هـ/2000م.

[45]_ عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان. تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت لبنان، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، 1422هـ/2001م.

[46]_ عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث و المعاصر محمّد عبده و عبد الحميد بن باديس (نموذجا). قسنطينة الجزائر، دار مداد، الطّبعة الأولى، 2009م، الجزء الأوّل.

[47]_ عبد الكريم بوصفصاف: جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّة و علاقاتها بالحركات الجزائريّة الأخرى (دراسة تاريخيّة أيديولوجيّة مقارنة)، دار مداد، الطّبعة الثّانيّة، 2009م.

[48]_ عبد الله الركيبي: تطور النّثر الجزائري الحديث 1830_1974. ليبيا تونس، الدّار العربية للكتاب، (د.ط)، 1398هـ/1978م.

[49]_ عبد الله محمّد الغذّامي: تشريح النّص. بيروت، دار الطّليعة، الطّبعة الأولى،

1987م.

[50]_ عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر بالجزائر 1925_1954. الجزائر، الشّركة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع، الطّبعة الثّانية، 1983م.

[51]_ عبد المالك مرتاض: فنون النّثر الأدبي بالجزائر 1931_1954. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، (د.ط)، 1983م.

[52]_ عبد المجيد سيّد أحمد المنصور، زكريّا أحمد الشّربيني، إسماعيل محمّد الفقي، السّلوك الإنساني بين التّفسير الإسلامي و أسس علم النّفس المعاصر. مصر، المكتبة الأنجلو مصريّة، (د.ط)، 2002م.

[53]_ عبد النّور جبور: المعجم الأدبي. بيروت لبنان، دار العلم للملايين، الطّبعة الثّانيّة، كانون الثّاني يناير 1984م.

[54]_ عبد الواحد أبو الطّيّب بن علي اللّغوي الحلبي: الأضداد في كلام العرب. تحقيق عزة حسن، دمشق سوريا، الطّبعة الأولى، 1973م.

[55]_ عثمان أبو الفتح بن جنّي: الخصائص. تحقيق محمّد علي النّجار، مصر، مطبعة الهلال، الطّبعة الثّانية، 1331هـ/1913م، الجزء الأوّل.

[56]_ عزيزة فوّال بابتي: المعجم المفصّل في النّحو العربي. بيروت لبنان ، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، 1413هـ/1992م.

[57]_ علي بن الحسن الشّافعي: مدح التّواضع و ذمّ الكبر: تحقيق عبد الرّحمان النّابلسي.

دمشق، دار الشّامل للطّباعة و التّوزيع و النّشر، الطّبعة الأولى، 1413هـ/1993م.

[58]_ علي التّميمي وروير: أسرار التّرادف في القرآن الكريم، دار الحنظل، (د.ط)، 1405هـ/1985م.

[59]_ علي السّيّد عز الدّين: التّكرير بين المثير و التّأثير. عالم الكتب، الطّبعة الثّانية، 1407هـ/ 1986م.

[60]_ علي محمّد محمّد الصّلابي: كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي و سيرة الزّعيم عبد الحميد بن باديس. سوريا، لبنان، دار بن كثير، الطّبعة الأولى، 1437هـ/2016م.

[61]_ عمّار الطّالبي: آثار ابن باديس. الجزائر، الشّركة الجزائريّة، الطّبعة الثّالثة، 1417هـ/1997م، الجزء الأوّل، المجلّد الأوّل، الجزء الثّاني، المجلّد الثّاني.

[62]_ عمر بن قينة: الأدب الجزائري الحديث تاريخا.. و أنواعا، و قضايا.. و أعلاما. ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، الطّبعة الثّانية، 2009م.

[63]_ عمر بن قينة: أعلام و أعمال في الفكر و الثّقافة و الأدب. دراسة، دمشق سوريا، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، (د.ط)، 2000م.

[64]_ عمر بن قينة: الأدب العربي الحديث. الجزائر، دار الأمّة، الطّبعة الأولى، جانفي 1999م.

[65]_ أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث. الجزائر، دار الرّائد

للكتاب، الطّبعة الخامسة، 2007م.

[66]_ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثّقافي(1830_1954). لبنان، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى، 1998م، الجزء الثّامن.

[67]_ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب و الرّحلة. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، (د.ط)، 1983م.

[68]_ ماجد عرسان الكيلاني: أهداف التّربيّة الاسلاميّة (دراسة مقارنة بين أهداف التّربيّة الاسلاميّة و الأهداف التّربويّة المعاصرة)، المدينة المنوّرة، مكتبة التراث، (د.ط)، (د.ت).

[69]_ مازن صلاح حامد مطبقاني: عبد الحميد بن باديس العالم الرّباني و الزّعيم السّياسي. الجزائر، عالم الأفكار، (د.ط)، 2001م.

[70]_ مالك بن نبي: مشكلات الحضارة مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. بيروت، سوريا، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م.

[71]_ مالك بن نبي: شروط النّهضة. ترجمة عبد الصّبور شاهين، دمشق سوريا، دار الفكر، (د.ط)، 1406هـ/1986م.

[72]_ مبارك بن محمّد الميلي: رسالة الشرك و مظاهره. تحقيق أبي عبد الرّحمان محمود، المملكة العربيّة السّعوديّة، دار الرّاية للنّشر و التّوزيع، الطّبعة الأولى، 1422هـ/ 2001م.

[73]_ مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة و الأدب. لبنان،

مكتبة لبنان، الطّبعة الثّانية، 1982م.

[74]_ مجمع اللّغة العربية: المعجم الفلسفي. القاهرة مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، (د.ط)، 1403هـ/1983م.

[75]_ محمّد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري. دمشق سوريا، بيروت لبنان، دار بن كثير، الطّبعة الأولى، 1423هـ/2002م، كتاب الجنائز، ص327.

[76]_ محمّد الأنباري: الأضداد في اللّغة. ضبط و تصحيح محمّد عبد القادر سعيد الرّافعي، مصر، المطبعة الحسينيّة، المصريّة، (د.ط)، (د.ت).

[77]_ محمّد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي (1952م_1954م). جمع و تقديم أحمد طالب الإبراهيمي. بيروت لبنان، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الأولى 1997م، الجزء الأوّل، الجزء الرّابع.

[78]_ محمّد بن سمينة: في الأدب العربي الحديث بالجزائر (الفنون الأدبيّة في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس). الجزائر، مطبعة الكاهنة، (د.ط)، 2003م.

[79]_ محمّد بن سمينة: صفحات من إسهامات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في النّهضة الحديثة. دار مدني، (د.ط)، 2004م.

[80]_ محمّد الصّالح الصّدّيق: نماذج للاقتداء. الجزائر، دار هومه، (د.ط)، 2013م.

[81]_ محمّد عبّاس: البشير الإبراهيمي أديبا. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، (د.ط)، (د.ت).

[82]_ محمّد عبد اللّطيف حماسة: النّحو و الدّلالة (مدخل لدراسة المعنى النّحوي _ الدّلالي). مصر، لبنان، دار الشّروق، الطّبعة الأولى، 1420هـ/2000م.

[83]_ محمّد عبد المطّلب: البلاغة و الأسلوبيّة. القاهرة، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، الطّبعة الأولى، 1994م.

[84]_ محمّد بن علي الشّوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول. دار الفضيلة، (د.ط)، 1421هـ/2000م، الجزء الأوّل.

[85]_ محمّد علي الهاشمي: شخصيّة المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب و السّنّة. لبنان، دار البشائر الإسلاميّة، الطّبعة العاشرة، 1423هـ/2002م.

[86]_ محمّد قطب: الإنسان بين الماديّة و الإسلام. القاهرة مصر، دار الشّروق، الطّبعة العاشرة، 1409هـ/1919م.

[87]_ محمّد قطب: دراسات في النّفس الإنسانيّة. مصر، دار الشّروق، (د.ط)، (د.ت).

[88]_ محمّد القورصو: عبد الحميد بن باديس نصوص مختارة. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، (د.ط)، 2005م.

[89]_ محمّد مصايف: دراسات في النّقد و الأدب. الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 1988م.

[90]_ محمّد مفتاح: تحليل الخطاب الشّعري(استرتيجيّة التّناص). المغرب، المركز الثّقافي العربي، الطّبعة الثّانية، 1986م.

[91]_ محمّد الميلي: ابن باديس و عروبة الجزائر. الجزائر، وزارة الثّقافة، (د.ط)، 2007م.

[92]_ محمّد ناصر: الصّحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1954. لبنان، دار الغرب الإسلامي، الطّبعة الثّالثة، 1427هـ/ 2007م.

[93]_ محمّد نور الدّين المنجد: التّرادف في القرآن الكريم (بين النّظريّة و التّطبيق). دمشق سوريا، دار الفكر، الطّبعة الأولى، 1417هـ/1997م.

[94]_ محمّد بن يزيد المبرّد: المقتضب. تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، القاهرة مصر، الطّبعة الثّانية، 1399هـ/1979م، الجزء الرّابع.

[95]_ محمّد يوسف نجم: فن المقالة. بيروت لبنان، دار الثّقافة، الطّبعة الرّابعة، 1966م.

[96]_ مريم سيد علي مبارك: أعلام الجزائر. الجزائر دار المعرفة، (د.ط)، (د.ت).

[97]_ مهدي المخزومي: في النّحو العربي (نقد و توجيه). بيروت لبنان، منشورات المكتبة العصريّة، الطّبعة الأولى، 1964م.

[98]_ منذر عيّاشي: الأسلوبيّة و تحليل الخطاب. مركز الإنماء الحضاري، الطّبعة الأولى، 2002م.

[99]_ ابن منظور: لسان العرب. تحقيق عبد الله الكبير، محمّد أحمد حسب الله، هاشم محمّد الشّاذلي، القاهرة مصر، دار المعارف، الطّبعة الرّابعة، (د.ت)، المجلّد الأوّل، الجزء الأوّل.

[100]_ موسى سلامة: الشّخصيّة النّاجحة. مصر، مؤسّسة هنداوي للتّعليم و الثّقافة،

(د.ط)، (د.ت).

[101]_ مولود عويمر: أعلام وقضايا في التّاريخ الإسلامي المعاصر.القبة القديمة الجزائر، دار الخلدونية، الطّبعة الأولى، 1428هـ/2007م.

[102]_ نوار جدواني: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، دار المعرفة، (د.ط)، 2009م.

[103]_ وزارة الثّقافة الجزائريّة: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر، (د.ط)، 2007م، الجزء الثّالث، الجزء الرّابع، الجزء الخامس، الجزء السّادس.

_ المجلاّت و الدّوريّات:

[1]_ أحمد حمد فالح : "الانزياح الوظيفي و ملامحه في الحديث النّبوي الشّريف (رؤية جديدة في الدّراسة و التّحقيق)". مجلّة أبحاث البصرة، العراق، العدد الثّالث، المجلّد الثّامن و الثّلاثون، 2013م، ص(51_78).

[2]_ أحمد محمّد ويس: "وظيفة الانزياح في منظور الدّراسات الأسلوبيّة"، مجلّة علامات، الجزء الواحد و العشرون، المجلّد السّادس، جمادى الأولى 1417هـ/سبتمبر 1996م، ص(293_306).

[3]_ آلاء داود الشّرع: دريد عبد الجليل الشّاروط: "ظاهرة التّنغيم في العربيّة". مجلّة القادسيّة، العراق، المجلّد الثّالث، العدد الأوّل، رمضان 1425هـ/ تشرين الأوّل 2004م،

ص(149_159).

[4]_ بخولة بن الدّين: "الانزياح الدّلالي و أثره في تطوّر اللّغة". مجلّة جسور المعرفة، الجزائر، المجلّد الثّاني، العدد السّابع، ص(80_92).

[5]_ رابح تركي: "ابن باديس و نشأة الحركة الإصلاحيّة في الجزائر". مجلّة الأصالة، الجزائر، السّنة الرّابعة، العدد الرّابع و العشرون، وزارة الأصلي و الشّؤون الدّينيّة، ربيع الأوّل_ ربيع الثّاني1395هـ/مارس_ أبريل1975م، ص(74_115).

[6]_ طلال خليفة سلمان: "مستويات السّرد الوصفي القرآني _دراسة أسلوبيّة_". مجلّة تراث النّجف، العراق، العدد الثّاني، ذو القعدة 1434هـ، ص(291_329).

[7]_ عائشة أنور عمر: "فاعليّة التّكرار في النّص الشّعري الرّثائي _شعر الخنساء أنموذجا_". العدد الثّامن عشر، كانون الثّاني، 2014م، ص(130_131).

[8]_ عبد الحميد بن باديس: "الاجتماع العام للأمر الهام". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الأوّل، المجلّد الثالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، محرّم 1356هـ/14 مارس1937م، ص (1_4).

[9]_ عبد الحميد بن باديس: "كلمة المحتفل به". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الرّابع و الخامس، المجلّد الرّابع عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الثّاني و جمادى الأوّل 1357هـ/جوان جوليت 1938م، ص (288_291).

[10]_ عبد الحميد بن باديس: "لمن أعيش". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء

العاشر، المجلد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، شوّال 1355هـ/ جانفي 1937م، ص(424_428).

[11]_ عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّامن، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، شعبان 1356هـ/أكتوبر 1937م، ص(357_361).

[12]_ عبد الحميد بن باديس: "خطبة رئيس الجمعيّة التي ارتجلها في الاجتماع العام بعد تجديد مكتب الإدارة". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، شعبان 1355هـ/ نوفمبر 1936م، ص(359_361).

[13]_ عبد الحميد بن باديس: "الوطن و الوطنيّة الحقّ فوق كلّ أحد، و الوطن قبل كلّ شيء". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء السّابع، المجلّد الثالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، رجب 1356هـ/سبتمبر 1937م، ص(304_307).

[14]_ عبد الحميد بن باديس: "خطاب الرّئيس في الاجتماع العام لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي الترقي صبيحة يوم السّبت 29 رجب". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّامن، المجلّد الرّابع عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، 19 رمضان 1357/ 11نوفمبر 1938م، ص(100_104).

[15]_ عبد الحميد بن باديس: "خطاب رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين الذي ألقاه

في الاجتماع العام بمركز الجمعيّة بنادي التّرقي بالعاصمة". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، الجزء الثّامن، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، شعبان1355هـ/ نوفمبر1936م، ص(351_358).

[16]_ عبد الحميد بن باديس: "و قالت البتي ماتان". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الخامس، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، جمادى الأولى1356هـ/ 10 جويلية1937م، ص(228_230).

[17]_ عبد الحميد بن باديس: "صلاة و صلاة". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّالث، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الأول1355هـ/ جوان1936م، ص(108_109).

[18]_ عبد الحميد بن باديس: "كلمة صريحة". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الأوّل، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، غرّة محرّم1355هـ/أبريل 1936م، ص(42_50).

[19]_ عبد الحميد بن باديس: "منشور المقاطعة نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء التّاسع، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، رمضان1356هـ/ نوفمبر1937م، ص(427_429).

[20]_ عبد الحميد بن باديس: "غرداية وادي ميزاب". مجلّة الشّهاب ، قسنطينة الجزائر، الجزء الخامس، المجلّد السّادس، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، غرّة محرّم1349هـ/

جوان1930م، ص(316_317).

[21]_ عبد الحميد بن باديس: "حول كلمتنا الصريحة". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّالث، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الأوّل 1355هـ/ جوان 1936م، ص(141_146).

[22]_ عبد الحميد بن باديس: "حقوق الأمّة الجزائريّة التي تطلبها من الأمّة الفرنسوية". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الخامس، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الثّاني 1355هـ/ جوليت 1936م، ص(210_212).

[23]_ عبد الحميد بن باديس: "المؤتمر الجزائري الإسلامي العام". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الخامس، المجلّد الثّاني عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الثّاني 1355هـ/ جوليت 1936م، ص(214_215).

[24]_ عبد الحميد بن باديس: "الإسلام الذّاتي و الإسلام الوراثي". مجلّة الشّهاب، قسنطينة الجزائر، الجزء الثّالث، المجلّد الرّابع عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، ربيع الثّاني1357هـ/ جوان 1938م، ص(105_107).

[25]_ عبد الحميد بن باديس: "سيدي مدير البتي ماتان المحترم". قسنطينة الجزائر، مجلّة الشّهاب، الجزء الخامس، المجلّد الثّالث عشر، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، جمادى الأولى 1356هـ/10 جليت 1937م، ص238.

[26]_ عبد الحميد حميداتو: "عبد الحميد بن باديس و جهوده التّربويّة". كتاب الأمّة، قطر،

العدد السّابع و الخمسون، السّنة السّابعة عشرة، منشورات وزارة الأوقاف و الشّؤون الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، محرّم 1418هـ/ مايو _ يونيو 1997م، ص(45_60).

_ الجزائد:

[1]_ جريدة المبشّر: الجزائر، العدد الثّامن و العشرون، مطبعة الدّولة، 02 ذي الحجّة 1224هـ/ 30 أكتوبر 1848م، واجهة الجريدة و الصّفحة التي تليها.

[2]_ جريدة المبشّر: الجزائر، العدد التّاسع و الثّلاثون، مطبعة الدّولة، 22 جمادى الأول 1265هـ/ 15 أبريل 1849م، واجهة هذا العدد.

_ المراجع باللّغة الفرنسيّة:

[1]_ Ali Merad : Le Réformisme Musulman En Algérie de 1925 à 1940, Paris, Maison des sciences de l'homme, 1967.

[2]_ Amar Hellal : Le Mouvement Reformiste Algérien, Les hommes et l'histoire (1831-1957), Alger, Office des publications universitaires, 2002.

[3]_ Belguedj M.S: «Ben Badis et le Mu'tazilisme». Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°13-14, 1973, Mélanges le Tourneau, I, pp (75_86).

[4]_ Charlotte Courreye : « L'école musulmane algérienne de Ibn

Bàdîs dans les année 1930, de l'alphabétisation de tous comme enjeu politique», Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée [En ligne], 136 | novembre 2014. URL: http://journals.openedition.org/remmm/8500

مقدّمة.....أ

الفصل الأوّل: خاصيّة نكران الذّات عند علماء الإصلاح و نثرهم

تمهيد.....09

أوّلا: عوامل بروز خاصيّة نكران الذّات عند علماء الإصلاح.....13

1_ العامل التّاريخي.....13

أ_ اجتماعيّا.....14

ب_ اقتصاديّا.....17

2_ العامل الدّيني.....19

أ_ مبارك الميلي.....20

ب_ العربي التبسّي.....22

ج_ الطّيّب العقبي.....24

د_ البشير الإبراهيمي.....26

3_ العامل الفكري.....28

ثانيّا: أثر نكران الذّات في الأدب الإصلاحي.....30

1_ أدب جامد لواقع غائب.....32

2_ أدب متفاعل بواقع حاضر.....41

الفصل الثّاني: مرجعيّات نكران الذّات عند ابن باديس و أبعادها

1_ نبذة عن حياة ابن باديس.....54

2_ دوره الإصلاحي.....57

3_ عوامل نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس.....60

أ_ العامل الاجتماعي.....61

ب_ العامل التّربوي.....63

ج_ العامل الدّيني.....65

د_ العامل الفكري.....67

4_ أبعاد نكران الذّات عند عبد الحميد بن باديس.....69

أ_ البعد الدّيني.....69

ب_ البعد الفكري.....73

ج_ البعد الاجتماعي.....75

د_ البعد النّفسي.....79

5_ السّمات العامّة لنكران الذّات في كتابات ابن باديس.....82

أ_ السّمة الموضوعيّة.....82

ب_ السّمة الإنسانيّة.....85

ج_ السّمة الدّينيّة.....88

الفصل الثّالث: معالم نكران الذّات و تجلّياتها في نثر عبد الحميد بن باديس

1_ أدب ابن باديس النّثري.....93

أ_ الخطابة.....93

ب_ المقال.....103

ج_ الرّسائل.....116

2_ ملامح نكران الذّات في نثر عبد الحميد بن باديس.....128

أوّلا: ميله إلى الكتابات ذات الطّابع العام.....128

ثانيّا: ندرة كتاباته الشّخصيّة.....133

ثالثا: بساطة تعبيره رغم بلاغة أسلوبه.....136

رابعا: وجود سمات تعبيريّة تكرّس نكرانه لذاته.....137

الفصل الرّابع: الجماليّات الأسلوبيّة لنكران الذّات في نثر عبد الحميد بن باديس

1_ ابن باديس و عدول الأنا في رسائله.....141

2_ نكران الذّات و مستويات الأسلوب في خطب ابن باديس.....148

أ_ المستوى الصّوتي.....149

1_ التّنغيم.....150

2_ التّكرار.....153

أ_ تكرار المعنى بلفظ بعينه أو بلفظ غيره.....154

ب_ تكرار المعنى بعبارات مختلفة.....156

ج_ تكرار جملة بعينها.....159

ب_ المستوى الدّلالي.....162

1_ الحقل الأوّل: حقل ذم الذّات.....164

_ صيغة الصّفة المشبّهة باسم الفاعل.....164

2_ الحقل الثّاني: حقل مدح الأخر.....167

_ الضّمير.....171

ج_ المستوى التّركيبي.....174

1_ الجمل الاسميّة و الفعليّة.....175

2_ التّوكيد.....179

3_ التّنكير و التّعريف.....182

أ_ التّنكير.....183

ب_ التّعريف.....185

3_ أدبيّة المقال و موضوعيّته.....187

أ_ الوضوح.....189

1_ التّرادف.....190

2_ التّضاد.....194

3_ العناصر الشّارحة.....197

ب_ التّصوير الفنّي الواقعي.....202

1_ التّشبيه.....203

2_ الاستعارة.....205

_ الخاتمة.....210

_ قائمة المصادر و المراجع.....215

_ الفهرس.....234

طبعت خاصيّة نكران الذّات نثر ابن باديس (الرّسائل، الخطب، المقالات) بطابع خاص غفلت العيون عن رؤيته و رؤية سرّ جماله، فتجلّى أثرها على مستوى الأساليب و الموضوعات المطروحة، و هذه الأطروحة على تواضعها حاولت الوقوف على التّجليّات الفنيّة لهذه الخاصيّة في نثره.

الكلمات المفتاحيّة: نكران الذّات، نثر، ابن باديس، التّجليّات الفنيّة.

The prose of Ibn Badis was characterized by the tendency of self_denial (messages, discourses and articles) which was tackled with a special character ,the latter was not seen and the secret of its beauty was explicit at the level of the styles and the themes. I tried in this humble thesis to shed light on the artistic phenomena of this tendemcy in his prose.

Key words: self _ denial ,Ibn Badis' prose ,artistic phenomena.